رواية

الطاهر بنجلون

حين تترنّح ذاكرة أمي

ترجمة: رشيد بنحدّو



المركز الثقافي العربي

الطاهر بنجلّون

حين تترنّح ذاكرة أمّي

رواية

ترجمة

رشيد بنحدّو

المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للرواية:
Tahar Ben Jelloun
Sur ma mère

**طبع هذا الكتاب بمساهمة
من الملحقية الثقافية
لسفارة فرنسا في المغرب**

الكتاب

حين تترنّح ذاكرة أمّي

تأليف

الطاهر بنجلّون

ترجمة

رشيد بنحدّو

الطبعة

الثانية، 2011

الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-390-5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 305726 ـ 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 01750507 ـ 01352826
فاكس: 1343701 ـ 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

[1]

تحوّلت أمي منذ مرضها إلى كائن نحيل صغير ذي ذاكرة مترنحة. فهي تنادي أفراد عائلتها الذين ماتوا من زمن بعيد. تكلمهم. يدهشها أن والدتها لا تزورها، لكنها تُثني على أخيها الصغير لأنه، كما تقول، يحمل إليها هدايا. يسهرون معها وهي في فراشها. أتجنب إزعاجهم مثلما أحرص على عدم مضايقتها. خادمتها كلثوم تقول متأوهةً: «تظنّ أنها في فاس في عام ولادتك!»

تنكفئ أمي إلى طفولتي. تتقهقر ذاكرتها. تتبعثر فوق الأرض المبللة. خارج الزمن تعيش منسحبةً من الواقع. تنفعل لأمور قديمة تتوارد إلى ذهنها. تسألني كل ربع ساعة: «كم طفلاً عندك؟». وفي كل مرة أجيبها الجواب نفسه. هذا يغيظ كلثوم التي تقول إنها لم تعد تطيق سماع السؤال نفسه والجواب نفسه.

أمي تخاف من كلثوم، امرأة تنمّ عيناها عن نوايا خبيثة. هي تعرف أنني أرتاب من نظراتها. لذلك تنكّس رأسها حين تكلمني. تتذلّل لي حين تسلّم عليّ، فتنحني محاولةً تقبيل يدي. لا أريد دفعها ولا منعها من ذلك. أتظاهر بعدم الانتباه

إلى كيدها. أرى الخوف في عينيّ أمي. الخوف من أن تتخلّى كلثوم عنها حين يبقيان رأساً لرأس في المنزل. الخوف من ألاّ تناولها الدواء. الخوف من أن تتركها دون أكل أو أن تطعمها لحماً فاسداً. الخوف من أن تضربها كما لو كانت طفلة صغيرة ارتكبت حماقات. تقول لي أمي حين تكون في لحظة وعي: «أنا لست حمقاء. كلثوم تعتقد أنني فتاة صغيرة. توبخني. تهددني. لكنني أعرف أن مداومتي على الأدوية لها أثر يوهمني بأنها خبيثة. إنها بالعكس طيبة. كل ما في الأمر أن تفرّغها للعناية بي بدأ يزعجها ويتعبها. فهي التي تنظفني كل صباح. هل تعرف يا ولدي أنها هي التي تجمع خرائي. وهو ما لا أستطيع أن أطلب منك أو من أخيك فعله. لذلك، لا حيلة لي سوى أن أغمض عيني عن كثير من ردود أفعالها...».

كيف أنسى أن أمي هي الآن بين يدي امرأةٍ أصبحت مع مرور الوقت قاسية بذيئة خشنة؟ لماذا تستعيد أمي طفولتي تحت نظرات هذه المرأة الفظة؟

مرة أخرى حدثتني أمي عن القابلة للاّ راضية التي ولّدتني. ألحّت عليّ في أن أدعوها لتتغدّى معنا، فأعطتني عنوانها: «إنها تسكن غير بعيد عن ساحة البطحاء. اذهب إلى مقهى سلاّم، زوج خدّوج، هل تذكر خدّوج، زوجة ابن عمّي مولاي علي؟ اسأل عنها هناك. فالناس كلهم يعرفونها. لا ترجع إلاّ وهي معك». حاولتُ أن أذكّرها بأن للاّ راضية رحلت عن هذه الدنيا منذ زمن بعيد. لكنها جددت رغبتها في أن تكون معنا حول مائدة الغداء.

أصبحت أمي، منذ تغيير غرفتها، مقتنعة بأنها تقيم في دار غير دارها وفي مدينة أخرى. تعتقد بأننا لم نعد نسكن في طنجة بزنقة علي باي التي لا تنفذ، بل في فاس بحيّ المخفية. كما أننا لسنا في العام 2000، بل في نهاية 1944. أحلامها لا تريد أن تنطفئ. تستبدّ بها في لحظات صحوها. لا تفارقها. يرتجّ الحاضر. يرتعش. يترنح. تبتعد غير مبالية به. لقد انفصلت عنه من غير أن يعنيها ذلك.

تقول إنها رأت رجلاً وامرأةً في ردهة مدخل الدار لعلهما جاءا لشراء دارنا القديمة بفاس. تحذرني من تخفيض الثمن: «الوقت صعب والحرب لم تنته بعد. ثم إن والدك لن يرضيه أن تباع الدار بثمن بخس. سمعتُ الرجل يقول للمرأة إنها صفقة مربحة. علينا إذن أن نغتنم الفرصة. كأنهما يعيشان معنا ويعرفان أننا نتخبط في وضعية مالية صعبة! ليس الرجل من فاس. لهجته جبلية. رجال فاس أكثر أناقة. وفي كل الأحوال، لن نبيع الدار!».

اليومَ جاءت زينب، ممرضتها، لتبدل ضمّاداتها. لم تتعرّف عليها، فرفضت أن تمدّ لها رجلها لتعالجها. تقول لها زينب إنها لن تؤلمها. تبتسم: «إذا آلمتني، فإن والدي سيعنّفك. أنا لست فتاة صغيرة. هيّا، نظّفي هذا الجرح ولا تعامليني كما لو كنت فتاة صغيرة مذعورة». ها هي استعادت صحوها. تتذكر كل شيء. كأن الأمر مجرد فجوة في ذاكرتها، مجرد ضبابة غشيت ذهنها.

رمت أمي سلسلة جميلة من ذهب في المرحاض. التقطتها

كلثوم وبقيت تنظفها طوال يومين، ثم بلّلتها بخليط من الماء وعطر كولونيا.

جاءت أختي من فاس لتعتني بها. أغاظها أن أمي حسبتها والدتها. أختي متقدمة في العمر. فليس بينهما سوى فارق ست عشرة سنة. إنها ابنتها من زوجها الأول. أمي تتذكر هذا جيداً: «لم يكن عمري يتعدّى خمسة عشر عاماً. زوجي كان قويّاً وجميلاً. لكن وباء التيفوس خطفه مني قبل ولادة ابنتي، فأصبحتُ أرملة وعمري ست عشرة سنة!».

[2]

كانت المدينة تعجّ بالأجانب. لكن الحرب لم تكن قد بدأت بعد. أظن أنها رأتني في الحمّام. فغالباً ما تختار الأمّهات زوجات أبنائهنّ في الحمّام. أذكر هذا جيداً. اقتربت امرأةٌ مسنّة من أمي وطلبت منها قليلاً من الغاسول، فما كان عندها منه قد نفد. لكن بنات العائلات مثلنا يتساعدن فيما بينهن، أليس كذلك يا للاّ الحاجّة؟ فأجابتها أمي، التي لم تكن قد أدت فريضة الحج، إن ربّي لم يناد عليّ بعد لأزور للاّ مكة، فأنا أنتظر، والرجاء في الله، هاك، خذي هذا الغاسول، من عند الشريف الوزاني اشتريتُه، رائحته زكية ويرطّب البشرة. كنتُ أنصت إليهما من غير أن أفطن إلى أن المرأة كانت بهذه الطريقة الماكرة تطلب يدي من أمي. صحيح أنني رأيتها في لحظة تهمس في أذن أمي شيئاً ما من قبيل الله يحفظ لك هذه الغزالة ذات البشرة البيضاء والشعر الطويل! إذ يقال عادة حين يراد طلب المصاهرة: الله يحفظها ويبعدها عن عيون أولاد الحرام!

أياماً قليلة بعد ذلك، قالت لي أمي بصوت فاتر مستسلم: أظن يا ابنتي أنك ستتزوجين. والدك موافق، لا سيما أنه يعرف

جيداً عائلة الولد الذي رأيت والدته في الحمّام. إنها عائلة شريفة ذات مال وجاه وسليلة نبيّنا المحبوب. الولد يعمل مع والده التاجر في الديوان، قرب متجر عمّك سيدي عبد السلام. علاوة على هذا، فعمك هو الذي فكّر فيك حين لاحظ شطارة الولد في عمله. والدته منحتني شعوراً بأنها طيبة، فهي من عائلة كبيرة. اكتشفنا أن عائلتينا تتعارفان حق المعرفة. هم مثلنا فاسيون أقحاح من قاع قيعان فاس. هل تعرفين يا ابنتي أن الفاسية لن تكون سعيدة إلا مع فاسيّ في مقامها! فنحن الفاسيات لا نتزوج إلاّ بالفاسيّين، وهذه حقيقة فهمها أجدادنا، فحرصوا على ألاّ يتصاهروا إلاّ مع العائلات الفاسية. أنا لن أعطي أبداً ابنتي لولد لا نعرف شيئاً عن نسبه، ولد يعيش في مدينة غريبة مثل الدار البيضاء أو حتى مكناس. الفاسي للفاسية. هذه ضمانة وحيطة لا يجوز التفريط فيهما.

كنت أنصت إليها من غير أن أنبس بكلمة. حائرة كانت وخائفة: ولكن، أَيْمًا، أنا ما زلت صغيرة، فعمري لا يتعدى خمس عشرة سنة! أنا ما زلت ألعب بالدمى. . .

ـ هل تعرفين يا ابنتي أن آخر زوجات نبيّنا المحبوب، وهي عائشة، المُفضَّلة عنده، لم يكن عمرها يتعدى الثانية عشرة حين تزوجها؟ أنت بنت رجل كالقديس يوقره الناس ويجلّونه، أنت بنتُ شريفٍ ينحدر نسبه مباشرةً من بيت النبي. أنا نفسي زوجني والداي بوالدك وعمري ست عشرة سنة.

ـ ما عمر طالب الزواج هذا الذي ينتمي إلى عائلة وجيهة؟

ـ هل جننت؟ عمك أثنى عليه كثيراً، فلا يجوز لك أن

تشكّي في كلامه. كل ما أعرف هو أنه شابّ ذو خصال حميدة ومن عائلة ذات نسبٍ معروف ويشتغل مع والده في الديوان. ستعرفين عنه المزيد ليلة عرسك. تماماً كما حدث لي أنا أيضاً. هل تظنين أنني كنت أعرف والدك قبل الزواج؟ لم يتعرّف أحدنا على الآخر إلاّ ليلة العرس، وهذا لم يمنعني من أن أكون أسعد امرأة في الدنيا...

ـ لعل السبب أنه كان صغير السن!

ـ تماماً... كنت زوجته الأولى. لم يكن من نوع أولئك الرجال الذين يجمعون بين زوجتين أو ثلاث زوجات...

ـ يْمّا، لن أعاكسك أبداً، سأفعل ما تطلبين مني أن أفعله عسى أن أنال رضاك.

ـ لا تخشي شيئاً، فأنا لا أبغي لك إلاّ الخير. قلبي يا ابنتي منقبض... فكل زواج هو رهان، ولا يمكن لأحد أن يتكهّن بما ستؤول إليه الأمور. لذلك، لا بد من معرفة كل شيء عن عائلة العريس، عن أصوله. نعم... الأصول شيء مهم، فهي تعطي فكرة عن الوسط الذي تَرَبَّى فيه. المشكلة هي أن ينبني الزواج على الغش والخداع. هذا ما حصل فعلاً لابن خالي سيدي العربي: لقد زوّجوه بالأخت الكبرى للفتاة التي اختارتها له أمه. المسكين لم يعرف ذلك، مثلنا جميعاً، إلا ليلة العرس. وبما أن تقاليدنا ترفض الطلاق، فقد تزوجها.. هي امرأة لا أثر فيها للجمال، لكنها طيبة وطبعها وديع... أما أنت، فكوني مطمئنة البال: إن سيدي الإدريسي شابّ ذو خلق رفيع وعائلته نعرفها.

[3]

جسد أمي لا يكفّ عن التكوّم. تقلّص وانكمش. أصبحتْ شيئاً صغيراً، خفيفاً، لا يكاد اللحم يكسوه، دائماً يتوجّع. ضَعُفَ بصرُها، لكن سمعها سليم. تَعَرَّفَتْ على الأذان في زقزقة عصفور دوري. قالت: «إنه يُكَبِّرُ للصلاة». لم تعاكسها أختي، مؤكدةً أن الطائر مَلَكٌ كريم نزل من السماء ليصلّي معهما.

ها هي مرة أخرى تخلطني بأخي، تسألني عن أحوال أبنائه، وتنسب أبنائي إلى أحد أولادها الآخرين. فأفضّل أنا أن أضحك، وهو ما لا يتقبّله أخي الذي تدمع عيناه. أنا أيضاً أرغب في البكاء. لكنني أتمالك نفسي، لأنني أعرف أنها ستستعيد صحوها، وستعود كما كانت بالنسبة إليّ دائماً، جميلةً وأنيقةً، ذكيةً ورقيقةً، واعيةً بما تعانيه ومدركةً لكل ما يحدث حولها. فهي لا تفقد رشدها تماماً. ذات مرة، تَسَلَّى أخي بحساب مدة صحوها ومدة هذيانها. هو يزعم أنها تهتر أكثر مما تضبط نفسها.

بالأمس، طلبت مني كلثوم، وهي مرتبكة، أن أشتري خِرَقاً من ورق لأن سَلَسَ البول استفحل لدى أمي. لكن أمي ترفض

وضعها بين فخذيها. تتعمد أن تزيل منها الجزء اللاصق وترميها تحت السرير. تثور أعصاب كلثوم. لم تعد قادرة على التحمل. تقول لي: «أنتم، أبناءها، تزورونها وتبادرون إلى الانصراف. أما أنا، فأبقى هنا الوقت كله، نهاراً وليلاً، وخاصة بالليل. نومها مضطرب. توقظنا لتحدثنا عن فاس وعن إخوتها الذين لم يعد لهم وجود في هذه الدنيا. اطلبوا من الطبيب أن يعطيها دواء يعيد لها رشدها أو ينوّمها. لقد عيل صبري!».

تتحدث أمي دائماً عن الموت بهدوء وصفاء. فإيمانها بالله جعلها لا تخاف الموت. ذات مرة، وقبل أن تصبح حالتها الصحية مقلقة، طلبت مني أن أعطيها مقداراً كبيراً من المال. «لماذا؟ لا تكن مثل أبيك الذي كان يسأل دائماً عن الأشياء التي يُصرف فيها المالُ. أريد أن أغير الصالون، أن أشتري قماشاً جديداً أغلف به الأفرشة، أن أصبغ الدار كلها بلون آخر، أن أشتري خِوانين واطئين وملاعق وشوكات وسكاكين وفوطات جديدة». ولماذا كل هذا؟ «أريد أن تكون الدار نظيفة ومرتبة يوم جنازتي. سيفد الناس عليكم من كل مكان، وأنا لا أحب أن يجدوا الدار مهملة. يجب أن تقدموا لهم أحسن الأطعمة، فأنا أستقبل دائماً ضيوفي بأريحية وابتهاج. ينبغي إذن أن تكون آخر زيارة لهم أبهى وأكمل زيارة. لهذا السبب، يا ولدي، أحتاج إلى المال. إيّاك أن تنسى ما قلته لك الآن: يجب أن تكون جنازتي احتفالاً كبيراً».

والدة صديقي رولان احتفلت بعيد ميلادها التسعين بقيامها بجولة حول العالم. هي تعيش في سويسرا بمدينة لوزان. تتمتع

بصحة جيدة، تلعب كل يوم البريدج، تقرأ الكتب وتتردد إلى قاعات السينما. فالحياة في سويسرا أقل تعباً من الحياة في فاس! أما أمي، فلم تذهب إلى المدرسة قط، ولا تعرف أن تلعب البريدج، ولم تذهب أبداً إلى المسرح أو الأوبرا. أمي تزوجت ثلاث مرات، وولدت بنتاً وثلاثة أبناء تفانت في تغذيتهم وتربيتهم. ثلاثة أزواج وقصة حب واحدة. هذه القصة لم أسمعها تحكيها لي، بل خمّنتها. فأمي لا تتكلم عن الحب. إنها تعبّر عنه فقط حين تفرح بأبنائها قائلةً أنا أموت عليك، فأنت بؤبؤ عيني، وقوس قزح حياتي! أمّية لكن غير جاهلة. لها ثقافتها ومعتقداتها الدينية الراسخة وقيمها وتقاليدها. عاشت حياتها من غير أن تكون قرأت صفحة واحدة من كتاب أو رقماً واحداً من حساب. عاشتها في عالم مغلق تحفّ به إشارات تتعاقب أمام عينيها من غير أن تستطيع فهمها. لكن مشكلاً عويصاً طرأ على حياتها حين رَكَّبَ والدي جهاز تلفون في الدار. أحست بالحاجة إلى تعلّم الأرقام لتتمكن من مكالمة أبنائها وأختها وزوجها. فشرع والدي يعلّمها كيفية استعمال الجهاز. لكن سرعان ما نفد صبره وتركها وحدها في مواجهة لوحة كتب فيها أرقاماً كبيرة غليظة. فقررت أن تتعلم تركيبتين فقط من الأرقام لا أكثر، الأولى تخص خط هاتف متجر والدي، والثانية تخص خط هاتفي أنا في باريس. كانت تقضي اليوم كله مرددة هاتين التركيبتين لتحفظهما عن ظهر قلب. لكنها، لسوء حظها، حين حفظت أرقام خطي الهاتفي واستطاعت أن تركّبها لتحدثني، كان يحدث لها أحياناً، حين أكون خارج منزلي، أن تصادف الجهاز

المجيب. قالت له مرة: اسمعيني يا هذه المكينة، أنت مكينة ولدي الذي في لافرانس، أليس كذلك؟ إذن، أنصتي إليّ جيداً ولا تنسي ما سأقوله لك لتبلغيه له حين يعود. هل تسمعينني؟ إذن، قولي له إن أمه اتصلت به وإن صحتها جيدة... لا، ليست جيدة تماماً، وإنها تموت حنيناً إليه، قولي له أيضاً إن والده يسعل كثيراً ويرفض أن يذهب إلى الطبيب، ألحّي كثيراً على هذا، قولي له أن يتصل هاتفياً بصديقه الطبيب ليوصيه بزيارة والده، فهو يسعل كثيراً ويبصق أشياء غريبة، قولي له كذلك إن أخته ثريّا ذهبت إلى للاّ مكة. تذكّري يا هذه المكينة كل ما قلته لك، لا تنسي أن تقولي له أن يكلّم والده، وأن نسبة السّكّر في دمي زادت بسبب معاكسة كلثوم لي، هذا كل ما في الأمر، وأنا أعوّل عليك في تبليغ كل ما قلته لك. كلمة أخيرة وبسرعة: قولي له إن زوجة الحاجّ، ابن عمّه، توفيت، وإن عليه أن يتصل به ليعزّيه، شكراً لكِ، شكراً كثيراً!.

[4]

أفنت أمي حياتها كلها في المطبخ وباقي مرافق الدار. لم تنعم أبداً بالراحة. أتذكّر فوران غضبها حين كانت المدفأة تتعطل وكان عليها أن تزيل بعناية الأوساخ المتراكمة التي سدّت الأنبوب الموصل للبترول. وأتذكّر الحياة بدون ثلاّجة وبدون موقد غاز وبدون ماء جار وبدون تلفون. أمي تعبت كثيراً. الخادمات اللواتي كنّ يساعدنها كنّ يستغللن رقّتها ولطافتها. كم من مرّةٍ وجدت نفسها في المطبخ تعدّ بمفردها طعام الغذاء لخمسة عشر فرداً من العائلة، حَلُّوا ضيوفاً في آخر لحظة، ومن غير إعلام مسبق، لقضاء العطلة عندنا. كانت تلزم نفسها باستقبالهم بالابتسام والترحاب وكل عبارات اللياقة: هذا نهار كبير، نوّرتم داري، عاش من شافكم، لا تؤاخذوني، اقبلونا كما نحن، هذه ليست مجيئتكم عندنا، لا طار لكم طائر، هذا نهار كبير، كبيييير...

كانت تطلق هذه الجمل واحدة تلو أخرى وهي تفكر في المشقّة والإرهاق اللذين ينتظرانها من هذه الزيارة التي لم تستعدّ لها. وهل كان بإمكانها أن تعبّر عن استيائها؟ فلا بد من رعاية

الضيوف وحسن وفادتهم. أحياناً يكون الضيوف من عائلة الزوج، فتستقبلهم بنفس الحفاوة والابتسامة اللتين تستقبل بهما أفراد عائلتها. كانت تفرط في الترحاب تفادياً لأي ملاحظة قارصة من زوجها أو حماتها هي في غنىً عنها. إنها مسألة كرامة! كانت تعرف أنها عرضة لامتحان.

كان الخوف من أن تكون دون المستوى يدمّرها. تحبّ أن تستقبل الضيوف والزوار ليس كما اتفق، بل بالاستعداد سلفاً لذلك. مهووسة باحترام القواعد والتقاليد. تخشى أن تنفد ذخيرتها من المواد الغذائية، فلا تجد ما تطهوه لتقدمه لهم، فتخجل من ذلك. بالأمس، استحصلت مني مرة أخرى على وعد بأن أجهّز لها جنازة لا ككل الجنائز: «إذا تكفّلتَ أنتَ بذلك، فأنا على يقين من أنك ستكون في مستوى المسؤولية. فقلبك كبير وأنا أحبك لذلك. إنك تحتل في قلبي وفي كبدي منزلة خاصة منذ ولدتك. إذن، عِدْنِي بذلك. هكذا، سأرحل عن هذه الدنيا وفي صدري هَمٌّ ناقص».

كانت البارحة في تمام صحوها. تذكّرتْ جميع ما قالته لي من أشياء متنافرة ومخالفة للواقع: «الله يستر يا ولدي! حسبتُ أن والدك ما يزال حيّاً يرزق! ولذلك استغربتُ عدم رجوعه إلى الدار. تبّاً لهذا الرأس الذي لم يعد يحفظ أي شيء! يخلط الأمور بعضها ببعض، وهذا شيء مخجل. أنا أعرف أن والدك مات منذ عشرة أعوام. أعرف أن زوجة ابن عمّك ماتت قبل ثلاثين سنة في وقت النِّفاس. ما أكثر الأموات الذين يحومون حول رأسي! لعله مرض السّكّر. لعلها كثرة الأدوية التي

أتجرعها منذ وقت طويل ما يسبّب لي هذه الحالة من الهذيان في كلامي. لحسن الحظ أنني اليوم في حالة جيدة. أرى الأمور بجلاء وأعرف جيداً ما يحدث من حولي. لكن، قل لي، هذه الدار... لن تبيعوها، أليس كذلك؟ أنا شديدة التعلّق بها، أفضّلها على الدار التي كنّا نسكنها في العامِ الماضي، تلك التي تطلّ على البحر». فأصحح كلامها: «لا، أَيْمَّا، الدار التي تطلّ على البحر لم نعد نسكن فيها منذ ثلاثين عاماً. والدار حيث أنتِ الآن هي دارك، وليست جديدة». ـ وهذه الحديقة؟ لم يكن في دارنا حديقة...».

كل هذا لأنها غيّرتْ غرفتها! من نافذتها تنظر إلى شجرة تين هرمة وبعض الأعشاب. من قبل كانت تقيم في الصالون الذي يوجد وراء الحديقة الصغيرة. بابه ونوافذه تنسدّ بشكل رديء. لكن الطبيب أرغمها على الانتقال إلى غرفة أخرى تجنّباً لمجاري الهواء في الصالون.

هذا الصباح بكت أمي. تقول إن ابنيها خُطفا منها. تمّ انتزاعهما منها حين كانت ترضعهما من ثدييها ـ كان لها نهدان جميلان وبشرة جد ناعمة ـ كنتُ أُرْضعُ أحدهما من ثدي اليمين والآخر من ثدي اليسار. كانا جائعين. فجأة انبثقتْ من حيث لا أدري امرأةٌ ترتدي لباساً أسود وانقضّت عليهما ثم أخذتهما مني وانصرفت. شعرتُ بألم لا يطاق في جذر ثديي. شفرة تمزق جلدي. ثم صعد ابناي إلى السماء بخفة. الآن يجب أن أصعدَ لأسترجعهما.

كانت أمي دائماً قصيرة القائمة. فكان والدي يسخر منها

بسبب ذلك، وهو ما كان يضايقها. ذات يوم ناداها بـ «media mujer»، أي نصف امرأة، فضحكتْ. اليوم لم يعد قصر قامتها يزعجها. تقول فقط قلقها وتعلقها الاستحواذي ببعض الأشياء، مثل السبحة البلاستيكة، التي حملتها لها إحدى ربيباتها من مكة، أو نظارتاها أو حجرة التيمم أو كيس نقودها حيث تحتفظ ببضع أوراق مالية... لا شك في أن كلثوم استغلت أكثر من مرة غياب ذاكرتها لتسرق لها بعض النقود. هنا تكون أمي مضطرة إلى أن تسترجع منها ميزانية التسيير اليومي. لست أدري هل تسرق كلثوم لأن حاجتها إلى المال تتزايد أم لأنها تعاني من هوس السرقة. كثيراً ما تذمّرتْ أمي من ذلك. لكنها كانت تقول: «لا خيار أمامي سوى أن أغض الطرف عن ذلك. فلا بأس في ذلك ما دامت لا تسيء معاملة أبنائي. فلا قيمة للفلوس... الفلوس وسخ الدنيا.» لم تعرف أمي أبداً كيف تتصرف مع الخادمات. فهي سرعان ما تتخذهنّ صديقات لها، فتعاملهنّ كما لو كنَّ من أفراد العائلة. لذلك كانت تستغرب أن يتخلّين عنها بعد أن يكنّ اختلسن أشياء ذات قيمة: «كنت أعتبرهنّ من عائلتي، أدعوهنّ ليأكلن معي، أهدي لهنّ فساتيني، أقدم لهنّ بعض الهبات، وعوض أن يعترفن بالجميل، ينصرفن ويتركنني بدون معين. يا للخيانة! إن سكّان القرى والجبال يحسدون سكّان المدينة. فمن الطبيعي أن يوسوس لهم الشيطان أن يسرقوا...».

في العام الماضي، هرعتْ إلينا خالتي حين أنذرها طبيبُ أمي بأن صحتها تدهورت. كان إنذاراً كاذباً. أمكن لأمي أن تقرأ

في وجه أختها ما يشبه الخيبة. فكأنّ لسان حالها يقول: «لقد أسرعتُ في المجيء كالمجنونة وهاأنذا أجد أختي تتمتع بصحة تامة كما بتأثير سحرٍ ما! جئت إذن من أجل لا شيء أو أكاد!». لم تردّ عليها، لكن الزيارة كانت قصيرة. يذكّرني هذا بفيلم المخرج الياباني أوزو «رحلة إلى طوكيو». فلقد سارع أحد الأبناء إلى زيارة والده المريض، وحين وجد حالته غير مقلقة، ندم على سفره الذي اعتبره مضيعة للوقت، قائلاً في نفسه: «آه... لو أمكن لروحه أن تزهق الآن لَأَعْفَانَا، أنا وزوجتي، من عناء المجيء مرة ثانية!». حين أكون بين أفراد عائلتي، يحدث لي أن أحسب نفسي في فيلم لـ أوزو. أسمعهم يخوضون في تفاهات، فأتظاهر بعدم الانتباه إلى ذلك. فهذه أخت والدتي مثلاً، الوفية، دائماً، بنزقها وطيشها، يحلو لها أن تخلط المزاح بالكلام اللاذع. الدنيا أنعمت عليها بزوج ثريّ أنيق يدلّلها فلا يرفض لها أي طلب. أحياناً يحدث لها أن تتجرأ على أمي فتعيب عليها باحتقار ساخر أنها لا تسافر إلى الخارج، ولا ترغم زوجها على أن يشتري لها هدايا. لكن أمي تأبى أن توضح لها أننا فقراء، لا نملك ما يجعلنا نعيش كما تعيش هي.

ظلّ يستحوذ على أمي طوال حياتها وسواس «دارها»، أن تجد نفسها غير مستقرّة تتقاذفها المنازل والمدن، فتصبح عبئاً على أبنائها وزوجاتهم، أو عالةً على ابنتها التي أصيبت باكتئاب منذ وفاة زوجها. تتذكر أمي الأعوام الأخيرة التي قضتها والدتها في كنف واحد من أبنائها الذي مات قبل الأوان، ثم آوتها ابنتها بعد ذلك. كانت تشعر بأنها فقدت حيّزها وكرامتها، وبأنها لم

تعد في عزّ «دارها»، تحس بأنها عالة على الآخرين على رغم عنايتهم بها. رأت والدتها تبكي شاكيةً من تقصير في رعايتها أو من إزعاج تكون هي سببه. سمعتها تتحدث عن الوحدة والإهمال. كانت سريعة التأثر، وهو أمر طبيعي لدى امرأة مسنّة مهووسة تحنّ إلى الفترة التي كانت تعيش فيها ملكةً في دارها.

[5]

رأيتها هذا الصباح مهمومةً بالبحث عن شربيلها المزركش بخيط ذهبيّ. يا ربّي أين هو شربيلي العزيز، شربيلي الجميل الذي طرزتْه بالذهب يد موشي، اليهودي ابن الحاخام، المختصّ في تطريز أخفاف العرائس، أين ضاع شربيلي؟ إنها هي بالتأكيد، كلثوم، التي سرقته، فهي لا تنفكّ تبتزّني وتخفي غنيمتها تحت السرير، وحين أكون نائمة، تنادي أبناءها أو أحفادها لتسلّمهم ما اختلسته ليحملوه إلى دارها. . . آه على شربيلي، شربيلي الجميل! . .

يوم الجمعة، بعد صلاة الظهر، تم تحرير عقد الزواج. دخل عدلان موثّقان يرتدي كل منهما جلباباً أبيض وطربوشاً أحمر وبلغة صفراء رهيفة، يتبعهما رجال عائلة العريس ورجال عائلة والدتي. كان اجتماعاً قاصراً على الرجال، بينما النساء متحصّنات في الغرف المجاورة، خلف ستائر يفتحنها قليلاً ليتابعن الحدث. كتب العدلان الموثّقان العقد في صمت. طلبا الاسم الكامل لكلّ من الخطيب والخطيبة وكذا تاريخ الميلاد الذي كان تقريبياً. نحن في عام 1936 بفاس. والمغاربة لم

يكونوا بعد يملكون كنّاش الحالة المدنية. كان الناس يتعارفون فيما بينهم دونما حاجة إلى التأكد من سنة ولادة كل واحد. كانوا يقولون مثلاً إن فلاناً ابنَ فلانٍ وُلد في عام المجاعة، لا شكّ إبّان دخول الفرنسيين إلى المغرب، وإن فلانةً بنتَ فلانٍ وُلدت يوم ولادة ابن السلطان نفسه، هل تذكر ذلك؟ كان الفصل ربيعاً... أو يقولون، من غير ذكر اسم والدتي، إن ابنة مولاي أحمد وُلدت في عام الثلج في فاس ثم يشرعون في التعليق على هذا الحدث الاستثنائي، نعم، الثلج، لم يسبق لنا أن رأينا الثلج في مدينتنا، كان أبيض كالحليب، غريباً، فكنّا نزلق، تزلّ بنا أقدامنا، نسقط، ثم نقوم بصعوبة، ضاحكين، وذات صباح، اختفى الثلج، لا، ليس تماماً، اختلط بالوحل، فأصبح وسخاً، نعم، أنا أتذكّر الآن، يقول مولاي أحمد، نحن لم نتعود رؤية الثلج، كان البرد قارساً، كان ذلك يوم رزقني الله ابنتي، حفظها اللّه من كل عين، اختار الله ذلك اليوم ليضيء منزلي بها. ثم التفت العدلان الموثّقان نحو والد الزوج الذي تردّد قليلاً، ثم قال إن ابني، جعله الله رجلاً طويل الباع، وُلِدَ يومَ دخلت القيساريةُ في إضراب عن العمل، كان النصارى يوطّدون وجودهم في مدينتنا، فلم يكن ذلك يعجبنا، فهو إذن وُلد سنة 1916 بالضبط، وعمره الآن عشرون عاماً بالتمام والكمال.

«الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده وعلى آله وصحبه القائمين بنصرة الدين من بعده وبعد فلقد زَوَّجَ الشريفُ سيدي عبد السلام الإدريسي على البركة

والنوال والسعادة والإقبال ابنَه البارَّ سيدي محمد، حفظه الله وأبقاه في الطريق المستقيم، بالآنسة البارّة للاّ فاطمة بنت مولاي أحمد التي تعيش تحت كفالة والديها وهي بكر وخالية من العيوب على صداق مبارك قدره عشرون ألف ريال قبض والد الزوجة من يد والد الزوج المذكور جميع الصّداق قبضاً تامّاً عِيَاناً. وبشهادة العدلين الموقّعين أسفله تزوجها على كتاب الله وسنّة رسوله الموصيين بأخذ الزوجة بالحسنى والعدل واللطف أو بتسريحها بالمعروف. وزَوَّجَ والدُ الزوجة ابنتَه بموجب سلطته عليها التي أعطاه اللّهُ إيّاها وقبِله الزوجُ وارتضاه نسأل الله تعالى أن يبارك في هذا الزواج ويؤلّف بين الزوجين ويسعدهما ويوفّقنا جميعاً لِمَا فيه رضاه إنه سميع مجيب».

وقف الرجال يتوسّطهم أكبر العدلين الموثّقين الذي قرأ «الفاتحة»، ثم شرع يتلو بسرعة بعض الأدعية، رافعاً يديه إلى السماء، والآخرون يردّون عليه بـ «آمين»: «اللّهمّ افتح لهما طريق الخير، آمين! اللّهمّ سدّد خطاهما، آمين! اللّهمّ مَتِّعْهُمَا برضى والديهما، آمين! اللّهمّ اجعل حياتهما كلها يمناً وسعادة، آمين! اللّهمّ ارزقهما ذرّيّة صالحة تملأ هذه الدار الطيبة المضياف بهجةً ونعمةً، آمين! اللّهمّ حَبِّبْ إليهما الإيمان وزَيِّنْهُ في قلبيهما وكَرِّهْ إليهما الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ، آمين! آمين!». بعد هذا، مَرَّرُوا جميعاً أيديهم على شفاههم وصدورهم وهم يردّدون: «اللّهمّ يسّر ولا تعسّر!». ثم راحوا يتبادلون التهانئ وهم يقولون: «اللّهمّ بارك في هذا الزواج! اللّهمّ كَمِّلْهُ بالخير والبشارة والصلاح!». على أثر ذلك، قال أكبر العدلين: الآن تَمَّ

قرانُ الخاطب والمخطوبة على كتاب الله وسنّة نبيّه وتسليمُ الصداق إلى والد البنت، وسيصبح الزواج نافذاً بمشيئة الله تعالى حين تحدد العائلتان تاريخ العرس ويتم خاصة إعداد جهاز العروسة وتأثيث بيتها.

[6]

منذ يومين، تطالب أمي بحضور شخص اسمه مصطفى. ليس عندنا في العائلة شخص بهذا الاسم. عَمَّنْ تتحدث إذن؟ تلحّ في طلبه قائلةً إن غيابه يقلقها. حين نسألها عن مصطفى هذا، تستغرب هذا السؤال غير اللائق: «إنه ابني الأكبر، ذلك الذي ولدتُه وعمري خمس عشرة سنة. ما الذي وقع لكم إذ لا تذكرونه؟ رجل جميل هو وكريم. أنجب بضعة أبناء، لا أذكر عددهم. زوجته روّضته، فجعلته لا يفعل شيئاً إلاّ بعد استئذانها، أو بالأحرى لا يفعل إلاّ ما تأمره أن يفعل. مصطفى له قلب من ذهب، قلب أبيض كالحرير. لا شك في أن زوجته منعته من زيارتي. قولوا له، إذا رأيتموه، إنني ألحّ في طلب حضوره».

ليس هذا الاسم متداولاً في عائلتنا. كيف خطرت على بالها هذه الفكرة: ابن لم يسبق لها أن تحدثت عنه؟ هل تكون خلطته بأخي الأكبر؟

تقول كلثوم إن أمي لم تكفّ عن البكاء طوال الليل. في الصباح، لم تتذكر أي شيء. لكنها تقول إنها بكت لأن

السلطات القضائية انتزعت منها ابنيها الرضيعين. سألتني كلثوم: «ماذا نستطيع إزاء هذا الهراء؟». لا نستطيع شيئاً سوى أن ننصت إليها من غير أن نعاكسها فنغيظها.

بالأمس طلبت مني مالاً، قليلاً من المال يكفيها لتشعر بأنها ليست في خصاصة. كلثوم هي التي تتصرف في ميزانية التسيير اليومي للدار. أعطيتها ورقة مئة درهم. لم تفلح في إدخالها في جيبها المليء بالخرق. يخيفها أن تحتاج إلى خرقة لتتمخط فيها ولا تجدها. مباشرة بعد ذلك، عادت لتطلب مني بعض المال. حين نبّهتُها إلى أنني أعطيتها المال قبل لحظة، ردّت عليّ: «إن كلثوم سرقته منّي»، ثم حدّقت بي متفرّسةً في وجهي: «لكن، من أنت يا هذا الرجل؟ هل تعرف أخي، ذاك الذي حوّلته زوجته إلى لبابة خبز... إنه لطيف ولا يجرؤ على معاكسة تلك التي يدعوها لَلاّ لَلاّتِي... ويلي ويلي ويلي... كدتُ أنسى... سأخرج لمرافقة أمي عند اليهودي موشي الذي سيتولّى تطريز جهاز عرسي... إنه أحسن طرّاز في الملاّح كله... أصابعه من ذهب... هو في منتهى اللطف والوداعة... كأنّه مسلم!».

ما اسم هذا المرض؟ الزهايمر؟ أحياناً تمر أمي بلحظات صحو وانسجام كاملين. لا يهم الاسم الذي أطلق على هذا المرض. فما هي فائدة تسميته؟ تقول: «لقد فقدتْ ذاكرتي حدّتها وتوهّجها. وأصبح رأسي، مع تقدمي في السن، صغيراً لا يقوى على حفظ كل شيء... ما أكثر الأشياء التي يخزّنها رأسي!... هيّا، اسألني لأرى هل ما زلت أتذكّر...». ثم

تشرع في سرد أسماء أبنائها وأحفادها، وتخلط السنوات والمدن بعضها ببعض، وتصحح بنفسها أخطاءها، وتضحك من شيخوختها، وتحتج لأن التلفزيون المغربي لم يعد يبثّ أغانيها المفضلة...

لم تعد أمي تصلّي، هي التي لم تفتها أبداً صلاة واحدة. أصبحت تنسى ولا تعرف كيف تتيمّم بالحجرة الصقيلة ولا ما ستقوله في ركوعها وسجودها. قالت لي كلثوم إنها «تقضي حاجتها تحتها وتعرف أنها يتعذر عليها أن تصلّي بسبب نجاستها».

نفد صبرها. تصرخ وتسخط حين تطلب شيئاً ما. كلثوم نفسها فقدت قدرتها على التحمل. فأن تعتني أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة بامرأة مسنّة، فهذا يحتاج إلى أكثر من صبر أيّوب. يحدث لها أن تفقد السيطرة على أعصابها. تطالب بفترة عطلةٍ، مستخدمة ذلك كأسلوب مراوغ لطلب زيادة في أجرتها، وهو ما أقبله دون تفكير، فما تقوم به لا يقدّر بثمن. أن تحمل بين ذراعيها امرأة مسنّة إلى الحمّام وتنظفها وتُلبسها ثيابها وتطمئنها وتجيب للمرة العاشرة عن السؤال نفسه وتعيدها إلى غرفتها وتناولها أدويتها وتهيّئ طعامها وتسهر عليها ولا تفارقها!.. وحدها ابنتها ثريّا هي التي يجب عليها أن تفعل كل هذا. لكن ثريّا تعاني من انهيار عصبيّ يُعجزها عن الصبر على الاعتناء بأمها.

قبلتْ أمي أن نقوم بجولة خارج المدينة. حملناها إلى سيارة المرسيدس التي أعارني إياها صديقي أحمد، لأن سيارتي «فياط

أونو» صغيرة وغير مريحة. أجلسناها وسوّينا نظارتيها. علامات الفرح والتأثر بادية على وجهها. تقرأ بعض الأدعية لتمرّ الجولة بسلام. قُدْتُ السيارة متراجعاً، فتساءلت عمّا يحدث لها. لم تتعرف على الدرب الذي توجد في نهايته دارُنا ولا على الجيران. صديقتها، التي كانت تسكن قبالة دارنا، انتقلت إلى حيّ آخر. تتذكرها وتذكر الأمسيات التي قضتاها معاً. أقود السيارة ببطء حتى يمكن لها أن تستمتع بمناظر الطبيعة. اتجهتُ وجهةَ «كاب سبارطيل» وتَوَقَّفْتُ غيرَ بعيد عن المنارة، فشرحتُ لها أن بحرَي الأطلسي والمتوسط يلتقيان في هذا المكان. تنصت إليّ، لكن ذهنها شارد يفكّر في شيء ما. سألتني أين يوجد منزل ابنها محمد. قلت لها إنه يسكن في الدار البيضاء. فهمستْ: «الله يُبقي الستر، كان عليه أن يخبرني». لا أريد مضايقتها. واصلنا الجولة إلى غاية «لو ميراج»، فندق جميل يطل على البحر. رفضت أن تخرج من السيارة. لعلها تخشى أن يراها الناس في هذه الحالة. أجلسناها على كرسيّ ذي ذراعين وحملناها إلى مكان تظلّله شجرة وارفة، قبالة المسبح. قالت لي: «هل كل هذا ملكك؟ هل توجد هنا فيلاّ إقامتك؟ إنك تستحقها. ما أجملها! المسبح، البحر، الكلأ، الخضرة والسكينة! لقد أحسنتَ اختيار الموقع. أدعو الله أن يمنحك مزيداً من الحظ والطيبة لتعيش أنت وأسرتك عمراً مديداً وبدون هموم!». أفهمتُها أن المكان فندق تعودتُ أن أقضي فيه عطلة الصيف. فردّت عليّ: «هذا المكان يشبهك ويتفق مع ذوقك... إنه جميل». ثم نامت قليلاً لتصحو فجأةً منادية

كلثوم: «هيّا... حضّري لوازم الحمّام... سنذهب إلى الحمّام... فغداً هو يوم عرسي... أسرعي... أسرعي... يجب ألاّ نضيع الوقت... أمي منهمكة في إعداد كل الحاجيات... جميع بنات العائلة جئن لحضور مناسبة ذهابي إلى الحمّام البلدي... نعم، غداً سأتزوج... أنا خائفة... لا أعرف زوجي... لا أعرف هل هو طويل وجميل أم قصير وقبيح... لا أعرف هل في فمه أسنان أم لا... لا أعرف هل سأعجبه أم لا... هيّا... بادري إلى تحضير الرزمة لنذهب إلى الحمّام... لا تنسي البرتقال والبيض المسلوق... لا تنسي الغاسول المعطّر وحنّاء مولاي إدريس... بسرعة يا البنات، بسرعة... النهار سيطير...».

[7]

جميع فتيات العائلة اللواتي في سنها حضرن. كُنَّ ضاحكات متفكّهات فخورات بمرافقتها إلى الحمّام البلدي الذي لا يبعد كثيراً عن الدار. لكل واحدة منهنّ سطل من النحاس الأبيض. كُنَّ عشراً، تتزعّمهنّ عنبر، أَمَةٌ سوداءُ كانت سابقاً في مِلكية مولاي أحمد: هيّا، اتبعنني... لِنُحِطْ بِلَلاّ الزينة الغزالة... لَلاّ العروسة التي سَتُزَفُّ غداً إلى زوجها... رجل خير ونبل... سيمنحها الفرح والبنين... ندعو الله أن يباركهما ويسعدهما.

تمّ حجز الحمّام كاملاً لهذه المناسبة. زبيدة، الجلاّسة، استقبلت الموكب بالزغاريد. عنبر تصلّي على النبي وصحابته. الطيَّابات والدلاكات والغسّالات مستعدات. البنات يتركن ملابسهن في المدخل بجوار حقائب ورزم الثياب الجديدة. الدخول إلى قاع الحمّام يتم في مرح وصخب. يداعبن عنبر التي تُضحكهنّ برجرجة نهديها الضخمين، المتدلّيين مثل فاكهتين ثقيلتين. لا تكترث عنبر بسمنتها. البنات مزهوّات بنهودهنّ الصغيرة الصلبة، يتلامسن، يتدغدغن، يتضاحكن، يكدن أن

ينزلقن ويسقطن. جرّت دلاّكةٌ العروسةَ من يدها، لاطفتها بتأنٍّ وغسلتها، ثم شرعت في تمسيدها بقوة. بعد لحظة، شعرت عنبر بالحياء، فطلبت منهنّ أن يسترحن قليلاً للتبرّد بالبرتقال. غادرن القاعة الحارّة نحو القاعة الفاترة. هناك تَنفّسن: أكلن وشربن ماء بارداً واسترخين، ثم عدن إلى حرارة القاعة الداخلية الخانقة لاستئناف غسل البشرة. الدلاّكة تريهنّ كيف يحككن لإزالة الجلد الميت دون ألم. تقول لهنّ إن هذا الحمّام هو مقبرة الجلود التي لا تصلح لشيء، وهو أيضاً المكان حيث يتم حلق الزغب الزائد.. آهِ من هذا الزغب! لا بدّ من إزالته بموسى حلاقة، فالزوج، حين يندسّ في الفراش مع غزالته، يشتاق إلى النعومة، إلى بشرة ملساء صقيلة جميلة لا تشبه بشرته الخشنة... هل تفهمن ما أقول يا صغيراتي... لا بدّ من إعداد بشرة المرأة... ينبغي تجهيز جسدها كلّه لليلة العرس... وذهنها أيضاً... فالجسد يتعرض لامتحان ليلة العرس... نصيحتي إليكِ يا هذه الغزالة الجميلة التي سَتُزَفُّ غداً إلى زوجها: انزلقي بين يديه كالحوتة... لا تَهَبِيهِ نفسكِ دفعةً واحدة... عليه أن يشتهيكِ، أن يبحث عنكِ... دعيه يستحقك... فأنت جاهزة، رائحتك زكية، بشرتك أسيلة... فاكهة يانعة أنتِ... لكن عليه أن ينشف ريقه قبل أن يفوز بكِ... صحيح أنكِ ستكونين طيّعة، لكن يلزمك أن تلعبي كذلك، أن تراوغيه... وفوق هذا، فأنتِ ما تزالين صغيرة، صبية عمرها أقل من خمس عشرة سنة...

ثم ها هو وقت التقبيب قد حان: تشرع الطيّابات في ملء

سبعة سطول بالماء، تارةً ساخناً وتارةً فاتراً، ويبدأن في اغترافه بآنية يزعمن أنها واردة رأساً من مكة، ثم يصببن محتواها على رأس العروسة. وبعد سبع عمليات تغسيل، يُعْلِنَّ أن الغزالة جاهزةٌ أخيراً لِتُهْدَى إلى زوجها برعاية الملائكة.

بعد ساعات ثلاث، انتبهت عنبر إلى أن الغزالة تعبت فأغمي عليها. حملتها بين ذراعيها إلى القاعة الفاترة حيث البخار أقلّ. أحاطتها بفوطة كبيرة اشتُرِيَت لهذه الغاية، ثم أخرجتها إلى قاعة الاستراحة، وناولتها كأس حليب وشمّمتها عطراً قويّاً منعشاً. التحقت البنات بها. قالت لها ابنة خالها عائشة لتخفف عنها تعب الحمّام: لا تخافي، أنت فقط متأثرة، فَلَيْلَتُكِ المحتومة وشيكة... محظوظة أنتِ... لست أدري متى سيحين دوري... بدأتُ أَكْبُرُ... قريباً سأبلغ عشرين عاماً ولم أتزوج بعد... أنا كبرى أخواتي وأختي الصغرى تزوجت قبلي... الدنيا بالمقلوب! ومع ذلك فأنا جملية... صحيح أنني أقلّ جمالاً منكِ... سأنتظر... فما كتبه ربّي عليّ هو ما سيكون... لكنني لن أكون سلعة بائرة...

[8]

وعدني صديقي يوسف، طبيب والدتي، بأن يتصل بي هاتفيّاً إذا تفاقم فجأة مرضها. وهذا ما فعله في شهر ماي (أيار) وأنا في باريس. عادة ما أدرك الأشياء من نبرة صوته. يتكلم ببطء وازناً كلماته، قائلاً ببساطة ما ينبغي قوله. في اليوم التالي كنت عند رأسها في المصحة. لفت انتباهي أنها في الغرفة نفسها التي توفّي فيها والدي قبل عشر سنوات. كان الانطباع الأول هو الأعنف: لون بشرتها مصفرّاً شاحباً. عيناها كابيتين شاخصتين إلى السقف. الفكّ الأسفل مقلوباً غائراً. الفم مفتوحاً. النظرة شاردة. أمّي إذن مع الموت الرهيب وجهاً لوجه! قال لي أخي دامع العينين: «لقد حددتُ موعداً مع الحاج، ابن عمّنا، فهو خبير بإجراءات الجنازة والدفن. حالتها ميؤوس منها». على رغم ما رأيته بعينيّ وما تكهّن به الأطباء، فإن حدسي غير متشائم. لن تموت أمي هذه المرة. لم تكن تعرف أين هي ولا من يحيطون بها. أفراد العائلة الأقرباء يتوافدون عليها. أمسكتُ يدها وكلّمتُها بصوت مهموس. في لحظات وعيها العابرة، تأمر كلثوم بتحضير طعام العشاء وتجهيز الموائد. تلحّ على أن تكون

المناديل نقية ومسوّاة بالمكواة. نتناوب على الجلوس بمحاذاتها. لكن أختي وكلثوم لا تفارقانها.

ماذا عسانا أن نفعل وهي في هذه الحال؟ فبعد الإعراب عن التأثر والحسرة، حان وقت الملل. نستقبل الزوار. نردّ على الهاتف. نراقب تنفّسها. ننتظر زيارة الأطباء. ننظر إلى جدران الغرفة، متابعين خطوط التشقق الناجمة عن الرطوبة. نحملق في السقف. لا شيء نستطيع فعله. ننتظر. نتكلم مع الممرضات. ما أكثر الأشياء التي عاينتُها في هذه المصحة! أشياء غريبة. المال يُفقد الناس عقولهم. هناك ممرضات يتقاضين ألف درهم في الشهر، وأخريات يشتغلن بدون مقابل لأنهنّ في عداد المتدربات، أما المستشفيات العمومية، فأسوأ حالاً. أنا أفضّل مستشفى مجهّزاً بكل ما يلزم على برلمان يقضي فيه نوّاب الشعب المزعومون الساعات في نقاشات مملّة وفارغة. لكن هذه حكاية أخرى! بالنسبة لأمي، مرّت الأشياء على نحو لائق. كنّا نؤدي الثمن مسبقاً وندسّ في جيوب الممرضين حلاوات وافرة. أما الأطباء، فكانوا أكفاء.

حين غادَرَت المصحة، لم تدرك أي شيء. تمت العودة إلى الدار دون صعوبة. اعتَقَدَتْ أنها انتقلت في البداية إلى غرفة ثانية، ثم بعد ذلك إلى دار أخرى. لم تحتفظ بأي ذكرى عن إقامتها في المصحة. هذا أفضل...

أغلى أمنية لدى أمي تتلخص في هذا الدعاء: «أسأل الله أن يميتني في حياتك!». فهي، كسائر الأمهات، تُرعبها فكرة أن تفقد أحد أبنائها وتبقى هي حية. لقد عاينتْ ما قاسته

أمها بسبب موت ابنها المبكر. كان حزنها لا يطاق، حزنٌ لا تريد أن تتذكره. «أن أموت... نعم... لكن محاطة بجميع أبنائي».

تعلّمتُ أن أقدّر هذه الأنانية: حُبٌّ له من القوة والكمال ما يجعله غير ممكن إلاّ في حياة أبنائها وموت ذاتها! ما الذي يمكن فعله بهذا الحب إذا اختطف الموت فجأةً واحداً من أبنائها أو، كما تقول، إذا ناداه الله إليه؟ الصوفية المسلمون لم يتصوروا حبّهم لله إلاّ على هذا النحو. لا علاقة لأمي بالتصوف، لكنها كانت تحتفل بالأشياء البسيطة، بالقيم الجوهرية. كانت تفعل ذلك مضحيةً بذاتها ومن غير أن تضيّق الخناق على أبنائها. ذات مرة، قلتُ في برنامج إذاعي إن أمي المسلمة كانت «أُمّاً يهودية»، وأضفتُ: «يهودية، لكن غير مستبدة ولا متعسفة». كانت تقول لنا: «أنا أموت من أجلكم. لديّ كبدٌ قاسحةٌ تنعشني باستمرار. لكن قلبي يرتعد وكبدي تخنقني حين يقلقني خوفي عليكم... أنا هكذا... لن أتبدّل... هذا أقوى مني... يمكن لكم أن تسخروا مني. لكنكم، حين سيرزقكم الله أبناء، ستعرفون معنى هذا القلق الذي يحرق الصدر. أنا أفكر فيكم على الدوام. أخاف عليكم من عيون الناس، فالعين الشريرة موجودة يا أبنائي، ومفعولها خبيث ومرعب، تخرج كالأخطبوط بحثاً عن سعادة تنغّصها. فهناك أناس يريدون لكم الشر لمجرد أنكم تتمتعون بصحة جيدة أو أنكم ببساطة موجودون. أدعو الله أن يُبعدكم عن عيون الحسّاد، أن يحفظكم من سمّهم. أن يجعلكم فوق قساوتهم،

أن يكوّن منكم نوّارةً تضيء من يعيشون في الظلام. فبنو آدم ليسوا جميعاً أخياراً. أنا لا أعرف كيف أحترس من الآخرين. أصدّق دائماً ما يقولونه لي، معتقدةً بأنهم لا يكذبون وبأن نواياهم حسنة. فأنا لا أعرف الكذب أو الخداع. هكذا أنا وهكذا يعجبني أن أكون. هذه تربيتي. أمّي هكذا كانت. أبي كان وليّاً وَرِعاً يستشيره الناس. كان معروفاً بطيبته وحكمته، وقد ورثتُ عنه هذه الطيبة التي تسبب لي دائماً بعض المشاكل. لكن... لا يهم... فأنتم معي، وهذا هو الأهم. لذلك، أسأل الله أن يأخذني عنده وأنتم تحيطون بي. سنصلّي جميعاً وسأرحل في هدوء، تماماً كما رحلت أمي».

أخت أمي الصغرى امرأة نشيطة مرحة لطيفة المعشر. تزوجتْ رجلاً من عائلة غنية. طفولتنا في فاس طبعتها هذه العائلة، التي كانت أُولَى من اشترى سيارة، وأُولَى من مَلَكَ داراً في الريف حيث كنّا نُدْعَى في فصل الربيع، وأُولَى من اقتنى جهاز تلفون، بل وكانت الأولى التي انتقلت من فاس القديمة إلى فاس الجديدة. كان أفراد هذه العائلة يحبّون الأشياء البسيطة على رغم أننا كنّا نلمس لديهم نزوعاً إلى التكبّر يذكّرنا بأننا لا ننتمي إلى الطبقة نفسها. لكن أمي لم يكن يزعجها ذلك، كذلك أبي، الذي كان ينتقد نمط عيشهم، وهو ما كان يُضحكهم. أبي كان يملك حسّ الدعابة والتفكّه، ويروق له أن يتهكّم بتلذّذ. أذكر أنه، حين كانت خالتي تمازحه، كان يحلو له أن يستخفّ بطراز حياتها حيث الاهتمام بالمظهر يعادل الاهتمام بالجوهر. كانوا يقولون عنه إن لكلامه مذاق الملح والسكّر، العسل

والفلفل، العفوية والقسوة، فلم يكن يزعجه إطلاقاً أن يقول أشياء جارحة، لكن حقيقية.

خالتي هذه جاءت لزيارة أمي. حملتْ معها كمية وافرة من البشاشة والبهجة. لكن أمي صدمتها حين لم تتعرّف عليها. قالت لها: «طال غيابك عني كثيراً يا بنيتي. أين كنت طوال هذه المدة؟». وفي الوقت نفسه، اعتقدتْ مرة أخرى أن ابنتها هي أمها، حيث قالت لأختها: «هل تعرفين يا بنيتي؟ إن أمي هنا، نعم، جدتك هنا، لكنها لم تتعرّف عليّ... ليست ظريفة... فبمجرد ما وصلتْ قادمةً من فاس، بدأتْ تفكر في العودة! أنا لم أسئ معاملتها. أقنعيها بالبقاء، فستستمع إليك. اسأليها لماذا لم تأت أمينة، أختي الصغرى، لزيارتي... ليست هذه عادتها... كانت دائماً تأتي لتطمئنّ عليّ، فأنا أختها الكبرى... ربّيتُها هي وابنتي، بل أظن أنني أرضعتهما من الثدي نفسه. كنتُ صغيرة وفي صحة جيدة. ولم تكن أمي قادرة على الاهتمام بشؤون البيت وبتربية كل أبنائها. لذا، فوّضتْ لي تربية أمينة، حيث اعتبرتها بمثابة ابنتي. إن لهما العمر نفسه... احسبي وستجدين أنني ولدتهما في العام نفسه... مع فارق ستة أشهر بينهما».

أمي جالسة على حافة السرير. رِجلها اليسرى أكثر تورّماً من رِجلها اليمنى. لعلّ الضمادة ضغطت عليها. ترتدي تْشَامِيراً ورديّاً. رأسها يلفّه كالعادة قماش حريري أبيض. أصبحت تغطي رأسها منذ شاب شعرها. في معصمها دملج من ذهب. أمي سئمتْ حالها. تنظر إلى النافذة في صمت. تغيّر وضعها. تحطّ

رِجلها المريضة فوق السرير وتحملق في الدولاب أمامها. تنادي كلثوم. كلثوم لا تجيبها فوراً. تناديها ثانية. تردّ عليها كلثوم «أنا آتية». تقول لها أمي «أسرعي». جاءت كلثوم. تنظر إلى أمي كما لو أنها تريد أن توبخها، ثم قالت: «وحده الله يستطيع تحمّل هذه الشارقة». صرخت أمي: «لا تتركيني وحدي! لماذا تختبئين في الجانب الآخر من الدار وتفارقينني! سأقرأ بعض الأدعية ضدك، سترين أن والدي لن يعجبه ما تفعلين.. هيّا، تعاليْ إلى جانبي ولا تتحركي من مكانك!».

أمي وكلثوم ضجرتان. تحدّق كلّ منهما في ركن من الغرفة. في التلفزيون مسلسل أمريكي مدبلج بالإسبانية. الألوان فاقعة. تتساقط الصور من الشاشة لتختلط بالغبار فوق الزربية. أمّي تبتسم وحدها. كلثوم ناعسة. يرنّ التلفون. إنه حدث اليوم: «هذا ابنك يتصل. ـ أيّ واحد من أبنائي؟ ـ ذاك الذي يتصل كل يوم!».

أحدّث أمي. حين أسألها «كيف حالك؟»، تجيبني دائماً الجواب نفسه: «أنا هنا ألتقط فُتات الأيام حتى يفرجها الله. أنا طوع مشيئته. فالموت لا بد منه، ولا أملك إلا أن أنتظر!».

أستخبر كلثوم التي من واجبها ألاّ تخفي عنّي الحقيقة، أريد أن أعرف هل نامت أمي جيداً وهل أصابها إسهال وهل اختلطت لديها الأشياء الخ.

استأنفتُ الحديث مع أمي، فاشتكت إليّ من كلثوم وهي تضحك. ضحكها علامة جيدة. أطلب منها أن تدعو لي بالخير والبركة. أدعيتها تحفظها عن ظهر قلب، تسردها بكل ما أوتيت

من قوة ومن غير أن تخطئ أو أن تتلعثم. أعرف حينئذ أنها في تمام وعيها وصحوها. ترفع عينيها صوب السماء وتخاطب الله مباشرة. يكفي أن تدعو لي أمي لأحسّ أنني محميّ من كل سوء. هو إحساس غير معقول! لكنني لا أريد تدمير الرموز والصور. أمي تعتبرني كائناً هشّاً ينبغي أن تُنار طريقه. فهي لا تكفّ عن الدعاء لي بصرف الأعداء والأشرار والحساد عن طريقي. تراهم وتطردهم بيديها.

منذ مدة طويلة، أصبحت أمي تصلّي بعينيها وهي جالسة. تهمس أدعيتها، تدير سبابتها اليمنى، وتنهي صلاتها برفع كفّيها المضمومتين في خشوع، مبتهلةً إلى الله أن يستجيب لأغلى أمانيها.

هي اليومَ لا تتحدث إلاّ عن مجوهراتها. تقول إنها اختفت. نسيتْ أنها، قبل بضع سنوات، وزعتها على حفيداتها وزوجات أبنائها. كانت قد قالت لهنّ: «أفضّل أن أوزّع عليكنّ هذه المجوهرات الآن حتى لا يقع بينكنّ خصام بعد موتي. سأحتفظ فقط بهذا الدملج وهذه القلادة». كما نسيتْ أنها رمت القلادة في المرحاض، فاستولت عليها كلثوم، معتقدةً أنها تستحقها بقوة الحيازة. وحين طالبتْ باسترجاعها، رمتها كلثوم فوق فراشها، نادمةً على أنها لم تتركها في خرائها. أما الدملج، فهو آمنٌ لاستحالة خروجه من معصمها.

[9]

هذه القلادة أثيرة لدى أمي. وضعتها حول عنقها ليلة العرس. كانت ليلة طويلة لا نهاية لها. انتظرت مجيء زوجها وهي مزينة بمجوهراتها، محاطةً بالنگافات الساهرات على سير الأشياء وفق العادات المتداولة في فاس. الحفلة موزعة بين دار عائلة العروسة التي تنتظر ودار عائلة العريس التي تستعد للذهاب لأخذ العروسة. الوقت يمر ببطء. الفتاة تقاوم النوم. عيناها تنسدّان. إنه تعب الحمّام والتوتر والخوف المقترن بحبّ اكتشاف الرجل، رَجُلها مدى الحياة، لأن الطلاق غير مألوف لدى العائلات الفاسية، فالرجل يظل متزوجاً بالمرأة إلى الأبد حتى في حال حصل سوء تفاهم.

العروسة تنتظر. تحسب السنوات والشهور التي مرت. تعيد الحساب مرات عديدة. خمس عشرة سنة وسبعة أشهر أو ست عشرة سنة وبضعة أسابيع. قيل لها إنها تكبر أخاها بخمسة أعوام، وإن أختها أصغر منها، إذن فعمري خمس عشرة سنة ونصف. بدأتُ أحيض قبل خمسة أعوام، فقيل لي حينئذ إنني

بلغتُ قبل الوقت، كان عمري عشر سنوات، إذن فعمري الآن خمس عشرة سنة. . .

تحسب حتى لا يأخذها النوم. المجوهرات التي قلّدتها النگافات إياها ثقيلة، القفطان المطرّز ثقيل، مساحيق التجميل ثقيلة، الهواء الذي تشمّه ثقيل. الحفلة صاخبة. إنها جاهزة. مستعدة لأن تقترن حياتها بحياة هذا الرجل، هذا المجهول، ابن العائلة الكبيرة، هذا الرجل الذي لا تعرف لا وجهه ولا قامته. رجل وُلِدَ من أجلها. اختير لها بمقتضى نوع من التواطؤ بين العائلتين. تنتظر. السروال يضغط على خصرها. تضايقها أبّهة ملابسها. تنتظر. لا تعرف أي شيء عن الكيفية التي ستمر بها الأشياء. تتخيل. تجهد في رسم صورة لِرَجُلِهَا عارياً. تأبى أن يُطَوِّحَ بها الخيالُ إلى ما هو أبعد من ذلك. خائفة هي. عطشى لكن غير جائعة. تشعر بالحاجة إلى صديقة متزوجة تخبرها بما سيحدث في هذه الليلة.

حوالي الثالثة صباحاً، أقبلتْ عليها كبيرةُ النگافات، امرأة مهيبة بسبب بدانتها ونفوذها ونظرتها التي اضطرتها إلى خفض بصرها: اسمعي جيّداً يا بنيتي، لعلّك لا تعرفين ما ينتظرك. واجبي أن أعلمك، أن أعطيك بعض النصائح الدقيقة والعملية. سيدخل عليك رَجُلُكِ هنا، إلى هذه الدخشوشة، ستقفين، ستتقدّمين نحوه، عيناك إلى تحت، لن ترفعي عينيك أبداً لتنظري إليه، ستقبّلين يده اليمنى، لن تطيلي الإمساك بيده ستعودين لتجلسي على حافة السرير، سيشرع في إزالة جلبابه وجابادوره وسرواله، ستنتظرين أن يأمرك بخلع ملابسك في ركن من الغرفة

فيه إنارة خافتة، ستزيلين مجوهراتك وقفطانك، ستحتفظين بتشاميرك وسروالك، فَرَجُلُكِ هو من سيزيلهما. حذار! إياك أن تصرخي أو تبكي. تلك اللحظة ستكون تاريخية. فلأول مرة في حياتك سيلمس رَجُلٌ جسدك، دعيه يفعل، كوني طيعة، وديعة، مرتخية. لا تخافي، سيشرع في اختراقك، افتحي ساقيك جيداً، لا تفكري في أي شيء، في البداية ستتألمين. إذا صعب عليه اختراقك، خذي هذا المرهم، ضعيه تحت الوسادة، ادهني به فرجك خلسة، وحين سيدخل فيك، اضغطي على عجيزته بساقيك، دعيه يتحرك فوقك، يجيء ويذهب فيك، لا تهتمّي هذه الليلة بتحصيل لذّتك، انسيْ هذا الأمر يا بنيتي، فالناس يحتاجون إلى رؤية الدم على سروالك الأبيض، لا تصرخي إذا تألمت، اكتمي ألمك، تحمّلي، اصبري، لا تنسي أنّ عليك أن تثبتي بالبرهان للجميع أنك عذراء، ابنة عائلة كبرى، ابنة تشرّف عائلتها وتحمّر وجهها. أجل يا بنيتي، ستكون المرة الأولى صعبة، لكن، بعد ذلك، حين سيلتئم الجرح، فلن تسخي بنفسك عن زوجك مخترقاً إيّاك...

أعلنت عائلة العريس عن وصولها بواسطة جوقة البوّاقين والصياح والزغاريد. الكل يصدح: ها العروس جَا، ها هو، عبّاها عبّاها، والله ما خلاّها، عبّاها عبّاها، والله ما خلاّها...

في الوقت نفسه، شرعت النگافات في تقديم العروسة وهي مزيّنة بمجوهرات متلألئة، مطالباتٍ الحاضرين بأداء الغرامة حتى تسلّم عائلتُها العروسةَ إلى زوجها. كُنَّ يردّدن بالصوت نفسه: ها العروسة مرهونة، ها هي مرهونة، في يد بّاها مرهونة،

ها هي مرهونة، في يد يْمَّاهَا مرهونة، ها هي مرهونة، أَجِيوْا فكّوها، ها هي مرهونة، ها الزيت المسرار، ها هو، ها الهمّة والشان، ها هو، ها التمر المجهول، ها هو، ها العسل المصفّى، ها هو، ها تْكَاكْ الحمام، ها هو، ها قضيب الخيزران، ها هو، ها الحوت البوري، ها هو، ها الجوهر الحرّ، ها هو، ها الزيت بلا ملح، ها هو. . .

كانت الأم أول من تقدّم، حيث دسّت ورقة مالية تحت حزام رئيسة النگافات، ثم تبعها الأب الذي فعل الشيء نفسه، متبوعاً بباقي أفراد العائلة، إلى أن اعتبرت الرئيسة أنها استوفت الغرامة.

ثم حان وقت الانصراف. أمي تبكي. أمها تبكي. الخادمات يبكين. الصخب أصبح لا يحتمل. يجب أن يتوقف الاحتفال. فالليل يجثم ثقيلاً على قلب العروسة التي سيأخذها رجل غريب، رجل سيستأثر بها، سيجعلها ملكيته الخاصة، وربما سيجعلها سعيدة.

الموكب يغادر الدار. أمي لا ترفع عينيها عن الأرض. يخيل إليها أنها سيغمى عليها وسط الضجيج. أمسك الرجل بيدها. المسافة لا تتعدى زقاقين. تمشي وهي مستندة إليه. لأول مرة تمسك بيدها يد رجل! لا تفكر. لا تفكر في أي شيء. تخطو والخوف يعصر بطنها. تسمع أصداء الموسيقى الأندلسية التي عزفها جوق البهيري قبل قليل في الدار. تتذكّر الحجّامة الذين يتكفّلون بخدمات الضيافة. تتناهى إلى سمعها أصوات من جميع الأنواع. تتقدم، لا تعرف بالضبط ما الذي ينتظرها.

تجيش نفسها حتى تكاد تتقيّأ. في حلقها غصة. يداها دبقتان. تخشى أن ترتعب فتهرب كما فعلت بنت خالتها التي أطلقت ساقيها للريح حين جرّدها رجلها من سروالها، ورأت ذَكَرَهُ كالهراوة يتقدم نحوها. هي حكاية يتندّر بها أفراد العائلة وهم يضحكون. يقولون إن أمها لحقت بها فصفعتها وأرجعتها إلى الدخشوشة تحت حراسة النكّافات.

لا . . . لن تهرب. ستدعه يفعل بها ما يشاء. ستنتظر حتى ينتهي ويسيل الدم على ملاءة السرير. حينئذ ستنهض وتختبئ خلف الستارة. تحلم بدُماها التي صنعتها بالخرق وصناديق عود الثقاب. تحلم بالعطل التي قضتها عند عمها في مصيفه بإفران. تفكر في عليّ، ابن عمها الذي كان يستعذب مغازلتها والذي مَثَّلَتْ معه دور العروسة حين كان عمرها سبع سنوات. تفكر في والديها، وفي ما سيقوله الناس. تغمض عينيها. تفتح فخذيها بعناء. تضغط على شفتيها. لا كلمة ولا صرخة. يغمى عليها. تغيب. لم تعد في تلك الدخشوشة المعطرة بماء الورد والمسك التي تحرسها كتيبة من النكّافات. إنها في مكان آخر. . . في حقول القمح. . . تقفز من سطح إلى سطح. . . تحلّق فوق فاس. . . تطير نحو زرقة السماء. تشعر بما يشبه العضّة أو القرصة، ثم أحست بسائل ساخن يجري بين فخذيها.

اليوم التالي كان يوم الصبوحي. مرّ كل شيء على أحسن وجه. هذا ما سَمِعَتْهُمْ يقولون. أرسل الزوج إلى أسرة زوجته أطباقاً من الفواكه الجافّة دليلاً على رضاه عن زوجته وسعادته بها.

لم تكن أمي من حكى لي ليلة عرسها. احتفظت بها سرّاً في نفسها، فلا يليق بالأبناء أن يعرفوا ذلك. جدتي هي التي حكت لي عنها بعض الأشياء. كنت ما أزال صغيراً.

بعد يوم الصبوحي، أي بعد الليلة الثانية، تعرّضت أمي، كباقي العروسات الصغيرات، لامتحان حماتها: فقد أرسلت لها هذه بواسطة حمّال ثلاث شابلات، وهي حيتان ضخمة ذات ألف شوكة وشوكة، تهاجر في فصل الربيع نحو عالية واد سبو، لها طعم خاص ومعروفة بصعوبة تحضيرها.

شمرت أمي كمَّيْها ودخلت إلى المطبخ حيث لا ينبغي أن يساعدها أحد. قضت الصباح كله في تنقية الشابلات الثلاث، ثم مرّغتها في صلصة يمتزج فيها الكزبر والكمّون والفلفل الحلو والحرّيف والثوم والملح والبهار. بعد ذلك، طَهَتْ جزءاً منها في طاجين، وقَلَتِ الجزءَ الآخر في الزيت.

حوالي الواحدة بعد الظهر، وضعت الأكلتين في طبقين كبيرين من نحاس، وأرسلتهما إلى حماتها مع صينية كبرى مملوءة بالتمر «المجهول» وسلة مفعمة بفواكه الموسم.

ذلك اليوم، لم تأكل أمي. لم تكن لها شهية إلى الطعام. ظلت تنتظر أن تعيد لها حماتها المواعين. في نهاية الظهيرة، دخلت نكافة إلى المنزل وهي تصلّي على النبي وتزغرد، متبوعة بعتّالين يحملان المواعين مملوءة بالهدايا. فأيقنت أمي أنها اجتازت الامتحان بنجاح وكبرياء، حيث ستكون حماتها راضية عنها ومطمئنّة على ولدها الذي لن يعدم أكلات شهية على يديّ زوجته!

بعد اليوم السابع، التقت العائلتان في جو من البهجة والمرح. أما الزوج، فأخذ زوجته ليعيشا مستقلّين في دار صغيرة مجاورة.

[10]

كانت أمي دائماً جميلة وأنيقة. لم تلبس أبداً ثياباً داكنة الألوان. تعشق الأبيض والأصفر الكادر والرمادي الفاتح. هي مقتنعة بأن الألوان تساعد القلب على الخفقان. فلا ينبغي تسويد الحياة. تقول إن لوناً هادئاً يفتح الشهية للحياة. كانت تختار وشاحات رأسها الكثيرة بعناية خاصة. لا أذكر أنني رأيتُ يوماً شعرها في مهب الريح أو رأسها عارياً. ذات مرة، وهي طريحة الفراش بالمصحة، انزلق وشاح رأسها قليلاً، كاشفاً عن جزء من شعرها الأبيض. فأشحتُ عنها وجهي، يقيناً مني أنها ما كانت ستقبل أن ينكشف شعرها لو كانت مستيقظة.

أمي لا تحب أن تكون في غرفة قليلة الإنارة. تقول دائماً: «الضوء يفتح القلوب ويشرح الصدور. إنه علامة بهجة. إنه علامة سخاء وأريحية». أحد أعمامي كان مفرطاً في الاقتصاد. لنقل إنه بخيل. بضع شمعات كانت كافية لإضاءة داره. كان يعيش مختبئاً. امرأته نفسها كانت تخشى الضوء. كانا يرفضان الظهور في وضح النهار. وسواسهما العينُ اللاّمّة. لذلك، كانا يعيشان في شبه سرية، اعتقاداً منهما بأن نظرات الآخرين

ستصيبهما بسوء. إذن، لِنَتَوَارَ عن الضوء. لهذا السبب، ترفض أمي زيارتهما، مراعاةً منها لعاداتهما المستهجنة الدنيئة. كانا، حين يزوراننا، يستغربان كثرة الأضواء في دارنا: «هذا تبذير وإسراف، فلا ضرورة لجميع هذه المصابيح الكهربائية ليرى بعضكم البعض الآخر!».

أمي لا تحب البخلاء من غير أن تصرّح أبداً بذمّها لهم. كانت تقول: «كل واحد يعيش كما يريد. فلا يجوز التدخل في حياة الآخرين. أنا أفضل ألاّ أعاشر من يعتقدون بأن الفلوس أهم من الناس. أجدادنا كانوا يعتقدون بأن الفلوس وسخ الدنيا. إنها فضلات الزمن. فليعرف الذين يكنزون المال أن لا مكان في القبر للحسابات البنكية!». هكذا كانت تسخر وفي الوقت نفسه تمنّي نفسها بمال أكثر لتعيش أحسن.

أمي ساذجة ويعوزها حِسُّ الفكاهة. يعجبها أن تضحك، لكنها تصدق كل شيء بسرعة. وهذا أمر يغيظ والدي ويدفعه إلى استفزازها. كان يتقن فنّ الدعابة والطنز ببراعة، ولهذا السبب كان بعض أفراد العائلة يعجبون به، وبعضهم الآخر يخشونه ويتجنبونه. أمي نفسها لم تكن تحب دعاباته الساخرة. تتذكر اليوم كل هذا بحسرة وندامة: «والدك لم تكن تصرفاته معي لائقة. لقد نكّد حياتي. . . لكنه لم يكن خبيثاً. كَدَّ وعانى طوال حياته، لكن الحظ لم يبتسم له كما ابتسم لأصدقائه الذين كان يحسدهم على ثرواتهم. نجاحهم في التجارة كان يغيظه، ولم أكن أستسيغ سلوكه. كان يحدث له أن يجرح الآخرين من غير أن ينتبه إلى أن تلميحاته الساخرة وملاحظاته اللاذعة

تؤلمهم. ولذلك كان يستغرب فتورهم نحوه ونفورهم منه. كان يجهر بآرائه بصوت مرتفع وبدون مراعاة. فلم يكن يحتفظ بأي شيء في نفسه، وهو ما كان يحرجني كثيراً. هل تعرف أن بعض أقاربه ومعارفي كانوا لا يزورونني إلاّ بعد تأكدهم من سفره، مفضلين عدم مواجهته؟ فيا لسلاطة لسانه! ويا لقوة ذكائه! لكن، ما قيمة الذكاء إذا كان فظّاً وعديم الإحساس والتمييز؟».

يأتي أخي الأكبر مرتين في الأسبوع لزيارتها في نهاية الظهيرة. هو جد ودود. تقول إنه «يشبعها بوساً». يحرص كثيراً على صحتها وهو نفسه مريض! يحدّثها عن معاناته مع المرض وعن مشاكله مع أبنائه، فتنصت إليه من غير أن تبدي رأياً. إنه رجل رقيق ومثقف، مسلم صالح معتدل، يكره التعصب وكل أشكال التطرف، زاهد بعيد عن الناس. أمي لا تحب نمط عيشه. تعتقد ذلك من غير أن تقوله. كم تتمنى أن تراه سعيداً، أريحيّاً، منفتحاً على الآخرين وقليل القلق. لكن وجوده إلى جنبها يسلّيها. وحتى حين يحدث لها ألاّ تفرّق بيني وبينه أو بينه وبين أخي الآخر، فهي تستدرك وتعتذر. تعرف أن ذلك معيب جارح. لكن أحداً لا يلومها على ذلك. فنحن نعرف أن المرض هو الذي يفقدها أحياناً حسّ التمييز. لكنها، حين تستعيده، تُرجع كل شيء إلى نصابه: «إياكم أن تعتبروني مهبولة! فكل هذه الأدوية التي أتجرّعها منذ أكثر من ثلاثين عاماً هي التي أتلفت ذاكرتي. احسبوا معي: عشرة أقراص في اليوم طوال ثلاثين عاماً! فكم عدد الأقراص التي أكون ابتلعتها؟ طُنٌّ واحد؟ طُنَّانِ؟ المؤكد هو أن ما ابتلعته كاف لإبادة فيلق بكامله! لذلك،

لا تؤاخذوني إنْ أخطأت أو إذا صَعُبَ عليّ أن أتعرّف بسرعة على كل واحد منكم باسمه. إنه مفعول أصدقائي ـ أعدائي في الوقت نفسه! نعم، فالأدوية أنقذتني، لكنها دمّرت شيئاً فيّ».

حين كانت نزيلة المصحة، وكان شبح الموت يتربص بها، اقترح أحد أبناء عمّي أن نردّها إلى دارها: «الأحسن أن تموت في غرفتها». ذكّرني هذا المقترح بإحدى أمانيها: «أوصيكم، إنْ أنا مت في المصحة، ألاّ تتركوني أقضي الليلة في البرّادة». أما والدي، الذي مات بعد الظهر، فقد قضى الليلة في مستودع الجثث، حيث لم ينقل رجال الإسعاف جثمانه إلى الدار إلاّ حوالي الثامنة من صباح اليوم التالي. كانت ليلة باردة كالصقيع حطمت قلب أمي. ظلت ذكراها تهجس في ذهنها مدة طويلة. ذات مرة، حاولت أن أشرح لها أن الموت هو فقدان كل إحساس. لكنها أصرّت على ألاّ يقضي جثمانها الليلة في «البرّادة» حتى وهو عديم الأحساس. أذكر أنها، حين أخبرناها بوفاة والدي، سألتْ: «لكن، أين هو الآن؟». فأجابها أخي: «في مستودع الجثث بالمصحة.

ـ تقصد داخل البرّادة؟

ـ نعم، البرّادة، هذا طبيعيّ».

تلك الليلة، لم تغمض عينيها. ارتدت لباساً أبيض، ثم أمسكت بسبحتها وظلت تصلّي. بقيت تفكر في زوجها حتى الصباح. أظن أنها لم تفكر فيه أبداً مثلما فكرت فيه تلك الليلة. لعلها تقمصت روحه وأحست بالبرد القارس نيابة عنه. تربّعتْ حيث كان يجلس عادةً في الغرفة الباردة، فانتابتها رجفات قوية

متتابعة وشعرت بالغثيان. نعم، ليس الموت فقداناً للإحساس فقط، بل هو أيضاً تفكير في العدم، أي في ما ليس بَعْدُ هنا وما سنصير إليه حتماً ونهائيّاً. ومنذ تلك الليلة، ظل هاجس أن تقضي الليلة في «البرّادة» يتسلط على ذهنها.

[11]

لم تكد تبلغ السادسة عشرة حين حبلتْ. تَبَلَّغَ سيدي محمد النبأ من والدته التي استدعته لهذا الغرض: إن لَلاّ فاطمة تنتظر مولوداً اللهمّ اجعله ذَكَراً. على كل حال، إذا كان أنثى، فسأكون أيضاً سعيدة... لكن أخاك الأكبر ليس له سوى البنات... أنا أستعجل رؤية ولدك... لَلاّ فاطمة بذرة طيبة... الله يحفظها ويخفف عنها محنة الحمل... لم أر منها إلاّ الخصال الحميدة... أما طواجينها، ففي غاية اللذة... هل أنت سعيد بها يا ولدي؟ نعم يا أمي، أنا جد سعيد... فهي حقّاً فتاة من أسرة طيبة، وأبواها لطيفان.

في الشهر السابع من الحمل، مرض سيدي محمد. اصفرّت سحنته وضمر بدنه، فاشتدّت عليه الحمّى ولم يعد يخرج من داره. زاره الممرض الإدريسي الذي لم يفلح في إخفاء يأسه: إنه بين يدي الله... هذا وباء يجتاح البلد... أرجو أن أكون مخطئاً... لقد حقنتُه بحقنة لينام... إيّاكم أن توقظوه... غداً سأزوره... اللهمّ ارأف بحاله!

بكت أمي. العائلة بتمامها كانت حاضرة. حين كان سيدي

محمد يفيق، كان يبدو مبهوتاً متحيّراً. عيناه كابيتان. يتكلم بصعوبة. المأساة هي أن مواكب التشييع كانت تتعاقب دون انقطاع بسبب انتشار وباء التيفوس في أرجاء المدينة. الممرض الإدريسي كان يعمل دون توقف. فانضاف إليه ممرض آخر يدعى الصقلي كان يتنقل بين المنازل موزّعاً أقراصاً بيضاء على المرضى. كما دبّت الحركةُ في أوساط غسّالي الأموات.

كانت نصيحة الإدريسي أن تُفصل لَلاّ فاطمة عن سيدي محمد في وقت النّفاس. فرفضت أمي فراق دارها وزوجها. لكن القابلة لَلاّ راضية، التي ولّدتها، أجبرتها على الانتقال إلى منزل والديها. في الوقت الذي كان فيه سيدي محمد يُسلم الروح، وُلِدَتْ ابنتُه ثريّا. لم يُكتب عليه أن يراها. بكت أمي طويلاً. بل هناك من جرؤ على القول إن هذه المرأة تحمل النحس. والدتها هي التي تكفّلت لها بالعناية بثريّا في الشهور الأولى. أرضعتها هي وأخت أمي الصغرى في الوقت نفسه.

تم دفن سيدي محمد بمقبرة القبب. يكاد عمره لا يتعدى إحدى وعشرين سنة. زارت أمي قبره يوم الجمعة. قالت له: ثريّا تشبهك... لها عيناك وسحنتك ورقّتك. هذه مشيئة الله التي لا رَادَّ لها... أدعو الله كل يوم أن يسكنك فسيح جنّاته، وأن يجعلك تغفر لي كل تقصير قد أكون ارتكبته في حقك في لحظة شرود... كما أبتهل إليه أن تكبر ابنتك في الصحة والعافية والمسرّة. سأذهب الآن لأستودع صدقة في ضريح مولاي إدريس وأتضرع إليه ليجعلك في جوار صحابة النبي، فأنت تستحق ذلك بفضل الله ونعمته!

كانت دائماً تقول لي: «أنا لا أخاف الموت... الموت حقّ أوجبه الله علينا لننهي حياتنا. لا يمكن لي أن أعترض على إرادة الله. أما المرض، فشيء آخر... المرضُ موتٌ نذلٌ حقير... يتربص بنا... يفتك بجزء من جسدنا، يعذبه، يحرمه من قدراته الطبيعية. ثم ينتقل إلى جزء آخر ليعيث فيه فساداً وألماً قبل أن يهاجم الرأس في الأخير. أنا لا يخيفني الموت إطلاقاً... ما يخيفني هو أن أرى عذابي في نظراتكم، أنتم أبنائي، أن أراكم تتعذبون بعذابي وبالألم ينخر ذاتي من الداخل... هذا ما لا أطيقه... أنا مؤمنة... أنا مسلِّمة أمري إلى الله... كم يسعدني أن يناديني ربي لألتحق به... غير أن لي أمنية واحدة: أن تكونوا جميعاً معي من غير أن تتعذبوا!».

لم تسمع أمي أبداً بِدَارٍ يُتَخَلَّصُ فيها من العجزة. لا تتصور دقيقة واحدةً أنّ بإمكان أحد أبنائها أن يتخلّى عنها ويرمي بها خارج دارها. فسواء أَسُمِّيَ المكانُ «ملجأً» أم «مأوىً» أم «مستراحاً» أم «دَارَ عجزةٍ»، فإن مدلوله الذي لا يتغيّر هو أنه ما يُتخلّص فيه من الزوائد والمهملات.

لقد سبق لي أن شاهدت شريطاً سينمائيّاً يابانيّاً يصوّر أحد مشاهده نَقْلَ عجوز إلى قمة جبل مغطى بالثلج بهدف استعجال موته. وفي تأويلي أن هذا السلوك، الذي أثّر في نفسي كثيراً، هو تعبير أصيل عن شعور الرجل بالكرامة وعزّة النفس، حيث فضّل خلوة الجبل، ينتظر فيه موته، على أن يكون عالةً ثقيلة ومزعجة لأبنائه. فالعجزة هناك يلتمسون لأنفسهم هذا النفي برفقة الطيور الكاسرة. ففي بلد يكثر فيه الانتحار ويحتدّ فيه

الإحساس بالأنفة والشهامة، فإن كبار السنّ، تَحَسُّباً منهم لكل خِسَّةٍ محتملة قد تصدر عن أبنائهم، يبادرون إلى الانفراد بأنفسهم لمواجهة مصيرهم وحدهم. يختارون الانسحاب في صمت وإباء عوض أن يكونوا مصدر إزعاج للآخرين. من الناحية النظرية، هو اختيار لا يخلو من إغراء. لكنه، حين يتعلق الأمر بالتنفيذ، يصبح فظيعاً فظاعة مخيفة فائقة. إنه أحد أشكال القتل الرحيم الأكثر عنفاً. فحين يفقد المرء قدراته الذهنية والإنتاجية، فإن عليه أن يُخلي المكان لمن هم أصغر منه.

في المغرب، علّمونا حبّ الله والتفاني في احترام الوالدين في الوقت نفسه. أسوأ شيء يمكن أن يقع للمرء هو أن يسخط عليه والداه ويتبرّآ منه. فأنْ يُمنع رضاهما عنه يعني نفيه إلى فضاء بدون رحمة، يعني التخلّي عنه ورميه كما لو كان شيئاً بدون قيمة، يعني حجب كل ثقة عنه، وخاصة سَدَّ كل الأبواب في وجهه، باب الدار وباب الحياة وباب الأمل. إنهما إهانة وإقصاء قاسيان. نعيش ونحن نخشى أن نُحرم في يوم ما من بركة الوالدين بما هي رمز سكينة واطمئنان. لذلك، حقّ علينا طاعتهما والإذعان لهما، وهو ما قد يبدو مثيراً للسخرية أو غير مقبول نفسيّاً في الغرب. لقد قبّلتُ دائماً اليد اليمنى لأبي وأمي. لم أجرؤ أبداً على التدخين أمامهما، وما صرخت أبداً في حضرتهما أو تلفظتُ بكلام بذيء. إنها مسألة تربية، أسلوب في العيش مع مَنْ يحبّوننا. هذا لا يحول دون وقوع بعض الصراعات والمشاكل، لكن الأساس هو حب الوالدين الذي يعلو على كل شيء. ومن جهتهما، فإن هذا الحب يمكن له أن

يتجاوز الحد فيتحول إلى تسلط. قد يصبح مزعجاً وخانقاً، لكن هذا لا يبرر الإخلال بواجب الاحترام، احترام يعني التعلق والحنان ونوعاً من الخضوع غير العقلاني. وهو ما يمكن تسميته بالمحبة الْبَنَوِيّةِ، أي رابطة روحية غير قابلة للحساب والتحديد، رابطة ننظر إليها كهبة طبيعية يجب أن نستحقها ونفتخر بها.

حين يحبّ الابن والديه، فإنه لا يتخلّى عنهما. أتذكّر مشهداً في فيلم فكاهي إيطالي يُخرج فيه ألبيرتو صوردي أمه العجوز في سيارته الجديدة التي لا تزال مقاعدها مغلفة بالسيلوفان. اشترى لها قشدة مرطّبة ووعدها بنزهة جميلة. لكن هذا الإفراط في الاعتناء بها سرعان ما حيّرها، خاصة وأنها لم تعتد من ابنها، الأناني وشديد الفظاظة، على مثل هاتين الرقة واللطافة. فأدركت بسرعة أنه يذهب بها إلى دار للعجزة. وهذا ما فعله بوقاحة باسمة قاسية. ثم انصرف يخالجه إحساسٌ سريع الزوال بالخطأ وحزنٌ لم يدم أكثر من دقيقة واحدة. انقبضت قلوبنا نحن المتفرّجين. وتقمصتُ أنا نفسية العجوز المسكينة، فدمعت عيناي. حاولتُ أن أضع نفسي في موضع هذا الابن الوقح، فشعرتُ بالرغبة في الغثيان. ومع ذلك، فإن هذا المشهد أضحى مألوفاً وتافهاً في الغرب. فالناس هناك لا يصدمهم هذا السلوك. هو عندهم عاديّ ويعزونه إلى ضيق مساكنهم وافتقارهم إلى الوقت. يختبئون خلف أنانية هادئة، تلك التي سيورثونها لأبنائهم. ثم ستستمر العجلة تدور في حركة العود الأبدي لحداثة تضحّي بالعجرة وفي الوقت نفسه تسعى إلى تمديد معدل الحياة. وهذه المفارقة هي النتيجة الحتمية لمجتمع تسوده أسعار

السوق بما هي القيم الوحيدة التي يتعيّن إجلالها وصيانتها.

ويبدو أن المغرب، الذي تأثر بطراز العيش الأوروبي، سيقاوم هذا السلوك المعيب. فقد لا يتم بناء دور للعجزة، لكن من المحتمل أن يفكر تاجر عقارات، ذات يوم غير قريب، في بناء مساكن صغيرة خاصة بالمسنيّن. سيقدم المشروع بكلام منمّق: إن آباءنا يستأهلون أن نعتني بهم بكيفية تليق بهم. فلا يجوز أن نضع لهم سريراً في ركن من غرفة الأطفال. إنهم يستحقون حياة رغيدة ومريحة. سيكونون مرتاحين في هذه الشقق التي صمّمتُها خصّيصاً لأشخاص يريدون أن يشيخوا في طمأنينة. لكن هذا لا يعني أننا سننساهم. فلن يحدث هذا أبداً. أنا لم أنجح في حياتي إلاّ بفضل بركة والديّ ورضاهما. نعم، سنهتم بالمسنّين كما ينبغي أن يكون الاهتمام، حيث سيسهر على صحتهم طبيب ذو خبرة وممرضة مختصة. سيكون لآبائنا وأمهاتنا كل ما يحتاجون إليه. هكذا سيقضون الأعوام الأخيرة من حياتهم في راحة نفسية ومادية...

بطبيعة الحال، لن نعدم أبناء أشراراً يجعلوننا لا نصدق هذا الخطاب. أما الباقي، فستتكفّل به الموضة والأنانية.

[12]

ذات صباح، اغتنمتُ فرصة وعيها لأسألها عن رأيها في دور العجزة:

ـ هل تقصد أنني لن أسكن بعدُ في داري هذه؟

ـ ستقيمين في دار حيث سيهتم بك أشخاص مختصّون. لن ينقصك أي شيء. ستجدين أطباءك وممرضتك في خدمتك، وسيزورك أبناؤك من حين لآخر. . .

ـ من حين لآخر؟ هذا يعني أنكم ستغيبون عني. وكلثوم، التي تلازمني منذ خمس عشرة سنة، هل ستكون معي في هذه الدار؟

ـ لا. . . فهي ليست مريضة ولا متقدمة في السن.

ـ ولماذا تريدون أن تُخرجوني من داري؟ هل تنوون بيعها؟ فهمتُ الآن، إنكم تستعجلون الحصول على الإرث. . .

ـ أبداً يا أمي. أنا أمزح معك. . . كنتُ فقط أشير إلى أن الأشخاص المسنّين، في فرنسا أو إسبانيا، يتم إيداعهم في دور خاصة. وقد كنتُ موقناً أنك سترفضين حتماً. . .

ـ داري تكفيني. . . فلست في حاجة إلى دار خاصة. . . لن أخرج منها أبداً. . . إلاّ إذا متّ. حينئذاك، يمكن لكم أن تفعلوا بها ما تشاؤون. . . يمكن لكم أن تدمروها أو أن تشيدوا مكانها عمارة. أما الآن، فداري تعجبني وسأبقى فيها.

أمي لا تمزح. حتى حينما كانت في صحة جيدة، فهي لم تكن تقبل إلا بتحفّظ أن تذهب عند ابنتها في فاس أو عند ابنها في الدار البيضاء لقضاء بضعة أيام. تعلّقها بدارها قوي. إنه يرمز إلى تجذّر جوهري لا جدال فيه. لقد مرّ والدي بأزمات مادية، لكنه لم يفكر لحظة في بيع منزله. يمكن للمرء أن يجوع، لكن لا يمكن له أن يعيش في الشارع بدون سقف يحميه. حين كنت طفلاً في فاس، كان على كل ربّ عائلة أن يملك داراً. أما الذين كانوا يستأجرون بيوتاً، فهم البدو، لا سكّان المدينة. أذكر أننا كنا نكري جانباً من دارنا في حي المخفية لأناس من فاس الجديدة بضاحية المدينة. كان مجرّد إزار يفصل بين أسرتنا وأسرتهم. كنا نسكن في الطابق السفلي وكانوا يسكنون في الطابق العلوي والسطح. دارنا كانت كبيرة. ولأننا كنا فقراء، فقد كنا مضطرين إلى تأجير جزء منها لنغطي بثمن الكراء بعض المصاريف، وهو ما لم تكن تستحسنه العائلات البورجوازية. لكن أبي لم يكن يخجله أن يعترف بأننا فقراء.

لأول مرة، لم تتعرف أمي البارحة على صوتي في التلفون. كانت في ذروة الهذيان والحدة. حسبتْ أنني مولاي علي، أخوها الأصغر:

ـ ألا تخجل يا مولاي علي؟ تمرض أختك ولا تأتي

لزيارتها! أين أنت الآن؟ إنك مختبئ. . . دائماً زوجتك هي التي تحكمك وتمنعك من المجيء لزيارتي. . . هذا مؤسف!

ـ لكن. . . أَيْمَّا. . . أنا ابنك. . . أنا الطاهر!

ـ لا. . . الطاهر سافر ليزوّج ابنته. هو خارج المغرب. وأنت، من تكون؟ آه، أنت مصطفى، ابني الذي هجرني وتخلّى عني. . .

ـ لا أَيْمَّا، مولاي علي مات من زمن بعيد.

ـ هكذا إذن! مات ولم يخبرني أحد! فيا لقبح السلوك!

لم تدم طويلاً فترة ترمّلها. ذات يوم، جاء عند أبيها عمُّها سيدي عبد السلام: إنها جد صغيرة، جد ساذجة، وفي منتهى الجمال. أما يداها، فكنز لا يقدّر بثمن. فلا يجوز أن تبقى حبيسة دارك. يجب أن تخرج، أن ترافق أمها إلى حفلات الزواج التي تُدعى إليها، حيث يمكن لها أن تلفت إليها الأنظار. قبل أيام، زارني سيدي عبد الكريم، رجل فاضل، متزوج، لكن امرأته مريضة، له منها أربعة أبناء كبار. . . لكنه ما يزال يتمتع بكل صحته وقوته. . . طلب مني أن أكلمك، فيسعده ويشرّفه أن يطلب منك يد لَلاّ فاطمة. . . أعرف أنك ستقول إنه في سنّ والدها، وإنها ستعيش مع زوجته تحت سقف واحد وإنها ربما ستضطرّ إلى الاعتناء بها. لكنني سأقول لك إنها، لجمالها وصغر سنها، ستكون ذات حظوة ومكانة خاصتين عنده. . . سيفضّلها على الأخرى، المريضة، التي لا يعرف أين هي الآن. أولاده كبار ويعملون في التجارة، مكرّسين وقتهم لتدبير أملاك سيدي عبد الكريم، قل لي، ما رأيك؟ بم أردّ عليه؟

هكذا تزوجت أمي للمرة الثانية. تمّ ذلك في كتمان تامّ وبدون احتفال. اجتمعت العائلتان في دار سيدي عبد السلام الكبيرة، وحرّر العدلان عقد الزواج في عقد زواجها الأول نفسه.

بعد وفاة سيدي محمد يرحمه الله، وبعد انتهاء مدة التربص والعِدّة، وبعد تشاور العائلتين، قَبِلَ مولاي أحمد أن يزوج ابنته الأرملة لَلاّ فاطمة لسيدي عبد الكريم، المتزوج بامرأة أخرى له منها أربعة أبناء، وقد حُدّد الصداق بخمسة آلاف ريال سُلّمت إلى والد العروسة. واتفقت العائلتان على عدم إقامة أيّ حفلة، إذ ستنتقل لَلاّ فاطمة إلى دار زوجها الثاني ابتداء من تاريخ تسجيل هذا العقد. ندعو الله العليّ القدير أن يحفظهما ويباركهما.

الفاتحة.

آمين.

انتقلت أمي إلى حيّ آخر، ولم تتكيف مع حياتها الجديدة إلا بعد وقت طويل. كانت تفكر باستمرار في زوجها الأول وتسأل الله أن يحفظ حياتها من كل بليّة.

عاملها سيدي عبد الكريم مثل أميرة. أحاطها برعاية خاصة، ووضع خادمتين رهن إشارتها، موصياً إيّاها ألاّ تُتعب نفسها وأن تترك شؤون المطبخ لِـ غيثة، طباخة سوداء جاء بها والد سيدي عبد الكريم من السنغال سنة 1915.

حبلتْ مرة ثانية، فَدَلَّعَهَا زوجها، حريصاً على ألاّ تبذل أي

جهد وعلى أن تعيش في رفاهية. تودّدتْ إليها الزوجةُ الأخرى وزودتها ببعض النصائح ليزداد إعجاب سيدي عبد الكريم بها. ها أنتِ ترين أن المرض ألزمني هذا الفراش... لا أكاد أتحرك... من حسن حظي أنّ غيثة تعتني بي... لم يكن معقولاً أن أترك الدار عرضة للإهمال. تأتيني غيثة كل صباح لأزوّدها بتعليماتي. هل تعرفين... أنا أحبك، أنتِ من عائلة طيبة. أشكرك على قبولِك الزواج برجل يكبرك، بل وخاصة برجل في ذمته امرأة أخرى. أنا التي طلبتُ منه أن يبحث عن زوجة أخرى، فهذا حقّ يعطيه ديننا وشريعتنا للرجال... قلتُ له: يا عزيزي سيدي عبد الكريم، لا يجوز أن تبقى بدون امرأة في فراشك، فالله يرخّص لك أن تتزوج بأربع نساء. يجب عليك أن تتزوج امرأة ثانية. لو كنت في صحة جيدة لما طلبت منك ذلك. أنا لم أعد أصلح لك... أصبحتُ شيئاً عديم الجدوى. أولادي كبروا، الله يحفظهم، ولا أعتقد أنهم سيعترضون على فكرة زواجك. ابحث إذن عن امرأة تكون مطلقة أو أرملة، فوباء التيفوس قتل عدداً كبيراً من الأزواج... أظن أنك ستجد أرملة صغيرة وجميلة لتسخن فراش زوجي العزيز! هل تعرفين؟ قبَّل يديّ، ثم ذهب فوراً عند عمّكِ ليكلمه في الموضوع. فمرحباً بكِ في بيتك. اللهم اجعل الخير والصحة يأتيان على يديكِ، فلقد افتقرنا إليهما منذ وقت طويل. تعاليْ، هل يمكن لكِ أن تساعديني على الوقوف؟ أمسكي بيدي، اجذبي قليلاً، نعم، هكذا، أسندي ظهري إلى هذه المخدّة، فهو في حاجة إلى أن يُسند، وإلاّ فسأتعذب، كل

عضلاتي توجعني، لا أستطيع تحريك يدي وأصابعي، غيثة هي التي تعتني بي عادةً وتنظفني وتطعمني كما لو كنت طفلة رضيعة. . . كم يسعدني أن تكوني رفيقة لي. هيّا، أرجو أن تلدي لنا ولداً جميلاً، فالدار تحتاج إلى نضارة الأطفال وضحكهم. أولادي الكبار تزوجوا، يأتون لزيارتي كل يوم. أما زوجاتهم، فيتلكّأن في المجيء، فهنّ لا يحببن هذه الدار، ولذلك أنا لا أرى حفيداتي إلاّ نادراً.

لا أحد يعرف اسم هذا المرض الذي أَلَمَّ بي. الممرّض الإدريسي قال لي إنه نوع من داء المفاصل الناتج عن برد فاس ورطوبتها. طالما اشتغلتُ في هذه الدار مثل أَمَةٍ، صحتي أفنيتها في هذا المطبخ الواسع، فزوجي، أقصد زوجنا، الله يحفظه، يحب استقبال الزوار، فهو غالباً ما يدعو أصدقاءه للغداء ولا يخبرني بذلك إلا في صباح اليوم ذاته، لعلكِ تتصوّرين صعوبة ذلك، حيث يكون عليّ أن أسرع وأجري من هنا إلى هناك، وألاّ أنسى تحضير الخبز. صحيح أن غيثة كانت تساعدني، لكن زوجي كان يصرّ على أن أحضّر كل شيء بنفسي، كان يقول لي يداكِ تصنعان العجائب، فلا تحرمينا منها الله يرضى عليك.

لكن. . . أخبريني، ما هو هذا المرض الذي أودى بحياة المرحوم زوجك؟ هل هو ذاك الداء العضال الذي لا أريد التلفظ باسمه في هذه الدار السعيدة؟ المرض قضى عليه بسرعة.

كنتُ أعاين صحته تسوء يوماً بعد يوم. وحدهما عيناه الكبيرتان السوداوان بقيتا سليمتين. كنت حبلى، تجيش نفسي باستمرار فأقيء. ثم وهن جسمي، فاعتقدتُ بأن حلولي بين هذه

العائلة لم يَحُلْ دون دخول النحس إليها. لم أكن أنام. كنت أقضي وقتي في البكاء. وحين ولدتُ ابنتي، انتزعتها مني أمي، بسبب ضعفي وشقاوتي. لم أعترض على ذلك. أختي الصغرى لا تكبرها إلاّ بعام واحد. أمي أرضعتهما معاً. فكأنني لستُ التي ولدتها.

كان سيدي عبد الكريم حريصاً على صحة امرأته الثانية. فكان يمنع عليها أن تدخل إلى المطبخ، قائلاً لها: أنا لا أريد لهاتين اليدين الصغيرتين الناعمتين أن تذبلا، فأنت أميرتي، أنت غزالتي، أنت هبة لي من الله، أريد أن تكوني سعيدة، أحس أن جسدك يتغير، فهل تحملين في بطنك هبة أخرى من الله؟ ذلك ما أرجوه.

وضعتْ ولداً. دامت الاحتفالات سبعة أيام. الزوجة المريضة بكت فرحاً. سُمِّيَ عبد العزيز. والده كان يريد له اسم عبد الرزاق ليذكّره بأن هبة الله هذه نفيسة.

تعتقد أمي أنها قد ولدت توأمين هما الحسن والحسين. فيضحك عبد العزيز الذي يذكّرها بأن التي ولدت فعلاً توأمين هي بنت عمّها. حدث ذلك في الأسبوع نفسه.

تنادي الآن زوجها الذي مات منذ أكثر من خمسين عاماً. تقول إنها تحتاج إلى الحديث معه. حين نبّهناها إلى أنه لم يعد في هذه الدنيا، احتجّتْ قائلةً: هكذا إذن؟ تقع أشياء ولا أحد يخبرني بها! كأنني ميتة!

كبُر عبد العزيز في هذه الدار الشاسعة بين أمّ صغيرة السن

وزوجة أب مريضة. حين أدرك سنّ الذهاب إلى المدرسة، أخذه أخوه الأكبر ليسكن معه. أبوه لم يعد يخرج بسبب مرضه وهرمه. كان الإدريسي الممرّض يلازمه. كما تمّ إحضار حمّاد، ابن العمّ الأعمى، المشهور بحسن ترتيله للقرآن. كان معروفاً وسط العائلة أن مجيء حمّاد يسبق بقليل مجيء الموت. بالفعل، أسلم سيدي عبد الكريم الروح وهو نائم. وبعد ذلك بشهرين، ماتت زوجته الأولى وهي ترسل صيحات الألم.

ها هي أمّي أرملة من جديد. استجارت بالوليّ مولاي إدريس الذي كانت تزور ضريحه كل خميس، مقدمةً له قرابين، فتبقى الساعات وهي تصلي وتسأل الله رحمته وعفوه. عادت لتسكن في دار والديها حيث وجدت ابنتها وقد بلغت العام الثامن. لم تعد تفكر في الزواج، مقتنعة بأنها تحمل النحس والشقاء، وبأنها ضحية العين اللاّمة وسوء الطالع. كانت تخلو بنفسها على السطح، فتظل تنظر إلى السماء مناجيةً النجوم.

[13]

تبدو باسمةً هذا الصباح. طلبتْ مرآةً وأحمر الشفاه. كلثوم... أينك يا كلثوم؟ أقبلي بسرعة، سيأتون جميعاً للغداء عندنا. تلاقوا في جامع مولاي إدريس بمناسبة صلاة الجمعة وقرروا أن يأتوا عندنا ليأكلوا طاجين المروزية... أنتِ تعرفين أن هذه الأكلة من اختصاصي... هيّا، أحضري الطنجرة بسرعة... ملّحي اللحم، ولا تنسي التوابل السبعة... فالوقت يمرّ كالبرق...

سألتها كلثوم بفضول من هم هؤلاء الضيوف الذين سيتغدّون عندنا، فأجابتها ما أبلهك، إنهم أزواجي الثلاثة، نعم، رجالي الثلاثة، إنهم هنا، في فاس... بعد صلاة الظهر سيأتون والدار ليست جاهزة لاستقبالهم... أنا قلقة... يخجلني أنني لم أهيّئ بعد أي شيء... فما الحيلة يا سيدي يا ربي؟ أين سأخبئ وجهي؟

لحسن الحظ أنها تنسى بسرعة. تستعيد مباشرة إيقاع حياتها الطبيعي الرتيب، فتطالب بأدويتها، وتغضب لأن كلثوم تتلكّأ في الاستجابة، وتسوّي ملابسها، متحسرةً على أيام زمان حين كانت

جميلة وأنيقة. ثم ها هو الخبل فجأةً يتمكن من عقلها من جديد، فتنخرط في هذيان متدفق وكأنّ بها مَسّاً من جنّ:

ـ قبل أن أنام ليلة البارحة، فتحتُ حقيبة حوائجي، فأحصيتُ سبعة فساتين وقفاطين. وضعتُها هنا إلى جانب هذه الوسادة. أردتُ أن أنام وأنا واثقة بأن ملابسي هنا، قريبة من يدي. وفي الصباح، لم أجد لها أثراً... اختفت! نعم، ضاعت مني. إنهم اللصوص والأشرار يحيطون بي... لم يعد لفساتيني وقفاطيني أثر. لا شك في أن كلثوم باعتها في سوق الدلالة. سرقتها مثلما تسرق أدويتي، خاصة إذا كانت غالية، وتبيعها بثمن بخس. لا برهان عندي، لكنني أعرف طمع هؤلاء البدو. لا يشبعون أبداً، ويحسدون الآخرين. اسمعني يا ولدي، إنهما تفعلان ما تشاءان بمجرد ما تسافر... تتخلّيان عني فأبقى وحيدة، أصرخ وأصرخ، ولا واحدة منهما تردّ عليّ. وأنا لا أستطيع أن أقول لهما أي شيء خوفاً من أن تتركاني وتذهبا دون رجعة. أنت تفهمني يا ولدي... افعلْ أي شيء يقنعهما بالبقاء معي... لكن... أين اختفى حذائي؟

ـ لكن... أَيْمَّا رِجْلُكِ مريضة ومضمّدة، فلا يمكن لها أن تدخل في الحذاء!

ـ لا... أريد فقط أن أتأكد من أن حذائي لم يسرق...

ـ لا أحد سرق لك شيئاً...

ـ آه، صحيح! أنا منهكة الأعصاب. أعطني إذن قليلاً من الفلوس لأشتري.. ماذا سأشتري؟ نسيتُ... يا ربّي، ذاكرتي

ضَعُفَتْ، بدأتُ أنسى كل شيء. والدك كان يستفزّني بقوله إنني عاجزة عن تذكّر ما تعشّيناه ليلة البارحة. كان يبالغ. لكنني لا أنكر أنني أنسى بعض الأشياء.

لم تنجح كلثوم في كبح فضولها. في وقت الشاي، بعد العصر، سألتْها: هل صحيح أنكِ تزوجتِ ثلاثة رجال؟ لستُ أدري... رِجْلِي توجعني... أنا في حاجة إلى دواء مهدّئ وأنتِ تحدْثينني عن الزواج! لا... لقد قرّرتُ ألاّ أتزوج من جديد.

لن أتزوّج أبداً مرةً أخرى... لن أتزوج مطلقاً مرةً أخرى...

باحة الديوان هي القلب النابض لمدينة فاس. فيها تتجمّع جميع أنواع التجارة. هناك سيلتقي مولاي عبد السلام، عمّ أمي، بوالدي، وسيصبح أعزّ أصدقائه.

كان والدي يستورد التوابل بالجملة، فيتسلّمها بمتجره في الديوان على ظهور البهائم. صناديق وأكياس من القنّب ملأى بحبوب الكزبرة وكمّون إفريقيا وزعفران إسبانيا وزنجبيل آسيا والفلفل الحلو والفلفل الحرّيف والبهار الأبيض والبهار الأسود وشاي الصين والشاي الأخضر والشاي الأسود...

كان مولاي عبد السلام، الذي يتاجر في البلاغي، يحلو له أن يأتي عند والدي ليساعده على تصفيف التوابل وليتشمّم روائحها وهو يثرثر معه. هكذا عرف بأن والدي لم يكن راضياً ولا سعيداً مع زوجته التي كانت عاقراً لا تلد.

ـ ما عليك إلاّ أن تبحث عن امرأة أخرى، امرأة حقيقية سبق لها أن ولدت. . .

ـ ليس هذا بالأمر الهيّن. . . فأمّي، التي تستطيع أن تبحث لي عن هذه المرأة، ماتت للأسف منذ مدة، وها أنذا أتعذّب وحدي في صمت.

ـ لا تقلق يا صديقي العزيز، فلكل مشكلة حلّ. . .

ـ كيف؟

ـ دعني أفكّر. . . لن أقول لك الآن أي شيء، سأتحرّى الأمر أوّلاً ثم أتصل بك. . .

هكذا إذن أقنع مولاي عبد السلام أخاه الذي كان عليه أن يقنع زوجته التي تكلّمتْ مع أمي فأقنعتها بأن تقبل أن تكون الزوجة الثانية لرجل فاضل من عائلة خيّرة يتاجر في التوابل بالديوان.

لست أدري أيّ واحد من الأربعة خطرت بباله فكرة هذا الشرط الضروري لكي يتم الزواج، وهو أن يبادر الزوج إلى تطليق امرأته الأولى بمجرد أن تحبل لَلاّ فاطمة؟

تم قبول الشرط، مع صداق زهيد، وحفل صغير، وتَسَاكُنُ أمي مع الزوجة الأولى وهي مقتنعة بأن زوجها الثالث هذا عقيم لا يلد. كان يقضي ليلةً مع هذه وليلةً مع تلك، إلى أن دوّت الزغاريد ذات يوم في أنحاء الدار: فقد حبلتْ أمّي، وبدأت تتقيّأ وتتوحّم، فأصبحتْ محظيّةً عند والدي، يدلّلها ويلاطفها ويطعمها كل ما تشتهيه. أما الأخرى، فقد انصرفت من تلقاء

نفسها، حيث أرسل لها زوجها «بريّتها»، أي وثيقة طلاقها.

علم تجّار الديوان بالخبر: السي حسن ينتظر ابناً وامرأته الأولى تبحث عن زوج. في هذه الأثناء، كان المعلّم الزيتوني، جزّار حيّ الرصيف، قد سئم حياة العزوبة. لكن امرأةً صغيرةً وحديثة العهد بالطلاق لن تقبل بسهولة جزّاراً زوجاً لها بسبب فوحان روائح الشحم والدم منه. فقبِل مولاي عبد السلام أن يكون وسيطاً بينهما. فكان الزواج بهيجاً والحفل باذخاً والصداق باهظاً.

في غضون ذلك، وضعتْ أمي ولداً.

كانت فاس وقتئذ تعاني آثار الحرب العالمية الثانية، حيث كان الناس يحصلون على نصيبهم الزهيد من الزيت والسكّر والطحين مقابل قسائم مقنّنة بصرامة، وكانت التوابل قليلة الرواج، والحياة اليومية صعبة. لكن أبي كان أسعد الرجال، لأنّ زوجته تنتظر مولوداً ثانياً. فكان يردد إن هذا المولود سيبشّرنا بنهاية الحرب، صدّقوني، أنا واثق من ذلك!

قبل نهاية الحرب بأسابيع قليلة، وُلِدْتُ أنا.

وفي تلك الأثناء، كانت زوجة الجزّار تلد توأمين.

[14]

كثيراً ما سألتُ نفسي هل يوجد حُبٌّ بين أبي وأمّي. لعلّ ما كان يجمعهما هو المحبّة، وليس الحبّ العاطفي معبّراً عنه باعترافات رومانسية وهدايا وورود وكلمات رقيقة. كان كلّ منهما يثير الآخر. فكان هو يردد دائماً أن امرأته لا تفهمه وتستفزّه وتغيظه ولا تقيم له وزناً. وكانت هي تؤاخذ رجلها على قلة سخائه وعدوانيته وخشونته من غير أن تحقد عليه. كانا يتشاجران باستمرار، فتبكي أمّي وتَتَّخِذُنَا شهوداً على سوء معاملته لها وتطلب منّا أن نؤازرها بل وأن نحميها منه. أما هو، فيحتجّ ويغضب «لأنكم لا تمسكون العصا من وسطها، بل تنحازون جميعاً إليها ولا أحد منكم يساندني!». لكنّ الأمر لم يصل أبداً إلى حد الأذى أو العنف الجسدي. كان بينهما خاصةً تنافرٌ في الطبع وتفاوتٌ شديد في المزاج. كان يعيّرها بكونها جاهلة أمية، لا تعرف لا القراءة ولا الكتابة. كانت تحفظ رقمين تلفونيين فقط، أحدهما خاص بمتجر والدي تعوّدت تركيبه بكيفية آلية. فكان يستخفّ بها بسخرية لاذعة. يتسلّى خاصةً بإيقاعها في فخاخه ومكائده. حينئذ تستاء منه. لا يفهم لماذا لا

تكلمه أبداً، فيحاول بكل الوسائل أن يعيد الأمور إلى نصابها. الصمت! هوذا سلاح أمي. وحين يصيبه مرض، زكام أو عسر هضم، تفقد عقلها وتنادينا. سريعة القلق هي. بعد موته، التزمت بطقوس الحِداد بدقة متناهية. لكنّني أظنّ أنني حزرتُ نوعاً من العزاء أو الانفراج الخفيف بعد وفاته. لم تعرب طبعاً عن ذلك ولا تركت آثاره تبدو على ملامحها. بين حين وآخر، كانت تقول لنا، من باب التذكار، إنه كان رجلاً شهماً وطيّباً، إلاّ أنّ الحظ لم يبتسم له في حياته المهنية.

كانا بسيطين، يأنفان من التصنع والبهرجة، ويعيشان في وئام تامّ مع تقاليد الآباء والأجداد التي تحرّم التعبير جهاراً عن المشاعر والانفعالات. كانا معاً يتميزان بعفّة وحياء شديدين يُعجزانهما عن الإفصاح عن رقتهما وحنانهما.

أبي كان عنده نزوع خاص إلى الفوضوية والتحدّي بسبب نفوره من النفاق الاجتماعي أو الديني. أما أمّي، فكان سلوكها يتّسم بالكياسة واللباقة، تقضي وقتها في إصلاح ما تفسده تعليقات أبي وملاحظاته الجارحة لها. فكان الكل يحبّها لذلك ويحترمها لرزانتها وفطنتها. أبداً لم تسئ إلى أحد ولا اغتابت أحداً. حتى حين كانت خادماتها يغدرن بها أو كانت جاراتها أو بنات خالها يخاصمنها، فقد كانت تستجير بالله وتسأله أن يحكم بينهنّ بالعدل. رصانتها وطيبتها وكذا إيمانها بالقدر... كل هذا كان يجنّبها الغيبات والمثالب. فلا أحد آذاها. هذه لم تكن حال والدي الذي كان سليط اللسان، فلم يكن يراعي أحداً، لا الأحياء ولا الأموات، لا الأقارب ولا المعارف. كان، لتزجية

وقته، يتسلّى بتدوين كل واردة وشاردة في كنّاش كبير: تواريخ الميلاد والتسمية والختان والزواج والوفاة وخاصة أثمان الأشياء. إذا تصفحت كنّاشه تعرف كل شيء عن تاريخ العائلة وأحوال العصر. أفراد العائلة كانوا يفزعون من هذا الكنّاش الغنيّ بالتفاصيل والتأملات وأحياناً الملاحظات الفظّة اللاذعة. كان يعرف كل شيء، بحيث لم يكن بإمكان نساء العائلة مثلاً أن يخفين سنوات ولادتهنّ ولا أن يزدن في أثمان شراء مجوهراتهنّ. ذات مرة، وأنا أسترق النظر إلى الكنّاش، علمتُ أن والدي جرّب كل شيء من أجل أن تنجب له زوجتُه الأولى أبناءً. في ذلك الوقت، لم يكن بمدينة فاس أيّ طبيب. كان هناك فقط ممرض يقوم مقام الطبيب، فكان يداوي جميع الناس الذين كانوا يثقون ببركته أو يستنجدون بالله في الحالات الخطيرة العصيّة. قال له الإدريسي الممرض إن الله تعالى لا يرغب في أن يستمرّ هذا الزواج بينكما، فهذا الزواج غلطة، يجوز لك أن تطلّق هذه المرأة وأن تتركها تجرّب حظّها مع رجل آخر. كانت هذه هي المناسبة التي فاتحه فيها مولاي عبد السلام بموضوع الزواج.

كل شيء كان مسجّلاً في الكنّاش الكبير: الحديث مع عمّ والدتي، لحظات التردد، الشرط الأساسي... «هذا الصباح، رأيتُ مولاي عبد السلام. رجل طيب، بدين وقويّ الإرادة. فتحتُ له قلبي: زوجتي عاقر لا تلد. تزوجتُها قبل عامين وبطنها ما زال فارغاً. لا طعم للحياة بدون أبناء. أنا ابن أسرة لها خمسة أبناء وابنتان، مولاي عبد السلام لم يقل لي عن ابنة أخيه

لَلاّ فاطمة غير الكلام الجميل. لا أعرف كيف هي ولا هل هي صعبة الطبع أو صاحبة نزوات أو لطيفة طائعة. . . أنا لا أطيق النساء المتمرّدات اللواتي يعصين أزواجهنّ. هكذا كان. أخبرته بذلك، فطمأنني. إن لَلاّ فاطمة من عائلة طيبة، حسنة التربية، أبوها رجل يحترمه الناس ويحبّونه. ليسوا أغنياء. ولكن. . . هذا لا يهم. أتمنى أن يتم كل شيء في أقرب وقت. . .

كم مرّة حاولتُ أن أعرف كيف تمّت الأشياء، لكن دون جدوى. هل هو نسيان أم امتناع عن إفشاء بعض الأمور. اليومَ أمّي لا تكترث لهذه الفترة. تفضل أن تحدثني عن زوجها الأول، ذاك الذي مات بعد زواجها بشهور قليلة. أما الثاني، ذاك الذي تدعوه بـ «العجوز»، فتحكي لي عن مغامراتها معه، حين كانت تهمل واجباتها الزوجية وتهرب: «كنتُ بعدُ صبيّة. كانت أمي تربّي ابنتي ثريّا وأختي الصغرى أمينة في الوقت نفسه. لم أكن أهتم بما يحدث بالدار. حين كانت الظروف تسمح، كنتُ أهرب فأذهب إلى دار والدي. فكان أبي يمسك بيدي ويقودني إلى العجوز. لم يكن يجرؤ على توبيخي لمعرفته بفارق السنّ بيننا. فأنجبتُ منه ولداً. شهوراً بعد ذلك، مات بسبب هرمه. فوجدتُ نفسي أرملةً للمرة الثانية من غير أن يحزنني ذلك. لم أَكُنْ أكنُّ له أية كراهية، لكنني لم أكن أفهم ما الذي أفعله في داره. ثم بقيتُ وحدي سنوات، ربما عاماً واحداً. لم أعد أذكر. إلى أن أقبل عليّ عمّي مولاي عبد السلام ذات يوم ليعرض عليّ فكرة الزواج مرة ثانية. كنتُ أعرف أن أبي وراء مسعى عمّي، فلم أكن أجرؤ على قول لا. هذا غير ممكن في

زماننا. لقد تزوجتُ والدك دون أن أراه من قبل. تماماً كما حدث مع الرجل الأول والرجل الثاني. كنّا نتزوج دون أن يعرف أحدنا الآخر أو يراه. الزواج كان لعبة يانصيب أو لعبة غُمَّيْضَةٍ! في البداية، كان أبوك حلواً كالعسل، وديعاً، خاصة حين علم أنني حبلى. طلق الأخرى، فألفيتُ نفسي مع رجل كله لطافة وعناية. هكذا عشنا إذن بدون مشاكل وبدون صداع. وبعد ذلك، ستعرف حياتنا أوقاتاً عصيبة، وأنت تعرفها حق المعرفة. لكن، لا بأس، دعنا من كل هذا».

أحضرتْ أمي عاملاً كهربائيّاً وآخر رصّاصاً، وطلبتْ منهما فحص تجهيزات الضوء والماء بالدار. فوقع تغيير صنبور المغسلة واستبدال بعض اللّمبات. ها قد تمّ إصلاح كل شيء. كما جرى تنظيف الغرف والمرافق الأخرى وكذا إعادة صبغ الجدران. لكن أمي لم تنتبه إلى ثريّا الصالون التي كانت في حالة رديئة بسبب الغبار المتراكم عليها وتعطّل جميع لمباتها. لم نعد نفطن إلى وجودها. هي إحدى التّحف المتبقية من ذلك الزمان الذي كان فيه والدي يشتري أشياء متنوعة من سوق السلع القديمة الرخيصة. لا قيمة لهذه الثريّا الخربة المتدلية من السقف. يجب التفكير في التخلص منها أو إعطائها إلى عمّال النظافة. وقبل ذلك، ينبغي البحث عن سلّم وفكّ أسلاكها ثم إنزالها. الأحسن أن ننساها حيث هي.

تندرج هذه الإصلاحات التي قررتها أمي ضمن تهييء الدار لاستقبال جميع أفراد العائلة يوم جنازتها. هي متهوّسة بهذا الحدث. لذلك، لم أعد أندهش حين أسمعها تقول لي إن حفلة

الاستقبال يجب أن تكون بهية رائعة: «إنها آخر مرة سأستقبل فيها عائلتي. فلتكن إذن بكامل الأبّهة والبذخ. إيّاكم أن تتقشفوا في جنازتي. اصرفوا بسخاء. أوصيكم بشراء دجاج بلدي، لا ذلك الدجاج الرومي المحشوّ بالأدوية من أجل تسمينه. اشتروا سِماطات ومناديل بيضاء، وكذا ملاءات للذين سينامون في الدار. إذا كان الفصل شتاء، اشتروا أغطية صوفية. ينبغي أن يكون كل واحد راضياً. افعلوا كما لو كنتُ هنا، حيّةً، حاضرةً بابتسامتي وغبطتي. فأنا أحبّ استقبال الضيوف وحُسْن وفادتهم. أعرف يا ولدي أنك لن تقصّر في شيء. من هذه الناحية، أنا مطمئنة. لكن، أقولها وأكررها: لا تخجلوني وأنا في قاع قبري!».

لم تعد أمي تطبخ منذ مدة بسبب مرضها. كانت تجلس بجانب كلثوم وتملي عليها ما يجب تحضيره. أما اليوم، فقد كفّت عن التدخل في شؤون المطبخ. غير أنها، في قرارة نفسها، مقتنعة بأنها هي التي تطبخ من خلال كلثوم. لذلك، لا أستطيع أن ألاحظ مثلاً أن هذه الأكلة أو تلك غير موفقة أو أن توابل الكفتة أكثر من اللازم، فهذا يغضبها لاقتناعها بأن كلثوم هي امتداد طبيعي لخبرتها الطبخية. شخصيّاً لا تعجبني أكلات كلثوم الدسمة المرمّقة، ولا أريد أن أصدّق أن أمي هي التي حضّرتها. لذلك، أفضل أكلات بسيطة: لحم مشويّ وسلطات. أن تأكل ما تطهوه أمي يعني عندها أنك تحبّها. حين يحدث لي ألاّ أنهي صحني، فإنها تطلق تنهيدة قوية وتغتّم. فالأكل بالنسبة إليها هو رعاية لرابطة عاطفية قوية دائمة.

منذ بضعة شهور، لم تعد أمي تنتبه إلى ما تأكله. أصبحت تلتهم الطعام دون تلذّذ. تقول إنها لا تأكل إلاّ لتستطيع ابتلاع أدويتها الكثيرة. كلثوم هي التي تعرف برنامج علاجها. هي أمية، ومع ذلك فهي لا تعدم تلك الشطارة التي تجعلها تفرّق بين عُلَبِ الأدوية وتعرف مواقيت تناولها. تقول: «الحبّة الوردية الصغيرة للقلب، وتؤخذ كل صباح. والأقراص البيضاء للضغط، وتؤخذ قبل الغداء. وفي المساء، هناك العلبة الخضراء ثم العلبة الزرقاء ونصف حبّة حمراء للنوم». لذلك، تثق بها أمّي تماماً. ما تخشاه فقط هو أن تمرض كلثوم فتخطئ في مقادير الأدوية أو تنساها.

تدّعي أمي أنها لم تعد تحلم. إنها فقط تنسى. لكنها بالمقابل كثيرة الهلوسة والهذيان. فخلال أكثر من شهر، لم تكفّ عن حكاية قصة طائر الدوري الذي جاء ليلاً إلى نافذة غرفتها وشرع في ذكر جميع أسماء الله الحسنى. تعتبر هذه الزيارة إشارة من السماء إلى أن ساعة رحيلها توشك أن تدق. لذلك، أخذت تكرر بعض أسماء الله وكذا الأدعية التي كان يرددها. تقول إنه جاء وبدأ ينقر زجاج النافذة ثم شرع يكلّمها. حين أكّدت أختي ثريّا هذه الرؤيا، لم يعد لدينا ما نضيفه.

يحدث لأختي، منذ فقدت زوجها في حادث سير، أن يغمى عليها فجأةً، فتسقط على الأرض مختلجةً، ثم تغيب شاخصة العينين. قال الطبيب إنه داء الصرع. وحين تفيق، تطمئننا قائلةً: «لا داعي للقلق عليّ. يقع لي هذا غالباً من غير أن أشعر. إنه بإيعاز من فوق، إنه من عند الله، ولا رادّ

لمشيئته. الأطباء أنفسهم متفقون على أن لا علاج لهذه الحال. يجب أن أتركها تمرّ. في البدء، كان أبنائي يخافون عليّ، معتقدين أنني أموت. وبعد ذلك، أَلِفُوا هذه الحال، حيث بدأتُ أسقط من غير أن يهتموا بذلك. لا بأس عليّ إذن. أنا فقط أحتاج إلى بعض الراحة أو إلى الذهاب إلى مكة. لكن... هل يمكن لي أن أذهب إلى مكة من غير أن يكون هو معي؟ لن أستطيع أبداً. لقد فعلنا دائماً كل شيء يداً في يد. لم نتخاصم أبداً ولا اختلفنا مرة واحدة. كنت أفعل ما يريد وكان يفعل ما أريد. كان بيننا وئام تامّ، كأننا ذات واحدة. الحق أنني لا أستطيع أن أعيش بدونه، على رغم أن أبنائي يحيطون بي ويعتنون بي. لكن... يجب أن أحاول أن أنسى وأن أتظاهر بالحياة».

تتذكّر أمي أن ابنتها بدأت تنتابها باستمرار أحوال غريبة: «تفاقمت حالها بعد موت زوجها المسكين. كان يحبني كما لو كنت أمه. رجل طيب وسخيّ ومستقيم، لكنه متشدد متزمت. إذا قال لا، فلا أحد يقنعه بتغيير رأيه. كان موته رزيّة عظمى. كُتِبَ عليه أن يموت توّاً بعد أن ارتطمت بسيارته شاحنةٌ خرجتْ فجأةً من الصف... لو كان وافق على فكرة تأجيل السفر إلى الغد لكانت الشاحنة سترتطم بسيارة أخرى. يا ربي سامحني. موته بهذه الطريقة المفاجئة الغاشمة كان مكتوباً عليه منذ يوم ولادته. كان متصلّباً عنيداً. لو استمع إليّ لَمَا مات. يا ربي اغفر لي زلل لساني. أنا أخرف. كل شيء بيد الله، الحياة والموت والفرح والدموع... كل شيء... نحن لا شيء في هذه الدنيا.

يجب عليّ أن أصلّي الآن. لم أَتَيَمَّمْ بعد. أين هي حجرة التيمّم؟ يُعَرُّونَنِي وأنا بعد حية! حتى الأخرى سرقت مني حَلَقَتَيْ أُذُنَيَّ الذهبيتين وكذا سلسلة عنقي المجوهرة. ما أفظع طمع بني آدم. أسأل الله أن يعطينا كثيراً من رحمته وخيراته حتى لا نكون سواقط... ماذا كنت أقول؟ نعم... أتذكّر الآن، إن أمي في فاس وترفض أن تجيء لزيارتي. لكن، أين نحن؟ في أي مدينة نسكن؟ تقول يا ولدي إننا في طنجة. لكن طنجة مدينة تنتمي إلى زمان آخر، حين كنت لم أتزوج بعد... إنني أخرج وأدخل في الكلام! أمي تَخَلَّتْ عني. أنا أيضاً ابنتها، لكنها تحب البقاء عند أختي الصغرى. فهي دائماً تفضل أمينة عليّ. زوجها غنيّ. إنها تهملني رغم أنني أكبر أمينة بسنوات. هذا سلوك قبيح».

ظلت طوال اليوم تنادي ابنتها «يْمَّا».

تتعرّف أمي عليّ في التلفون بسهولة. لعل الصوتَ أرسخُ في الذاكرة من الصورة. لكن يحدث لها ألاّ تفرّق بيني وبين أخي. قالت لي مرة إن صوتي تغيّر: «أصبح لك صوتُ رجلٍ. كَبُرْتَ أنت بسرعة يا صغيري، يا آخر عنقود في كرمتي. أنا أحبّ جميع أبنائي، لكنك الأعزّ عندي. هكذا هي الأشياء. لا أعرف لهذا سبباً. لا تؤاخذني يا ولدي. متى ستأتي لزيارتي؟ خذ حذرك وأنت تمشي، فلا تنسَ أنك ما زلت صغيراً!».

ها قد أصبحتُ الآن صغيراً في عينيها. ما زلتُ أنا ذلك الصبيّ الذي كانت تعزّه في فاس حين كنتُ مريضاً، فكان جسدي يضمر بسرعة يوماً بعد يوم. ها هي الآن تنكفئ إلى زمان ولّى، حين كانت تخاف أن تفقدني بسبب مرض غير

معروف. أقول لها إن عمري تجاوز الخمسين، وإن لي أربعة أبناء، وإنها لا شك لا تفرّق بيني وبين أحد أحفادها. لا تصدّقني تماماً: «قُلْهَا إذن... قُلْ إنني أصبحتُ حمقاء وإنّ عقلي ضربته تلفة... قل إنني بدأت أخرف... قل أي شيء... ماذا تنتظر؟ وإذا عدمتَ الجرأة، فاكتفِ بالإشارة إذا كنتَ موافقاً... من يدري، ربما أنت محقّ... فأنا أهذي... والسبب هو هذه الأدوية التي تُصلح وتُفسد في الوقت نفسه... أنت إذن لست طفلي الصغير، ونحن لم نعد نسكن في فاس. لكن... ما هذه الدار الجديدة حيث أنا الآن؟ إنني لا أعرفها. هيّا... أرجعني إلى داري في فاس. الله يستر إذا كنت تنوي أن تتركني هنا».

عادت أختي إلى منزلها بفاس. نفد صبرها، فلم تعد قادرة على الاعتناء بأمها. أتفهّم حالها وأوصيها برعاية صحتها. تقول لي كل شيء بيد الله. أوافقها على ذلك وأطرق رأسي. فما الذي يستطيعه المرء مع أشخاص يؤمنون بالقضاء والقدر ويعتقدون بأن كل شيء مكتوب سلفاً وبأننا لسنا في هذه الدنيا إلا لنعيش ما قدّره الله علينا؟ أمي أقلّ إيماناً بالقضاء والقدر من أختي. فهي على يقين من أن الإنسان مُسَيَّرٌ غيرُ مُخَيَّرٍ، لكنها تؤمن بأنّ علينا ألاّ نجمع أيدينا وننتظر بكل سلبية أن تحلّ بنا الأشياء.

[15]

هذا الصباح، مرّ طبيب القلب ليعاين حالتها. طلب مني أن أساعده على رفعها ليمكن له فحصها. وزنها خفيف. حين انحنيتُ، لمحتُ نهدها الأيسر. جلدة مدعوكة رخوة خاوية. أشحتُ عنها وجهي، نادماً على رؤية نهدها. كان يجدر بي ألاّ أبقى في الغرفة. أذكر أن أمي كان لها صدر جميل. هذه إحدى أجمل ذكريات طفولتي. كنّا نسكن في فاس. كنت ألعب على السطح حين فاجأتني أمي بدخولها. كانت تبحث عني، ظانّةً أنني تسلّلتُ خارج الدار. ترتدي قميصاً داخليّاً رقيقاً يشفّ عمّا تحته. فرأيت تماماً نهديها الرائعين. كان عمري خمس أو ست سنوات. ضمّتني إلى صدرها وقبّلت رأسي. فأحسستُ بنهديها فوق عينيّ. التصقتُ بهما، يغمرني شعور بالسكينة والوداعة.

قيمة هذه الذكرى في نفسي أكبر من قيمة تلك الذكريات التي راكمتُها عن الحمّام البلدي. صحيح أنني رأيتُ أمي عاريةً مرّاتٍ عديدة. لكن ذلك كان في ظلمة الحمّام ووسط بخار الماء الساخن. كانت هناك نساء أخريات وأشكال أخرى تستحوذ عليّ

في نومي. كوابيس كثيرة كنتُ أحسّ فيها برأسي مدهوساً بين نهدين هائلين، أو بجسدي الهشّ محبوساً بين فخذين ثقيلين لَزِجين. لا... ليست جميلة ذكرياتي عن الحمّام البلدي الذي كانت أمي تصطحبني إليه. شعرتُ بالانفراج والراحة يوم منعتني الجلاّسةُ، حارسةُ الحمّام، من الدخول. فاحتجّت أمي دون جدوى. قالت لها الجلاّسة إنني بلغتُ من الكبر حدّاً لم يعد يسمح لي بالاستحمام مع النساء. فنظراتي إليهنّ لم تعد بريئة. هكذا كنتُ مضطرّاً إلى البقاء عند باب الحمّام، منتظراً خروج أمي، ناظراً إلى النساء منصرفات وروائح الصابون والحنّاء والعطر تفوح منهنّ.

أمي لا تتزيّن بمستحضرات التجميل إلا لماماً. لم تشتر أحمر الشفاه قط. حين كانت صحتها جيدة، كانت تستعمل مادة من صنع بلدي تُوَرِّدُ خدّيها ببهاء. أبداً لم تعرف مساحيق تجميل الوجه ولا المراهم المزيلة للتجاعيد، فأحرى جراحة التجميل. بل إنها لم تسمع قط بهذه الأشياء. قيل لها مرةً إن إحدى بنات أختها أصلح لها طبيب جرّاح أنفها ونهديها. فانفجرت ضاحكة، متوسّلةً إلى الله أن يغفر لها زلّتها الشنيعة. كيف جرؤت على تغيير صورتها التي خلقها الله عليها؟ الله يُبقي الستر... هذه بدعة! ثم أضافت: فهمتُ الآن لماذا شاخت بسرعة! إنه عقاب الله!

تعرف أمي أن جسدها لم يستطع مقاومة المرض. لكنها لم تَشْكُ أبداً من حالها ولا تذمّرتْ. لا تعبّر عن حنينها إلى زمان شبابها. لا تندم على ما فات. كل ما تشعر به هو بعض العياء

والسأم اللّذين تقتضيهما ضرورة التكيف مع جسد سقيم واهن ومع بصر يضعف يوماً تلو آخر. لا تعرف تاريخ ميلادها، ومع ذلك لا تخفي أنها هرمت. أنا الآن عجوز لا يفصلني عن القبر سوى مقدار شبر أو شبرين. أمر طبيعي! فهذا مآلنا جميعاً الذي لا يخيفني، كل ما في الأمر أنني مللتُ من الانتظار. سلوايَ هي حين تكونون محيطين بي. أسأل الله أن يُميتني في حياتكم».

حاولتُ أحياناً أن أحسب سنوات عمرها مستعيناً ببعض الأدلة والأحداث التاريخية. أما هي، فلا تحتفظ عن زواجها الأول، وهي بعدُ صبية، إلا بذكرى غامضة. تستخفّ بالوقت الذي يمرّ بسرعة. تقول إن ما تذكره هو أنها ببساطة تفرّ من زوجها فتختبئ بدار والدها لتلعب بالدمى مع بنات خالتها. فكان زوجها يأتي ليلاً لإرجاعها من غير أن يجرؤ على توبيخها. لعل عمرها كان خمس عشرة سنة. كان بلا ريب أكبر منها. لم يتعرّف أحدهما على الآخر إلاّ ليلة العرس. هكذا كانت العادة. فمن قلة الحياء أن ينظر الرجل إلى فتاة أو يكلّمها قبل أن يعقد زواجه عليها. لا أحد كان يتجاسر على مخالفة هذا التقليد. ولا واحدة من بنات العائلة اللواتي في سنّها تمرّدت. أذكر، وأنا بعدُ طفل صغير، تلك اللقاءات التي كانت النساء يعقدنها بعد العصر في دارنا الكبرى بفاس. كنَّ يجتمعن حول صينية الشاي والحلويات. يضحكن ويتمازحن ويتداعبن، بل ويتلفّظن بكلمات ماجنة، ناسيات أنني موجود بينهنّ، فكنتُ أتظاهر بالنوم. أحياناً كان بعضهنّ يتباهى بطول ذكور أزواجهنّ. وكان بعضهنّ الآخر يقفن ويشرعن في الرقص. أمي كانت تأبى

مشاركتهنّ حياءً. بخلاف أختها الصغرى التي كانت وقحة. لن أنسى أبداً أنها، ذات مرة، أخذتْ عجينة اللوز، المستعملة في تحضير حلوى كعب الغزال، وصنعتْ بها ذَكَرَ رجلٍ غليظاً بخصيتيه، وحَرْبَلَتْهُ في الطحين، ثم أرسلته إلى الفرن. كانت النساء يتخاطفنه ليأكلنه، فكنت أضحك برفق في زاويتي.

أحببتُ دائماً أن أجلس إلى جانب أمي وأنصت إليها. من قبل، كانت تحدثني عن حياتها وشبابها وعن صعوبات الحياة الزوجية. لم تكن تحقد على أبي، بل تتأسف فقط على برودته وقسوته نحوها، فتحسد قليلاً أختها على زوجها الذي يعاملها بودّ وحنان. لكنها سرعان ما كانت تستغفر الله كأنها أخطأت في حقه، وتسأله أن يعينها على تحمّل ما لا يسرّ في الحياة: يا ربي... عصيتُ أوامرك. وسوس لي الشيطان أن أحسد أختي فاتّبعته. سامحني. اصفح عن هذه المرأة، بنت واحد من أوليائك الصالحين. أبداً لم تفتني واحدة من الصلوات الخمس. ألتمس عفوك ورضاك. عادتي أن أحترس، أن أصون لساني وأن أحاذر الأفكار القبيحة. لكنني هذه المرة...

واليوم، حين أجلس بالقرب منها، نتحادث بضع دقائق، ثم يسود الصمت بيننا. تغفو قليلاً. أتنحنح لأوقظها. فتفتح عينيها ناسيةً أننا كنّا نثرثر. من جديد تسألني عن أبنائي وعملي ومقر سكناي، وعن الوقت الذي سنجتمع فيه جميعنا حولها. ثم تعود إلى غفوتها. أنظر إليها وأنا أقاوم حزناً رهيباً. تغيب. تموت ببطء. أتابع تنفّسها بعيني. أعرف أن قلبها يمكن أن يتوقف في أية لحظة. ربما في نومها. كثيراً ما حدثتني عن هذه الميتة

الرحيمة. إحدى بنات خالتها أسلمت الروح مباشرة بعد أدائها صلاة العشاء. تقول إنها امرأة عفيفة فاضلة، ناداها الله إليه في سكينة الليل من غير عذاب. جدتها كذلك ماتت وهي نائمة. كانت جنازتها شبيهة بحفل باذخ. تتمنّى أمي أن تفارق الحياة بالطريقة نفسها.

الألم، فتك المرض بالجسد، الاحتضار، بطء الوقت، ثقل الأشياء: هذا أكثر ما تخشاه أمي. تقول: كل شيء من عند الله، هذه إرادته، ما أنا إلاّ عبد ضعيف لا حول له ولا قوة. أصلّي وأقرأ آيات الكرسي وأحاديث نبيّنا محمد عليه السلام وأنتظر بصبر. لكنني لا أطيق الألم. جلدي يؤلمني. جميع أعضائي تؤلمني. وفوق كل هذا، هناك الملل تبّاً له!

الملل. . . هوذا عدوّها الغاشم، الذي لا يد لله فيه! تملّ أمي لأنها لا تعرف القراءة والكتابة. أتذكّر والدة صديقي رولان التي احتفلت مؤخراً بعيد ميلادها الثاني والتسعين. فهي لا تفوتها المشاركة في أي مباراة للبريدج. وفي العام الماضي، أحسّت بتوعّك عابر في سفح الأهرام بمصر. كان ذلك بسبب الحرارة وصدمة الانفعال. وهي إلى اليوم ما زالت تقرأ وتتابع برامج التلفزيون. حين تتلفن لابنها لتحادثه ولا يرد عليها، تعرف أنه خلد إلى النوم باكراً، ما يعني أنه لا يشاهد البرامج الثقافية التي يبثّها التلفزيون في ساعة متأخرة من الليل. فتعاتبه على ذلك وهي تضحك بلطف.

حكيتُ يوماً لأمي كل ما تعوَّدت والدة صديقي أن تفعله في حياتها على رغم تخطّيها عامها التسعين، فلم يدهشها ما سمعته.

هذا شيء طبيعي. فهؤلاء أناس عرفوا كيف يعيشون، فلم يفنوا حياتهم في تهييء الأطعمة وتنظيف الملابس وكنس المساكن. من قبل، لم تكن لدينا أية آلة منزلية تعمل بالكهرباء. كنت أفعل كل شيء بيديّ هاتين. صحيح أنني لم أعدم خادمات يساعدنني، لكنهنّ كُنَّ يثرن أعصابي. لا شك في أن أمّ صديقك كانت لديها كل وسائل الرغد والراحة الحديثة. أما نحن، فحالتنا على قدّ الحال. والدك كان يعوزه حسّ التجارة، ومع ذلك، كان يعاند في تعاطي مهن غير مربحة. كان يقول: المهنة المقبلة ستدرّ عليّ ربحاً مؤكداً! كنّا نعيش بالحدّ الأدنى للمعيشة!

لعل والدة رولان كانت لديها معاناة مختلفة مع نوع آخر من المشاكل!

أبداً لم تر أمي رجلاً آخر غير زوجها. مثلها مثل أختي وخالتي. هكذا تعوّدن وهكذا تربّين. الزواج في العائلة يعني الاقتران بالآخر مدى الحياة. فلا وجود لشيء اسمه الطلاق. كما لم يحدث أن تزوج رجل على زوجته الأولى. ذات مرة، سمعتْ أمي أن أحد أصدقاء والدي ضبط زوجته متلبّسةً بخيانته مع عشيقها، فطلّقها من غير رجعة ولا نفقة. أرعبتها جرأة هذه المرأة التي خانت زوجها، فظلت تتكلم عنها بإشفاق. لم تستسغ زلّتها ولا عدمَ تَحَسُّبِهَا للعواقب التي تنتظرها. كان هذا يتجاوز فهمها.

يعتقد صديقي رولان أن العلاقة مع الوالدين تفسدها حتماً النزاعات وتعارض المصالح. يحدثني عن أمه بحرارة. لكنه يكتب عنها في رسائله بوعي ونفاذ بصيرة يقاربان القسوة. يقول

عنها في إحدى رسائله إنه زارها مرةً في دار للعجزة بمدينة لوزان، فوجدها «امرأةً أخرى، عجوزاً متقلّبة الأحوال ولا تكفّ عن النواح، فعاملتني كما لو أنني خُلِقْتُ منذ الأزل لأكون في خدمتها. ألزمتني بأن أتلفن لصديقاتها. فلا بدّ من أن يعرفن أن ابنها الغالي قد قام أخيراً بزيارتها». رأى نفسه في صورة «ابن منافق»، «قاسٍ في الكتابة» و «عطوف في الحياة اليومية».

صحيح أن يقال إن «صِلات الرحم تفسد كل شيء». لكننا نقبل أن نلعب اللعبة إلى أن نتكيّف مع هذا الجزء اللعين في كينونتنا. شخصيّاً لم أشعر أبداً بالحاجة إلى النفاق أو إلى الوقاحة والقسوة. ذلك أن أمي تجعل كل ضغينة أو عدوانية نحوها غير ذات فعالية. فنظراتها التي تكاد أن تكون متوسلة مستجدية وحاجاتها التي بدأت تقلّ لا تلجئني إلى الإشفاق المتحسّر عليها، بل تفرض عليّ أن أحبها حبّاً غير عقلاني ولامغرضاً.

أحياناً يحدث لي، وأنا أقرأ نيتشه، أن تستفزني بل أن تغيظني علاقته المتوترة الصاخبة بأخته وأمه. يقول إنه ندم على تصوّره لمفهوم «العود الأبدي» لأنه قد يبرر لهاتين «الآلتين الجهنميّتين» أن تعودا إلى الظهور. من السهل أن نتصور نيتشه مجهول الأم وبدون عائلة، يعيش منفرداً في خلوة برأس جبل على صورة زرادشت. لكنه، حين يكتئب بسبب غيابها، يبعث لها رسائل يطلب منها فيها نقانق مثل تلك التي كانت تُطعمه إيّاها وهو بعدُ طفل صغير!

أنا لا أبعث رسائل إلى أمي. أحبّ أن أحادثها. ولا أستطيع

أن أطلب منها أن تطهو لي طاجين عدس أو فول بالزيت البلدي كما كانت تتقنه قبل سنوات.

أمي أصبحت أيضاً «متقلبة الأحوال ولا تكفّ عن النواح» بسبب المرض والملل والوحدة. ليست جائرة مستبدة، لكنها تتظاهر بأن لها سلطةً على كلثوم. تلحّ وتكرّر وتُتعب كل من يجالسونها. يحدث لها أن تنتبه إلى ذلك فتطلب منهم ألاّ يعيروا أي اهتمام لهذه «الأشياء الصغيرة».

[16]

أشياءُ الحياة الصغيرةُ هذه بدأت تكبر يوماً تلو آخر لتصبح مصدر ريبة وإزعاج: فهي تارة تطلب إحضار دَرَّامَةٍ متخصصة في قصّ أظافر الرجلين وتسويتها وصبغها، وتارة أخرى تأمر كلثوم أن تحكّ ظهرها دون عنف أو خشونة. مرة تريد أن تذهب إلى الحمّام من غير أن تتكئ على ذراعها، ومرة أخرى تطلب مني بعض المال ثم ترميه في حوض المرحاض. طوراً تطالب باسترداد المجوهرات التي سُرقت منها لتضعها حول عنقها لأن اليوم يوم عيد، وطوراً آخر تريد أن تخرج وتتجول بل وتجري!

لم تَصُمْ أمي منذ أكثر من عشرين عاماً. أطباؤها عانوا لإقناعها بعدم صوم رمضان. تشعر بذنب فادح تقول إنها ستكفّر عنه حين ستبرأ من مرضها. تسألني كيف أقضي رمضان في فرنسا، فأشرح لها أن هذا البلد يعوزه ذلك الجو الديني والروحاني الذي يسعف على الصوم، فلا يصدمها جوابي. حين يصادف وجودي بالمغرب شهر رمضان ويحدث لي ألاّ أحترم قواعد الصيام بصرامة، فإنها لا تعاتبني على ذلك، قائلةً: «هذا أمر بينك وبين الذي خلقك». أنا أحب روح التسامح هذه.

وَالِدَايَ لم يجبرانا أبداً على تأدية الفرائض الدينية. ما زلت أذكر فصول الشتاء في فاس. كان علينا أن نستيقظ باكراً ونخرج لجلب الماء من البئر. أن نتوضّأ بالماء البارد كان بالنسبة لنا محنة قاسية. كنت أفزع من تلك الصباحات القارسة. ذات يوم جمعنا والدي، أخي وأنا، وقال لنا بهدوء وأناة: «الصلاة أحد أركان الإسلام الخمسة. فأداء الصلوات الخمس كل يوم فريضة على كل مسلم. من الممكن جمعها وأداؤها في نهاية النهار. هذا ليس عقاباً. إذا لم تشعرا بالحاجة إلى الصلاة، فلا تصلّيا. لا تتظاهرا بالصلاة، فلا فائدة في ذلك. في يوم القيامة، سيكون كل واحد منا في مواجهة ضميره ومسؤولاً عن أفعاله أمام خالقه تعالى. ليقرّر إذن كل واحد ما يشاء، فلن أرغمكما أبداً على أن تكونا مؤمنين. لقد قمتُ بواجبي إذ أريتكما الطريق المستقيم. وفي كل الأحوال، فالإسلام دين يسر لا دين عسر. فيكفي المرءَ، ليكون مسلماً حقّاً، أن يؤمن بالله لا شريك له وبرسوله محمد آخر الأنبياء، وألاّ يكذب ولا يسرق ولا يقتل النفس إلاّ بالحق ولا يتعمّد الإساءة للآخرين، وأن يحسن معاملة والديه والأشخاص الذين يكبرونه سنّاً. أما الباقي، فأمر يخص كل واحد منّا. فالصلاة والصوم وأداء فريضة الحجّ، كل هذه أمور لا تخصّ الناس، إنها بينك وبين ربّك. أنا مثلاً لا أرغب في زيارة مكة ليستغلّني أناس لا ذمّة لهم أو ليدوسني عمالقة أفارقة بأقدامهم. ومع ذلك، فأنا مسلم وليس لي ما آخذه على نفسي! لَكُمَا النظر. فلا إكراه في الدين الإسلامي. هذا ما قاله النبي... افعلا ما يأمركما ضميركما بفعله».

على أثر ذلك، أحسستُ أنني تخلّصتُ من عبء ثقيل. لن أجد أبداً ما يكفي من العبارات لأشكر والدي على معاملته لي كما لو كنتُ رجلاً. كان عمري آنذاك سبع عشرة سنة تقريباً ونحن بعدُ في فاس. لم نخبر أمنا بِمَا قاله لنا والدنا. لكنها لم تكن أقل تسامحاً منه.

القلق إحساس ثابت لدى عائلتي. لا أدري سبب ذلك. فالآباء يورثونه للأبناء منذ عدة أجيال. الخوف. فكرة الضياع. وسواس حوادث السير. حياتنا التي يدمّرها القلق. لم أعد أعرف من الذي يقلق أكثر من الآخر، أهو أبي أم أمي. لكنني أظن أن أبي هو الذي نقل إلى أمي العدوى من هذه الحالة الوجودية. فما زالت أمي إلى اليوم ترجف خوفاً ويصفرّ لونها حين أعود إلى الدار متأخّراً بساعة عن موعد الغداء. على الفور تقول إن مصيبة ما حلّت بي. حين كانت في تمام عافيتها، كانت تترصد عودتي من النافذة أو ترتدي جلبابها بسرعة وتخرج إلى الشارع، كأنها بهذا تستعجل رؤيتي. جميع أمّهات الحوض المتوسّطي قلقات، لكن أمّي أكثرهنّ قلقاً على الإطلاق. فكنت لا أطيق شدة تعلّقها بي ولا إفراطها في الحرص على الاطمئنان عليّ. كان ذلك يزعجني ويثير أعصابي. لكنني سرعان ما كنت أندم، فأعاتب نفسي على الإساءة لأمي المسكينة بهذه الطريقة غير اللائقة. كانت تقول لي بعد أن يخفّ قلقها: «سترى حين سيكون لك أبناء. أنا واثقة من أنّ كبدك لن تتحمّل ما تتحمّله كبدي!». وحين تستعيد حالتها الطبيعية، أي هدوءها وصفاءها، تضيف: «أعرف أن هذا يغيظك، لكنّ ربّي هكذا أرادني أن

أكون، فهو الذي أعطاني كبداً رهيفةً. لا أستطيع شيئاً ضد هذه الحالة ولا أظن أنني قادرة على تبديلها في يوم من الأيام. أنا لا أستطيع أن أنام حين يكون أحدكم خارج الدار، لا أعرف أين هو ولا ماذا يفعل. هكذا أنا، كبدي ضعيفة تتأثر بسرعة. هذا غير معقول. قلبي يرتجف بقوة بمجرّد أن أفكّر فيكم. فالحياة مليئة بالطوارئ والحوادث. لذلك، عليك أن تعذرني. ستفهم ما أقصد مع الوقت!».

لكنني لم أفهم شيئاً مع الوقت ولا قبلتُ تعلّقها الخانق بي. مع أبنائي، أحاول ألاّ أتصرّف بالطريقة نفسها. بيد أنني أعترف أن والديّ نقلا إليّ جرثومة القلق ونفاد الصبر.

كنتُ في السادسة عشرة حين حضرتُ أول اجتماع سياسي. اختلينا في منزل أحد الأصدقاء لتكوين نقابة للتلاميذ هدفها النضال ضد سياسة القمع بالمغرب. حين رجعتُ إلى الدار حوالي الثانية صباحاً، وجدتهما بانتظاري في الباب، أبي مهدّداً وأمي باكية. قبل أن أصغي إلى توبيخ والدي، قبّلتُ يدي والدتي وأنا ألتمس عفوها: «كنتُ في اجتماع سياسي، سنشنّ إضرابات حتى يكفّ البوليس عن ضربنا!» كانا مشدوهين مذعورين. «لا اجتماع من الآن ولا سياسة!» صرخ والدي في وجهي. إنه يعرف جيداً ما يستطيعه البوليس المغربي. ذات صيف مضى، لمّا رجعنا من فترة عطلة عند أبناء خالتي بالدار البيضاء، وجدنا دارنا وقد تعرّضت لسطو. طلب منّا والدي بهدوء وحزم ألاّ نلمس أي شيء. فمن الضروري أن يأتي رجال الشرطة ليلتقطوا البصمات ويعاينوا آثار تكسير الباب. المسكين! يخال نفسه في

فيلم بوليسي أمريكي! حضر رجال الشرطة وأخذوا معهم والدي على مرأى من الجيران. فخجل لذلك. عاملوه كما لو كان هو اللص. تركوه ينتظر في أحد ممرّات المخفر. وبعد ساعات، قام شرطيّ لئيم باستنطاقه، فأرهقه بأسئلة كثيرة حول أبنائه وتجارته وعاداته، لدرجة أن والدي انتفض واقفاً وقال بحسّ دعابته المعهود فيه: أنا متأسف أيها السادة، أحلف لكم أن هذا لن يتكرّر، إنها المرة الأخيرة. دعوني الآن أنصرف لحالي.

هكذا لم يتمّ تقديم أية شكوى، فقال لنا والدي بوقار: في هذا البلد، الطرف الشاكي، الذي وقع الاعتداء عليه أو سرقة متاعه، هو الذي تتمّ محاكمته. أما اللص، فيقتسم الغنيمة مع أصدقائه في البوليس. احترزوا إذن أن تقعوا في مصائدهم، فهم أناس بدون مبادئ ولا أخلاق. هذا هو حالنا. فنحن لسنا في السويد!

بعد ذلك، حين سمعني والداي أتحدث عن اجتماع سياسي، رَأَيَا شبح البوليس ينقضّ على الدار.

هذا الحدث سيكون له أثر في تقرير ما سيقع من بعد. فأمّي تؤرّخ ظهور أعراض ارتفاع الضغط الدموي ومرض السكر لديها بهذه الفترة. كان مجيء سيارة جيب تابعة لرجال الدرك إلى الدار ذات صباح باكر واعتقالي ثم إرسالي إلى معسكر تأديب تابع للجيش ـ صدمةً نفسيةً كبرى في حياتها. كان عمري آنذاك اثنين وعشرين عاماً، ولم أكن بعدُ قد أنهيتُ دراستي. الشهور الثمانية عشر التي قضيتُها في المعسكر جعلت مرضها يتفاقم. ما زالت إلى اليوم تقول هذا وتعتقد بأنّ ما حدث كُتِبَ علينا أن يحدث.

لكنّ الله كان يمكنه أن يجنّبنا إيّاه. ذاكرتها المترنحة لا تفرّق بين هذا الحدث وأحداث أخرى مشؤومة. ومع ذلك، فهي تتذكر أنهم أخذوا منها ابنها واحتفظوا به طوال شهور عديدة. تخلط الشهور والأعوام. الجندارمية... نعم يا ولدي، هؤلاء البهائم، أتلفوا صحتي. أنت... كنت تقول لي لا داعي للقلق، فليس في الأمر أية خطورة... لكن الجندارمية كانت لهم نظرات مجرمين... أخذوك مني، فلم أعد أعرف ماذا أفعل في الدار وحدي... كنت أدور في مكاني كالخمقاء. الحقيقة أنني جُنِنْتُ... أبوك جُنَّ أيضاً... لم نكن نعرف أين أخفوك... كنت أفكّر فيك طوال الوقت وأعرف أنك تتألّم من الجوع والظلم... لكن الله وحده قادر على أن ينصفنا وينتقم منهم. كنت أفكر في ولد جارنا، المسكين، أخذوه في سيارة جيب، ومنذئذ لم ير له والداه أثراً. قال لهما البوليس إنّ ولدكما فرّ وأنه ربما يعيش في الجزائر أو في إسبانيا. لا شك في أنه فعل ما جعله يتحمّل مسؤولية نفسه بنفسه ويهرب. هما الآن مريضان لا يعرفان أي شيء عن مصير ولدهما.

لا أذكر أنني جاملت يوماً أمّي أو هنّأتها على طيب أكلاتها أو على أناقتها. وكانت غالباً ما تعيب علينا ذلك، خاصة في أثناء وجبات الأكل. كانت تودّ أن تسمع كلمات لطيفة من نوع: «الله يعطيك الصحة ويحفظك لنا حتى تبقى يداك تدلّعنا بطواجينك!» أو: «أنتِ أمهر طباخة في الدنيا». حين كنّا، أخي وأنا، نحلّ ضيفين على عمّي أو على بعض الأصدقاء، كانت أمي تحرص على معرفة ما أكلناه بتفصيل وعلى أن نخبرها برأينا

فيه، محاولةً بذلك استدراجنا للثناء على طبخها. أعترف أننا كنا شحيحين فيما يتعلق بكلمات الودّ والحنان. بل إن هذا الشحّ كان هو القاعدة: فلا يجوز إبداء المشاعر علانيةً ولا البوح جهاراً بانفعالات النفس. فأنا لا أتذكّر أنني سمعت مرةً والديّ يتكلمان عن الحب. ففي عائلتنا لا تُقال عبارة «أنا أحبّك» ولا تُتبادل القبلاتُ أمام الآخرين ولا يُكشف عن الحياة الحميمة أمام الأبناء. إنها مسألة حياء واحترام.

[17]

مرّ شهر من غير أن أرى أمي. الشهر لديها مدة غير قصيرة. قالت لي ذلك البارحة في التلفون: أنت لا تنتبه إلى ذلك، لم تأت لزيارتي منذ عهد طويل. سأموت من غير أن أرى أبناءك. أعرف أنهم كبروا. لكن... قل لي... ابنتك البكر... هل تعيش معكم أم رحلت لتعيش في مكان آخر؟ متى ستأتي؟ بعد رمضان؟ الله الله يا ولدي، ما أطول هذه المدة! لا... زرني قبل رمضان، فقط لفترة قصيرة... أنا أموت بحبّك. أعرف أن هذا يعذبني. ثم إنني أقنط... لا شيء عندي أفعله... أنا هنا، منزوية في ركن من الدار، مثل كومة عظام لا تتحرك. أمك المسكينة حمقاء، هذا ما تقوله دون شك... لا عليك، قل ما تشاء، هذا لا يزعجني... هو صحيح بعض الشيء، ليس دائماً... يحدث لي فعلاً أن أفقد حسّ الزمن وأن أخلط الأمور بعضها ببعض. الأدوية ليست كلها صديقتي، إنها صديقة مزوّرة... تنفعني وتضرّني. تعالجني من جهة وتدمّرني من جهة أخرى. إذن... متى ستأتي؟ غداً؟ لا؟ لماذا يا ولدي؟ أنت بعيد عنّي... آه... لا تستطيع... عندك شغل كثير.

لكن... ما هو شغلك؟ سبق لك أن قلت لي ما هو شغلك، لكنني أنسى. النسيان هو عدوّي الأساس... كان أبوك يعيّرني بمرض النسيان... يقول لي هذا ليستفزّني ويثير أعصابي... يطلب مني أن أذكّره بالأكلة التي أكلناها البارحة فلا تسعفني الذاكرة... تطلب مني أن أرضى عنك! أنا راضية عنك وعن أخويك وعن أختك، راضية عنكم جميعاً. ماذا؟ تحتاج إلى مزيد من رضاي، لأنك في عيون الناس، يحسدونك ويغارون منك... ما أخبثهم! لا يحبّون الناس الذين يحالفهم النجاح في عملهم، يرمون عليهم العين اللاّمة. لا تخف يا ولدي... أنا هنا، دائماً أرعاك، الله يحفظك لي وينجيك من كل الدسائس والأذيّات. أعرف وأرى بقلبي أن عفاريت سوداً يحومون حولك مثل النسور، يريدون الإساءة إليك. أقول لك إنهم يضيّعون وقتهم... فأنت حفيد رجل قدّيس، فلن يستطيعوا إيذاءك... دعهم يموتوا بسمّهم، أنت فوق هذه الأشياء... أنا لا أعرف الخباثة، لم أؤذ في حياتي أحداً. هكذا أنا... هذه طبيعتي... أنا عاجزة عن التفكير في إيذاء أحد ما. لكن... هناك أشخاص مجبولون على الشر... فيجب عليك أن تعرف مع من أنت... يجب عليك أن تحترس... لكن الإنسان، حين يكون طيّباً، لا يحترس... هذا ما قلته لأبيك قبل قليل. هل تعرف... عاد وقتَ الغداء بلحيته البيضاء، ضمّني إلى صدره وهمس في أذني. الدار مليئة بالضيوف. أتساءل لماذا جاؤوا جميعاً عندنا في وقت واحد... أقول لك احترس من أولئك الذين يريدون أن يستغلّوك... لكنهم لن ينجحوا... كن مطمئنّاً يا ولدي،

فأدعيتي تحرسك أينما كنت. . . إنها صادرة من أعماق قلبي. . . أنت تستحقها. . . لكن، كن حذراً. الله حباك بموهبة. . . أصابعك كنز. . . ستصادف الخير أينما وضعتها. . . فعلى يديك يتحول الحجر إلى ذهب، والذهب إلى حبّ. . . وأنت. . . بسيطاً طيباً. . . أنت. . . ولدي. . . ولدي الذي يحنّ عليّ كثيراً. لقد رحل والدي. . . النبي أخذه معه. . . فاس الآن مدينة رائعة. . . طنجة؟ أين توجد هذه الطنجة؟ لا. . . أقول لك إني في فاس مع والدي، ألهو بعلب الدواء التي تركها سيدي محمد. هل تعرف. . . لقد مات المسكين. . . فارق الحياة من غير أن يرى ابنته. . .

كثيراً ما ينزعج إخوتي. يعرفون أن آخر الأبناء يكون في الغالب ذا حظوة ومكانة. حين كنّا صغاراً، لم تكن أمي تفضل هذا على ذاك. كانت تحبّنا جميعاً من غير تمييز. في الصباح، قبل أن نذهب إلى المدرسة، أخي وأنا، تدسّ في جيب كل واحد منا عشر حبّات من الزبيب. تقول إنها تقوّي الذكاء. على كل حال، يقال إن الزبيب الجيد يغذّي العقل، فإذا أكلتما منه قليلاً كل صباح، فالمؤكد أنكما لن تكونا بليدين أبداً. وفوق كل هذا، فأنتما لا يعوزكما شيء. ثم إن الْقِرْدَةَ تحبّ صغارها مهما تكن قباحتهم. أما أنتما، فأنا أحبكما وأنتما في غاية الجمال. أستودعكما في يدي الله، اجتهدا كثيراً لتنجحا في جميع الامتحانات.

لدى عودتنا من المدرسة، نصيح قبل أن نصل إلى باب الدار: «نحن جائعان!». حاولت أمي أن تقنعنا مرّات عديدة

بالعدول عن الصراخ في الدرب المؤدي إلى الدار. هي متيقّنة بأن الجيران يعلّقون على ذلك بقولهم مثلاً إن هذه الأسرة تجوّع أبناءها، لا تعطيهم ما يكفي من الأكل. إنهم أناس بخلاء أو فقراء. الواقع أن هؤلاء الجيران لم يكونوا يقولون أي شيء بما أن أبناءهم كانوا مثلنا، وفي الوقت نفسه، يصيحون من الدرب: «نحن جائعون!». لكن أمي تؤثر دائماً الحشمة والكتمان. ولعلها لهذا السبب لا ترفع صوتها. فهي لا تصرخ أبداً.

أمّي لا تحبّ الألوان الصارخة ولا العطور القوية. تحب الضياء والصفاء والأماكن الفسيحة. تقول إن النور يوسّع القلب، والبنّيّ الداكن يعتّم الأفق، والأسود يكدّر الحياة، والصياح يبعدنا عن الناس، والرعب يقرّبنا من الموت، والأرق يسوّد باطن العين، والفلوس هي وسخ الدنيا. الله يعمّر قلوبنا بوجوده ويحجب نورُه عنّا كل شرّ... إذا أردت أن تشتري لي وشاحاً لرأسي، فاختر واحداً يكون بألوان الربيع المشمس... إياك واللون الأسود، فلم أرتد أبداً ثوباً أسود.

[18]

اليومَ رأيتُ أمي مرتديةً تْشَامِيراً أبيضْ. هي لا تحبّ هذا النوع من المنامات الطولية. لذلك، طالبت بقفاطينها الجميلة ومنصورياتها ووشاحات رأسها. فأنا لن أحملها معي إلى قبري. أفضّل أن ألبسها الآن، فقد لا أرتديها مرة أخرى. تقول لها كلثوم سألبسكِ إيّاها بعد أن أغسلك في الحمام، ثم تنسى.

لم تعد أمي مزهوّة بنفسها. أصبحت ترفض رؤية وجهها في المرآة. بيديها تسوّي الخمار فوق رأسها متنهدةً كأنّها محكوم عليها ألاّ تلبس أي شيء بعد الآن. أمدّ لها المرآة الصغيرة التي تحتفظ بها في مثبنتها. تراجعتْ ببطء إلى الوراء، ونظرتْ إلى نفسها في المرآة تبحث عن صورتها. ثم أطرقتْ رأسها كما لو كانت تهمّ بالبكاء. أعدتُ المرآة إلى مثبنتها. تتشكّى إليّ. في هذا الوقت، أشارت إليّ كلثوم بعينيها إشارات تعني أن أمّي ستعاود هذيانها المعهود. أعرف أنها رَمَتْ مرّات عديدة في حوض المرحاض أوراقاً مالية ومجوهرات. . . أعرف أنها تمزق تشاميراتها وترفض أن تضع الفُوَط الورقية بين فخذيها. لم يسبق لها أن أخبرتني بذلك. فهي، حتى في حالات هترها وخرفها،

تأخذ حذرها فتكتم عنّي حياتها الحميمة في حياء. أصبحتْ كثيرة الشكوى. هذا ليس جديداً عليّ. فهو عندها طريقة لتزجية الوقت ولقول أي شيء.

قبل أيام، وأنا مُنْحَنٍ أقبّل يدها، أمسكتْ بيدي تريد تقبيلها. قاومتُ قليلاً ثم تركتُها تفعل. أبقتْ يدي في يدها. حتى يداها أصبحتا صغيرتين! تم شرعتْ تقول بصوت بطيء رخيم: أنا مسكينة، متسوّلة، ألتقط أوراق العمر الميتة، يوم هنا، أسبوع هناك... منذ عهد طويل وأنا أجتني الساعات وأستودعها هناك في ركن الغرفة... ألا ترى معي أن الغرفة أصبحت ضيقة؟ كأنها قبر! لعلّ هذا هو الموت بعينه... فالغرفة حيث أعيش ستنهار قريباً عليّ شيئاً فشيئاً إلى أنْ تغطيني أحجارها وأتربتها. قبل قليل قلت لك إنني أتسوّل الزمن. لكن... يحدث لي أحياناً أن أرفض هذا الزمن الذي أهداني ربّي إيّاه. لم أعد ألتقط شيئاً. أنحني بحثاً عن ساعات مبعثرة فوق الأرض فلا أعثر على شيء. ضعُف بصري. لم أعد أرى الأشياء ولا الساعات. أراها، لكنها ضبابية، بعيدة وغريبة. هوذا الملل! يحتال عليّ المللُ... يكذب عليّ... يغريني بأيام كلها بذخ وزهو وضياء... لكن... لا شيء من كل هذا موجود في الواقع... هذا مع العلم بأنني لم أعد صبية ساذجة حتى يسخر مني بهذه الطريقة. ها أنت ترى يا ولدي أنني أخرج وأدخل في الكلام، وبعد ذلك أنسى كل شيء... لكن... قل لي... بالأمس حلّ شهر رمضان... أليس كذلك؟ أنا لم أعد أصوم... الطبيب منعني من ذلك... لكنني أصلّي وأسأل الله

غفرانه. . . لا آكل كثيراً، فشهيتي على قدّ الحال. . . لا تنسي أن تشتري كبش العيد. . .

لا تفرّق بين العيد الصغير، الذي يأتي في نهاية شهر رمضان، والعيد الكبير، الذي يحلّ بعده بسبعين يوماً وتُذبح فيه الأضاحي! «بالتأكيد سأشتري الكبش أَيَّمَا وسنوزّع لحمه على الفقراء».

تطيل كلثوم النظر إليّ. أفهم نظراتها المستجدية: «سأشتري لها كذلك أُضحيتها لتأكلها مع أطفالها».

تعودتُ أن أُهْدِيَ أمّي نسخةً من كل كتاب أنشره. أحمله لها فأضعه بين يديها وأقدم لها ملخّصاً عن قصته. تفتحه، وتتصفّحه مقلوباً أو مستوياً، ثم تدعو لي بالبركة. أحياناً تشرع في مناقشة بعض التفاصيل. فالكتاب بالنسبة إليها هو مثل الواقع. فلا يجوز لي تشويه الأشياء.

قبل أيام، زارتها سُمَيَّا، إحدى بنات أختها، المتزوجة من رجل ملياردير. ذات يوم، تلفنتْ لي هذه المرأة لتلقّنني دروساً في الأدب: يجب أن تكفّ عن كتابة روايات لا تمتّ للمغرب بأية صلة وعن الحديث عن الإسلام بوقاحة. الله سيعاقبك على تشويهك لديننا الحنيف. إن الأجدر بك أن تضع قلمك في خدمة الإسلام والأمة الإسلامية. كُفَّ عن كتابة حكايات لا تفيد المغرب، حكايات تعجب النصارى. إنك تخون وطنك ودينك. وفوق هذا، فأنت لا تكتب بالعربية! يجب عليك أن تشرع في تعلّم لغة القرآن وأن تضع نفسك في خدمة القضايا النبيلة، القضايا العادلة، تلك التي تدافع عن الإسلام وتفضح الكفّار

الذين لا ملة لهم ولا إيمان. إنك تقدم عن وطننا صورة قبيحة... أفلا تستحي إذن...

هذه الفتاة، التي كانت شبقةً في مراهقتها فاضطرّ والدها إلى تزويجها صغيرةً تفادياً لفضيحة محتملة، ها هي اليوم أصبحت داعيةً إسلامية تغار على الأخلاق! في كل مرة تزور أمي، تهديها مصحفاً مجلّداً وتطلب منها أن تتدخل لتقنعني بتبديل موضوع رواياتي. فَتَعِدُهَا أمّي بذلك: هل تعرف يا ولدي... ابنة خالتك سُمَيًّا أهدتني مرةً أخرى مصحفاً.. ها هو... إنه جميل... ينبغي لك أن تكتب كتاباً مثله... إنها على صواب... إذا كتبت كتاباً مثل هذا المصحف، فستكون قدّيساً يخرس أعداءه!

أن أكتب كتاباً كالقرآن! لست أدري هل هي تمزح أم تهذي. أَيْمًا، القرآن هو كلام الله، فلا أحد يستطيع أن يعيد كتابته أو أن يدّعي أنه سيكتب مثله. إنه كتاب معجز، مقدّس وأزليّ، ولذلك لا يمكن تقليده. هل تريدين أن يُنَافِسَ ابنُكِ الله؟ استغفِر اللّه يا ولدي! أنا لم أطلب منك أن تكتب القرآن، بل أن تكتب كتاباً ينحو منحى القرآن... هذا ما أرادت سُمَيًّا أن تقوله، وهي محقّة في ذلك... لكن... افعل ما تشاء... أنت كبير ومسؤول عن نفسك... ما يخيفني هو أن يريد بك الناس سوءاً... إنهم يحسدونك وعيونهم تترك ثقوباً في كل ما يرونه، فيا لخبثهم! عليك أن تحذر من أولئك الذين يدّعون أنهم أصدقاؤك، فالشر يأتي من الأصدقاء والأقارب... أما الناس البعيدون عنّا، أولئك الذين لا يعرفونك إلاّ ظاهريّاً، فلا يمكن لهم أن يؤذوك... إنهم يقولون ما يشاؤون، لكننا لسنا مطالبين

بتصديقهم... أما الذين يعاشرونك، فكلامهم جدير بالتصديق... من طبيعتك يا ولدي أنك لا تحذر كثيراً من الآخرين... إن عليك أن تحتاط... فالنجاح، كالضوء الباهر، يخطف أبصار الناس، فيضلّهم ويضعفهم ويدفعهم إلى الحقد والغيرة والحسد، معتقدين أنك لا تستحق ذلك النجاح... والحق أن الله جعلك فوق كل من يريد الإساءة إليك... صدّقني يا ولدي، أنا أعرف ما أقول، والدي كان قدّيساً، النور كان يسطع من وجهه، هو الذي علّمني أن الطيبوبة الفطرية موهبة من عند الله. فأنا طيبة، تجنّبتُ دائماً إيذاء الآخرين، حتى ولو كانوا يحسدونك... أتركهم لله الذي سيعرف كيف يعاقبهم. والدك مثلاً لم يكن دائماً طيّباً، كان يحقد على التجار الذين تنجح مشاريعهم ويحسدهم. قلت له دائماً أن يبتعد عن الحسد، فكان يُرغي ويُزبد. عجباً! لقد رأيته البارحة، جاء لزيارتي. كان يرتدي جلباباً أبيض وطربوشاً أحمر فاقعاً وعطر الجنة يفوح منه. كان باسماً وقد استعاد شبابه ونضارته... لكن... أَيْمًا، والدي مات منذ عشر سنوات! ماذا تقول؟ مات ولم يخبرني بموته أحد! الله يُبقي الستر! على كل حال، أنا رأيته والموتُ لاَءَمَهُ... فبشرته ناصعة وعيناه هادئتان. الموت يعيد الأشياء إلى نصابها. روحه تسافر... أجل... روحه هي ما رأيت... كانت رائحتها زكية... أنت تعرف أنه لم يكن أنيقاً في لباسه، يلبس دائماً جلابيب بنّية داكنة منفّرة، يرفض أن يغيّر قميصه كل يوم، يقول إن المظاهر لا قيمة لها، لم يكن يحب الملابس الجميلة، لكنه كان نظيفاً. لحسن الحظ أنك لا

تشبهه، فأنت تلبس أحسن الثياب. وهذا أيضاً يغيظ الناس، لا يحتملون أناقة الآخرين... الحسد... ما أكثر حسد الناس! أخاف عليك حين أراك في التلفزيون، لأنّ صورتك تكون في كل مكان، تدخل إلى كل البيوت... لا أخفي عليك يا ولدي أنني لا أريدك أن تظهر كثيراً، أن يراك الآخرون أكثر من اللازم، فكل هذا يهيّج عدوانية وسوء نية خصومك الذين يبادرون إلى اغتيابك ونصب الشرّ لك بمجرّد أن تدير ظهرك... كلهم يريدون أن يكونوا في مقامك... احترس من الذين يبتسمون في وجهك ابتسامة صفراء، أولئك الذين يجاملونك، يقولون لك إنك أحسن الناس... فهم يسعون إلى تعطيل موهبتك... إنهم مثل صديق والدك، رجل الأعمال الذي ادّعى أنه يلعب بالملايين... أنت تعرفه، ذاك الذي استطاع أن يبتزّ من والدك ما وفّره من مال ليستثمره في مشروع خيالي ولم يسترجعه أبداً... هذا الرجل دعوتُ اللهَ أن ينتقم منه وأن يبعده عن الناس الطيبين السذج حتى لا ينهب أموالهم. كن حذراً يا ولدي! لكن... ما هذا؟ أنا لم أعد أرى شيئاً! أين نظارتاي؟ لا أرى إلاّ الظلام... ابحث معي، لعلهما تحت السرير... لكن... أَيْمَّا، إنهما على عينيك... لقد انقطع التيار الكهربائي... هاك... أمسكني بيدي، ولندع الله ألاّ يطول انقطاع التيار عن دارنا. ماذا كنت أقول؟ ذكّرني بما كنت أقوله. أصبحتُ عاجزة عن تذكّر الأشياء قريبة العهد. لكنني أتذكّر الأشياء القديمة... هذا غريب! فالذكريات القديمة وفيّة بنا، لا تفارقنا، بينما ذكريات هذا الصباح تبخرت... لا أعرف ما

الذي فعلتُه بها... لعلها سقطت على الأرض مثل نظارتيّ. الذكريات القديمة تظل معنا إلى أن ترافقنا إلى القبر... ماذا يقع لها بعد ذلك؟ لا أعرف... يحدث لي أن أتخيل متجراً كبيراً، نوعاً من المرأب يمرّ أمامه الأموات قبل أن يدفنوا، فيستودعون فيه ذكرياتهم القديمة، ثم ينصرفون متخفّفين إلى دار الله. أنا أتحرّق شوقاً إلى هذه الدار. أتكلم معك بجدية يا ولدي... لقد تعبتُ... عَيِيتُ كثيراً... لم أعد أحتمل هاتين المرأتين اللتين تتربّصان بي، تحدّقان في وجهي بعيون الضباع، تترقّبان أجلي للاستيلاء على متاعي... أنا أستطيع قراءة نظراتهما، أعرف أشياء حتى وهما لا تنبسان بكلمة... هل تتذكر جيراننا، الفرنسيّ وزوجته العجوزين؟ كان الزوج أوّل من مات. استغلّت خادمتُها مرض المرأة، فَسَطَتْ على أملاكها، بل إنها أحضرتْ شاحنة وملأتها بكل شيء. وفي صباح اليوم التالي، عرفنا أن الزوجة توفيت. والحق أنها ماتت قبل الفجر، فلم تخبر الخادمة أحداً بذلك، منتهزة الفرصة لتسرق كل شيء. وجاء البوليس، فتدبّرت الخادمةُ أمرها معهم. أنا أخاف أن تسرق لي هاتان المرأتان كل ما تبقّى لي. لهذا السبب، يجب أن نكون يقظين... أعرف أنك لا تعير اهتماماً لهذه الأشياء... تقول علينا ألاّ نتعلّق بها. أما أنا، فأشيائي هي كل ما أملك، ولا أريد أن تضيع مني، لا الآن ولا بعد موتي. خُذْ قلماً وورقة يا ولدي وسَجِّلْ:

سبعة قفاطين مطرّزة ومزركشة بالألوان السبعة التي أحبّ: الأبيض الناصع والأسمر الفاتح والأصفر والأزرق السماوي

والبنفسجي والأبيض الخافت والأخضر الخفيف والأزرق الليلي... لكن... أَيْمَّا، هذه الألوان أكثر من سبعة! لا يهم، فأنا أملك عشرة قفاطين بعضها لم ألبسه أبداً إلى اليوم... زِدْ عليها وشاحين لكل قفطان، وهما طبعاً متلائمان في اللون مع القفطان... ثم خمس منصوريات وأربع مضمّات مطرّزة في فاس بيد المعلّم بنّيس... كذلك الجلابيب التي أرتديها في المناسبات، أما جلابيب كل يوم، فهي عادية... عندي إذن خمسة جلابيب من الحرير خاطها لي ولد المعلّم بنّيس... سجّلْ أيضاً عدداً لا يحصى من المناديل المطرّزة التي أستعملها في الأعياد والحفلات... دَعْكَ من القمصان الداخلية والمنامات... وسجّلْ الآن قائمة المجوهرات التي أملك... لكن... أَيْمَّا، سبق لك أن وزّعتِ مجوهراتك على حفيداتك وأمهاتهنّ! فأنتِ لم تعودي تملكين شيئاً أو بالأحرى لم يبق لك من مجوهراتك سوى القليل! ماذا؟ لم تعد لي مجوهرات؟ ألم أقل لك إنني محاطة بالأعداء واللصوص؟ ضاعت مني مجوهراتي... كلثوم والأخرى الطّبّوزة هما اللتان سطتا عليها في أثناء نومي أو وقت إقامتي بالمصحة... لا أَيْمَّا، تنسين أنك استودعتني إيّاها أولاً، وبعد ذلك وزّعتُها وفق تعليماتك... هل أنت متأكد من ذلك؟ أم تقول لي هذا لتهدئتي؟ حسناً... لا يهم... لِنَقُلْ إن المجوهرات اختفت... سجّل الآن الأشياء الأخرى التي أملك: الصالون، وخاصة صوف الأفرشة التي في الصالون، إنه صوف مشترى من فاس بما وفّرتُه من فلوس، فوالدك كان يرفض تجهيز الدار بكل ما يلزم... هذا الصوف

الذي يزن طنّاً، لا، أقلّ من ذلك، حوالي أربعمئة كيلو. . . هذا الصوف خُذْهُ أنت لتحشو به أفرشة ومخدّات دارك، هو من نوع ممتاز، صوف حرّ يريح من يجلس عليه أو ينام فوقه. بعد هذا، هناك طاقم الزرابي ذات الصنع الرباطي والفاسي. هي من طراز قديم وأصيل، فلا تبخس قيمتها. ثم هناك الأباريق والكؤوس والملاعق الخاصة بالشاي والمصنوعة في إنجلترا، فلا بدّ من الحفاظ عليه. . . لكن. . . أَيْمًا، طاقم الشاي هذا أعطيتِه قبل ثلاثين عاماً هديةً إلى أخي يوم زواجه. . . قُلتُ لك سجّلْ، فلا تشوّشني، أنا لست حمقاء. . . أنا أعرف جيداً أن هذا الطاقم عند أخيك، لكنّ هذا لا يبرر عدم تسجيله ضمن قائمة ممتلكاتي. . . سننظر في أمره لاحقاً. . . هناك أيضاً التلفزيون. . . لا. . . إنه لا يهمّني، كذلك الراديو، فهو معطل منذ عشرين عاماً. . . لكن والدك كان يريد أن يحتفظ بكلّ شيء: المفاتيح الزائدة والأقفال الفاسدة والبطاريات الصدئة والمصابيح الميتة وركام من الأشياء غير المستعملة. . . آه. . . الستائر. . . أنا أكرهها. . . اعملْ لي معروفاً يا ولدي، انتزِعها وأعطِها لكلثوم. . . آه. . . الدولاب القديم، ما أكبره وأثقله! دَعْهُ في مكانه، فهو يصلح خزانةً للمؤونة، خشبه نخره البقُّ ودفّتاه معطّلتان، لكنه جزء من الدار. أما المرآة الكبرى التي في البهو، فقد فقدت بريقها. . . خذها إلى دارك. . . كانت عزيزة على والدك، لا تصلح لأي شيء. . . إنها مثبتة في أعلى الحائط، فلم أعد أستطيع رؤية وجهي فيها بعد أن صَغُرَتْ قامتي. . . هي إذن زائدة. . . قل لي. . . لعلك تذكر ابن

عمك، ذلك الذي فقد زوجته العام الماضي، عمره أكثر من ثمانين عاماً، لقد تزوج مرة ثانية قبل أيام... الوحدة دمّرته... هو دائماً يفشّ عليَّ قلبه، فنحن نتفاهم معاً لأننا من الجيل نفسه... عثر على بنت حلال، عمرُها خمسون عاماً تقريباً... لكن أبناءه لم يستسيغوا هذا الزواج، هذا شيء طبيعي... كانوا متعلّقين بأمهم، فلم يحتملوا أن تأخذ مكانها امرأةٌ أخرى... وفوق هذا، فإنّ هذه المرأة ستأخذ نصيبها من الإرث... هل تعرف يا ولدي أن والدك، في آخر حياته، حاول أن يتزوّج عليّ بامرأة أخرى، امرأة صغيرة مثل تلك الشابّة التي كانت تأتي لتحقن الإبرة في وركه... بسرعة اعترضتُ على هذا الزواج... قلت له لن يحصل هذا أبداً، على الأقل وأنا على قيد الحياة... بعد موتي، تزوّجْ بمن تشاء... تَدَبَّرْ أمرك مع ابنيك... لكنني لن أتركك ترتكب هذه الفضيحة ما دمتُ حية... لا... لم أفعل ذلك بسبب الغيرة، بل لأنني لا أقبل قلة العفة وقلة الحياء، فأنا لي كرامتي وشرفي... هل تعرف ماذا فعل؟ عدل فوراً عن فكرة الزواج هذه. هذا يُضحكك! هناك فعلاً أشياء تبعث على الضحك! حين سيعود إلى الدار بعد قليل، اطلبْ منه أن يحكي لك هذا الفصل من حياته... كان ذلك حين كنتَ تتابع دراستك في فرنسا، لم تكن تعيش معنا، كنتَ تزورنا في الصيف ثم تختفي بَقِيَّةَ السنة... لكن.. أَيْمًا، أبي فارق الحياة منذ عشرة أعوام، هل نسيت هذا أيضاً؟ لا... لم أنسَ شيئاً... لكن الأموات يزوروننا بين حين وآخر، فلا يجوز سدّ الأبواب في وجههم، هذا عيب وفيه مجلبة

للشقاء... الأموات مثل الملائكة... يمرّون ويتركون وراءهم آثار المسك ثم ينصرفون... إذن فوالدك يزورني من حين لآخر ليتفقّد أحوال الدار، فلا يسرّه أحياناً ما يراه، فيغرغر، وبما أن الأموات لا يتكلمون، فإنني أسمع حشرجات لا أعرف مصدرها... أنا أيضاً سأزوركم بعد موتي... على كل حال، الروح تخترق الجدران والغابات، تتسلّل خلسةً إلى نومنا وأحلامنا لتجعلها أكثر قابلية للتصديق وأكثر قوة... أنا لا يخيفني الموت إطلاقاً، فهو مصيرنا المحتوم... ثم إن الموت يعني ملاقاة الأولياء الصالحين، يعني ملاقاة النبي، يعني ملاقاة الخالق، لذلك فأنا لا أخشاه... بالعكس، أنا مشتاقة إليه... ما يخيفني هو موت الآخرين... لا أحبّ أن أرى الجثامين الصلبة الباردة... لا يعجبني أن أنام في الغرفة التي تم فيها غسل الميت... هكذا أنا... نفسي تكدّرها تلك الروائح الغريبة التي تفوح من أجساد زهقت روحها، يكدّرها بياض الأكفان وأنصاف التّمر فوق عيني الميت وفمه وأنفه وكل تلك الطقوس المرافقة للجنائز... لست جائعة... لا أشعر بالحاجة إلى النوم... لكن... ما هذا؟ ويلي ويلي ويلي! بُلْتُ تحتي كطفلة صغيرة... انفلت البول مني من غير أشعر... فيا للخجل! ها أنت ترى أن أمك أصبحت مثل رضيع لا يضبط نفسه... أهترفُ... أخلط الذكريات بعضها ببعض... لا أفرّق بين التواريخ والأزمنة... ذاكرتي منخورة... الناس الأصحّاء أنفسهم يفقدون الذاكرة... هل تسمعني يا أخي الأصغر؟ هل تذكر حين كنّا نلعب معاً في حديقة جيراننا بفاس؟

كنّا نلعب لعبة ٱلْغُمَّيْضَةِ. . . لكن. . . لماذا غِبْتَ عنّي كل هذه المدة الطويلة؟ أنا أختك الكبرى، فمن واجباتك نحوي صلة الرحم، أليس كذلك يا أخي؟ آه. . . فهمتُ. . . زوجتك تحرّم عليك زيارتي. . . لكن. . . أَيْمًا، أنا لست أخاك الأصغر. . . أنا ابنك. . . آخر أبنائك. . . عمري ستّ وخمسون سنة وأنا ما زلتُ على قيد الحياة. . . أما أخوك الأصغر، فقد مات قبل عشرين عاماً. . . وزوجته أيضاً فارقت الدنيا منذ سنوات. . .

[19]

في صيف 1953، فقدت مدينة فاس العتيقة ألقها. خاض التجار إضرابات شلّتْ حيويتها. وانعقدت في المساجد اجتماعات سياسية أعقبتها مظاهراتٌ صاخبة تطالب بالاستقلال. لم يكن بإمكان المغرب أن يعيش من غير مَلِكِهِ الشرعيّ محمد الخامس الذي عزلته فرنسا ونَفَتْهُ إلى مدغشقر. تَغَيَّرَ وجهُ فاس ومصيرُها. توقّفتْ فيها كل حركة تعبيراً عن الاحتجاج. تحدّث الناس عن المقاومة والكفاح المسلّح. كان من بينهم من استغلّوا الوضع وتاجروا في السوق السوداء وعملوا مخبرين سرّيّين للبوليس الفرنسي. لكنّ جلّهم، تُجَّاراً وصُنَّاعاً حِرَفِيِّينَ، كانوا متّحدين من أجل وضع حدّ للوجود الاستعماري بالمغرب. أتذكّر تَجَمُّعاً انعقد في دار زوج خالتي حضرة الزعيم علاّل الفاسي محاطاً بعدة أشخاص. كان من بين الحاضرين زوج أختي، رجلٌ متواضعٌ وشجاع يحترف صناعة الفخّار. سمعتُ الناس يقولون إن الوطن في خطر ويتحدثون عن الحرية والاستقلال. كنت أمسك بيدي خذروفاً ألهو به. فانتزعه مني زوج خالتي وهو يجذب أذني بعنف وخشونة: هل هذا وقت

اللعب والتسلّي؟ البلد في ثورة وغليان وأنت تلعب بالخذروف! لم أفهم عتابه. ثم هل يمكن لخذروفي أن يحول دون تحرير الوطن وعودة الملك من منفاه؟ كانت الطرقات خالية. فاس لم تعد فاساً! تَدَثَّرَتْ بكفنٍ منكمش. لم يعد يحقّ لها أن تحتفل بالأعياد ولا أن تفرح بالمناسبات ولا حتى أن تستضيء بالكهرباء. كانت تُفلس في ذات الوقت الذي أصبحت فيه بؤرة الحركة الوطنية المغربية. كل ما كنتُ أعرفه آنذاك هو أن والدي نكدتْ حاله، تتجاذبه الرغبةُ في التضامن مع الوطنيين ضدّ الاستعمار الفرنسي وإرادةُ رعاية تجارته التي بدأت تخسر. بعد شهر من الإضرابات والمظاهرات، لم يعد يجد ما يعيل به أسرته. . .

قالت لي فجأة: فاس! آهٍ على فاس يا رَجُلِي وكلّ شيء في فاس! آهٍ على فاس يا زوجي الصغير، مدينة المدن، أجمل المدائن، مدينة الحضارة، مدينة الإسلام والأخلاق الحميدة والعائلات الأصيلة! ما أفدح خطأك حين قَرَّرْتَ الرحيل عنها! لكنّ أهلها هجروها. . . سكّانها، ذوو الجذور فيها والأجداد في «القبب»، أجمل مقبرة في العالم، خانوها، حيت انتقلوا إلى الدار البيضاء بحثاً عن الثروة! يحق لك أن تندم على ذلك الرحيل، فحالتك ساءت وتجارتك أفلست. عدتَ ذات مساء إلى الدار تَعِساً وقلتَ لي: يا امرأة، سنرحل إلى طنجة، أخي اقترح عليّ أن أتاجر في تلك المدينة، لم يعد لي ما أفعله هنا في فاس، فكلّ شيء تَوَقَّفَ منذ نَفَوْا مَلِكَنا. إنها الأزمة! فقلتُ لك: لنتمهّل قليلاً، قريباً سيعود الملك إلى أرض الوطن

وستستأنف الحياة نشاطها. فصرختَ في وجهي: نصائحكِ احتفظي بها في رأسكِ! تبعتكَ في صمت. كنتُ كعادتي راضية طائعة... وهل كان بإمكاني أن أكون غير ذلك؟ ثم هناك شيء آخر، هناك ولدي الآخر، ذاك الذي لم تقبله أبداً، والذي وَلَدْتُهُ من رجل آخر، لست أدري هل هو الأول أم الثاني، لم أعد أذكر... على كل حال، ليس ولدك... هاجر أيضاً إلى طنجة وعرض عليك مساعدته... لكن الأمور لم تمرّ بسلام... ها أنذا بعيدة عن فاس... بعيدة عن أجمل مقبرة في العالم... بعيدة عن ضريح مولاي إدريس، وليّ المدينة... أعيش وحيدةً... أتكلم مع نفسي... لكن... من أنت يا هذا الرجل؟ لماذا تبتسم لي؟ آهٍ... عدتَ إذن! لكن... لماذا لا تقول شيئاً؟ لقد استعدتَ شبابك... بشرتك أصبحت ملساء... والتجاعيد اختفت من وجهك... لكن... أين هما عيناك؟ ما هاتان الكرتان البيضاوان الصغيرتان اللتان في مكان عينيك؟ لماذا لا تجيب؟ قل أي شيء... من عادتك أن تثرثر، أنت وحدك من يتكلم دائماً، مانعاً إيّاي من أن أنبس بكلمة... سأستغلّ الفرصة الآن... سَأَفُشُّ قلبي لأقول لك ما أكنّه نحوك من غيظ وعتاب منذ عهد طويل. اسمعني جيداً... لستُ سيئة الطبع ولا نمّامة، وإنْ كنتُ أميل قليلاً إلى النواح والتشكّي كالأطفال... اسمعني إذن، سأكلّمك بكل ما يجب عليّ من احترام لشخصك: أبداً لم أكن سعيدة معك... لم أرَ الشمس برفقتك... لم تنادني أبداً باسمي الشخصي... كنتَ ترفض أن تناديني بِـ لَلاّ فاطمة أو حتى بِـ فاطمة بدون لَلاّ التي تختصّ بها

الأميرات! لم تكن تعطيني أي فلس... أعرف أنك لم تكن غنيّاً، لكنك كنت بخيلاً... سامِحني إذا كنت معك قاسية... لكن من حقّي أن أفرغ مكنون قلبي... ربما كلمة «بخيل» غير مناسبة... كنتَ بالأحرى مقتّراً متقشّفاً، يخيفك أن تفلس فتضطرّ إلى اقتراض الفلوس من أخيك الغنيّ والأبخل منك... لم يبتسم الحظّ لك أبداً، لكننا كنّا مستورين والحمد لله، يكفينا ما عندنا... لم نمت جوعاً، لكنني لم أكن أجد ما أشتري به قفاطين ومجوهرات، فأضطرّ في الأعياد إلى أن أستعير من أختي الصغرى حوائجها، فكنتُ أبكي لذلك. أما أنت، فكنت لا تبالي بي، مهتاج الأعصاب، يدك فوق رأسك الساخن بسبب آلام الشقيقة، لا تتفضل حتى بالنظر إليّ... كنت زوجتك وخادمتك في الوقت نفسه... كان يعجبك أن أخدمك وأن أقبّل يدك اليمنى، تماماً كما أفعل مع والدي، وأنت تستعذب إذعاني وطاعتي لك، إضافةً إلى قسوتك عليّ... كنتُ لا أستطيع مقاومة البكاء حين أرى كيف يعيش إخواني وأخواتي مع أزواجهم... والآن، صارِحني بالحقيقة: هل كنت تحبّني؟ لم تعرب لي أبداً عمّا يدلّ على الحب، بل كان يضايقك حتى أن أحدثك عن حياتنا الحميمة... كنت تحبّ أن تستقبل أصدقاءك وأن تتخذ الغائبين موضوعاً لسخريتك، فكنتُ لا أستحسن ذلك... لكن أفراد عائلتي كان يعجبهم تفكيرك وحِسُّ المزاح لديك... كنتَ تُضحكهم... كان يحزنني ألاّ تُضحكني أنا أيضاً وألاّ تداعبني وتمازحني... نعم، كنتَ تقول لي إنني لا أفهم مزاحك، بل وإنني عاجزة عن فهم أي شيء...

والآن... وبعد أن كِدْنَا نكون متساويَيْن، أنت في قبرك تحت التراب وأنا طريحة الفراش أنتظر الموت، فباستطاعتنا أن نتكاشف... لكنك لا تستطيع أن تتكلم... أنت مجرد طيف، مجرد صورة جميلة، مجرد مشية مختالة... وأنا... أنا أهذي وأخرّف... ألا تسمعني؟ أنا عطشى، ناوِلني كأس ماء، لا كأس حليب، بل كأس ماء، فأنت تعرف جيداً أنني لا أحتمل الحليب في الصباح... شكراً... ساعِدني على الجلوس، وإلاّ فسأبلع الماء بانحراف، وهذا شيء لا أطيقه... فكم من مرّةٍ كادت روحُك أنتَ أن تزهق بسبب عدم تمهّلك في الشرب، مثلك مثل باقي أفراد عائلتك... إنه التهوّر... إنه التلهف... تريدون كل شيء بسرعة! لا يا زوجي... أنا أحترس... سأشرب ببطء... ماذا تنتظر؟ أسرع... أنا آتٍ أَيْمًا... ابلعي دواءك مع الماء، ذاك الذي يخفف ضغط الدم... نعم، تعاني مثل ولدك من فرط التوتر، حين يضغط الدم الشرايين، ينبغي تهدئة الدم... أنا موافقة يا زوجي، لقد عَيِيتُ... سأنتظر... نعم... لَكَ يمكن لي أن أعترف، أنا أنتظر ميعاد الرحيل الأكبر... أنت ولدي، أليس كذلك؟ قبل لحظات زارني والدك ليرى هل أنا مستعدة للرحيل... نسيتُ أن أقول له إنني عَيِيتُ... سئمتُ الانتظار... أشتاق إلى اللحاق به... لقد أسأتُ التصرف معه... لم أكفّ عن عتابه... استغللتُ الفرصة لأفرغ مكنون قلبي في وجهه... أما أنت، فأقول لك إنني لم أعد أطيق الانتظار... فكأنّ شخصاً ما أنزلني على رصيف محطة وتركني وحدي أنتظر القطار، لكنني سرعان ما

انتبهتُ إلى أن هذه المحطة معطّلة وأن لا قطار سيتوقّف فيها، محطة تكسوها أعشاب رديئة، تجمّد المفاصل، تكثر فيها مجاري الهواء، محطة يعبرها أناس غريبون، يسقطون أرضاً ولا أحد يجمعهم، يتخلوّن عنهم. . . إنها محطة حقيقية لأنني أرى بأم عينيّ سكة الحديد. . . بل إنّ هناك قاطرة مهجورة على السكة. . . لعلها أصبحت ملاذاً للمساكين الذين لا بيوت لهم. . . أما أنا، فَلِي داري حيث أنا الآن. . . ماذا أفعل؟ أنظر إلى الحائط الذي قبالتي وأنا طريحة الفراش. . . الحائط مجرد ركام من الحجارة. . . لا يردّ عليّ. . . هو ليس مرآة. . . أحدّق في كل ما حولي وأنا أفكر في المستقبل. . . آهٍ! ليس المستقبل الزاهر الذي ينتظر أحفادي وحفيداتي، بل مستقبلي أنا. . . أن أرحل. . . أن أترك لكم الدنيا وما فيها وما يجيء من حسّها، فأريحكم من عبئي الثقيل. . . أعرف أنك يا ولدي صبور حليم، لا تنفعل، أنت معي لأنك تحبّني، والحب الذي أكنّه لك يعمّر قلبي، يطفح من كل مكان. . . هذه طبيعتي، فأنا لم أختر أن أكون كَمَنْ أنا. . . لكن قلبي، حين أفكر فيك، يخفق بقوة، يمتلئ بالحب إلى أن يغرق فيه. . . نعم، تعلّقي بك يفيض من كل جانب. . . سامِحني يا ولدي. . . أعرف أن ما قلتُه يضايقك. . . سبق لك أن قلت لي هذا. . . أنا أنتظر، فيتراءى أمامي النورُ البهيُّ البديعُ، وجهُ النبيّ، نوراً باهراً يخطف الأبصار. . . هوذا الموت، حيث يرحل المرء على أشعة هذا النور، فلا يعود يتألم، بل يشعر بالراحة والسكينة. . . يكفي أن أفكر في هذا النور لتزول آلامي وأخلد إلى النوم. . . يا للعجب!

كم أرغب الآن في النوم! سأنام قليلاً... ربما لن أفيق... قد تكون آخر نومة، مثلما حصل لأمي، أسلمت الروح وهي ناعسة... كانت في تمام وعيها... فهي أبداً لم تهترف مثلي... أنت تعرف أنني أهترف، فلا تتظاهر بطمأنتي... قبل قليل قلت لك إن أباك كان معي هنا... فيا للخبل! هذا غير معقول... لقد مات قبل عشرة أعوام وشهرين وثلاثة أيام! الأموات لا يسافرون... لكن ما أراه ربما لا وجود له... نعم... أنا ضحية رؤى وهلوسات، كتلكَ التي تتبدّى للمصابين بالحمّى... أرى ما لا وجود له... أكلّم الأوهام والأشباح... السلامة يا ربّي! لو سمعني والدك لأغضبه أن أشبّهه بالوهم، فأحرى الشبح! لا... أنا أبالغ... لعلّه تأثير محطة القطار الخالية ومفعول الأدوية، خاصة تلك التي ترخّيني وتنوّمني، تلك التي تهدئ أعصابي وتساعدني على التحليق... خلال تلك النزهات، لا يخيفني شيء... أنسى ألمي... فما أحلى هذا الخدر! هوذا الموت يا ولدي! يغيب المرء ولا يفيق... يجب أن تكون بجانبي... يجب أن تكونوا جميعاً حاضرين... هذا مهم بالنسبة إليّ وإليك، لأنكم، بعد موتي، ستنسونني... هذا شيء طبيعي... ستحتفظون بصورة عنّي وأنا مستريحة رائقة... لا تنسوا أن تتصدّقوا أيام الجمعة... كونوا أسخياء مع المساكين... اقرأوا آيات من القرآن على قبري... أعرف أنك لا تحبّ زيارة المقابر... أعفيك إذن منها... أعرف أنني في قلبك، فلا حاجة لي بك في المقبرة... أنا أيضاً لم أكن أزور قبريْ والديَّ للترحم

عليهما. . . إنهما مدفونان في. . . في. . . لم أعد أذكر هل هما مدفونان هنا في فاس أم هناك في طنجة. . . لكن. . . أين أنا الآن؟ ذكِّرني باسم المدينة التي أنا الآن فيها. . . فتردّ عليها الأخرى صائحة: «طنجة». . . إنها تتنصّت على كل ما نقوله! السخط! لا شك في أنها تشتغل مع البوليس. . . لكن هذا لا يخيفني. . . نعم. . . عن أي شيء كنت أحدثك؟ عن مجوهراتي التي سُرقت مني أم عن ختان ولدك؟ لا بد من أن يقطع الحجّام قلفة ولدك، وإلاّ فلن يكون مسلماً. . .

مهذارةٌ أنا! الفراغ هو ما يجعلني كثيرة الثرثرة. . . حين تكون بجانبي، أتكلم طوال الوقت. . . أقص عليك الحكاية نفسها للمرة العاشرة. . . أنا أهذي. . . أقول وأكرر الأشياء نفسها. . . فلتسامحني يا ولدي. . . أنت تتفهم حالتي، لا الآخرون. . . فابنتي تهيج أعصابُها وتعاتبني على تكرار الحكايات نفسها. . . تقول لي إنني فقدت عقلي، ثم تنصرف إلى المطبخ تاركةً إيّاي وحدي. . . فماذا عساي أن أفعل؟ أواصل الحديث كما لو كنتَ بَعْدُ معي. . . أنا لست حمقاء. . . أنا فقط تعبانة. . .

[20]

سألتني مؤخراً لماذا لا أزور أبداً قبر والدي لأترحم عليه. لأنني لا أستطيع تركيز ذهني على قطعة من الرخام. أقرأ وأعيد قراءة شاهدة القبر وأنا أفكر في شيء آخر. أفضّل أن أحمل في قرارة نفسي صورة والدي الذي أحلم به في غالب الأحيان. بل إنني أكتشف، كلما فكّرتُ فيه، أنني أشبهه أكثر فأكثر: العادات المستهجنة نفسها، الحنق نفسه، وربما فورات الغضب نفسها. نعم... فأنا مثله لا أحتمل سوء النية والخيانة والظلم والنفاق. قاطعتني أمي: أنا كذلك. لكنه كان يبالغ... هل نسيتَ هيجان أعصابه بدون سبب معقول، كَأَنْ يجد الطعام مالحاً أكثر من اللازم أو أَنْ تُحدث النافذة صريراً. كنتُ أتحمل مزاجه ونزواته، فلا أقول شيئاً، تاركةً العاصفةَ تَمُرُّ. لكنه مَرَّةً تجاوز كل الحدود: كنتَ أنتَ هنا، وهو ما جعلني أشعر بالأمان والجرأة... فنفضتُ في وجهه مزودتي... هل تذكر؟ هدّدني، بل أظن أنه رفع يده ليصفعني، فخرجتُ من الدار كالحمقاء، بدون جلباب... نفد صبري... وجدتني في الخارج حائرة لا أدري أين أتجه... لَحِقْتَ بي وتبعك أخوك، فأرجعتماني إلى

الدار. . . أتذكّر أن صديقة لك أوروبية كانت ضيفةً عندنا، فَخَجِلْتُ. . . أنا أعترف أنه لم يضربني أبداً. لسانه السليط هو ما كان يضرب! فلم يكن يعرف كيف يكتم شراسته وحقده. . . كان سيّئ الحظ، يحسد كل من ينجحون في مشاريعهم التجارية، خاصة إذا كان يوجد بينهم من سبق لهم أن تمرّنوا على يده في متجره بفاس. . . هذه الفظاظة لا تعجبني. . . أرجو ألاّ تأخذ عنه هذه العادة الخبيثة. . . رِضَايَ عليك وأدعيتي لك سيحميانك من كل شر. . . لكن. . . من يعرف؟ فالناس سريعو التبدل، فَمَنْ يقبّلك اليوم يطعنك غداً في ظهرك. . . فاللهمّ احفظنا من سموم الأشرار. . . يجب أن أصلّي الآن من أجلك ومن أجل إخوتك. . . أحسّ أنك في حاجة إلى دعائي. . . أرى أنّ أطيافاً تحوم حولك. . . لا تخف. . . أنت بين يدي الله. . . عينه تحرسك. . . أنت في عيني وكبدي وقلبي. . . أنت في أكثر أفكاري قوةً، تلك التي تصدر عن قلبي وتذهب رأساً إلى الله تعالى، هو الذي يوجّه خطواتنا ويبعدنا عن أولاد الحرام الذين لا ذمة لهم، ويستغلّون طيبتنا، ولا يشبعون من الدنيا. . . قلبك كالحرير أبيض، فليس لك ما تخشاه. . . الله سيجعلك فوق كل ذي عينين مليئتين بالحسد والحقد. . . لكن. . . تذّكرتُ الآن أنني لم آخذ أدويتي! هذه مؤامرة ضدي من تدبير كلثوم. . . تريد أن تتخلص مني. . . قالت لي البارحة إن الصيدلية لم تعد تقبل أن تبيع لنا الدواء بالدّيْن. . . هل تصدقها؟ أنا لا أصدقها. . . فلا أعتقد أن الصيدلي يمكن له أن يفعل ذلك. . . كلثوم هي التي اختلقت هذه الحكاية لكي لا تعطيني الدواء. . .

هي جاهلة... أبوك كان يكره الجهل... يقول إن كل الشرور تأتي من الجهل... فماذا أفعل يا ولدي؟ هل تكلّمت مع الصيدلي؟ حسناً، كنتُ على يقين من ذلك... كلثوم تغيظني، تثير أعصابي... لكنني لن أطيق ذهابها وتخلّيها عني... هي تعرف هذا، لذلك تعمد إلى ابتزازي وتخويفي بانصرافها إذا استأتُ منها، فأبكي حين أراها تلبس جلبابها وتهم بالذهاب... هل رأيتَ المحنة التي تجعلني أعيش فيها؟ فهي الوحيدة التي تعرف أدويتي والتي تنظفني في الحمّام... لكنها ليست وديعة... تصرخ دائماً في وجهي وترعبني... فما حيلتي يا ولدي؟ بنتي، التي من دمي، ترفض أن تهتم بنظافتي، فلا ينفعني إلاّ أن أتحمّل شراسة كلثوم وأحمد الله... أحياناً أقول في نفسي إنها زوجي الرابع، مستبدّاً، غضوباً، دائماً متذمّراً، ما عدا حين تكون أنت هنا فتعطيها فلوساً أخرى زيادة على أجرتها... قل لي... ألم تشبع أنت بعدُ من فرنسا؟ لماذا لا تسكن معنا يا ولدي، فتكون قريباً مني، وأراك كل يوم، ولا أخاف من مؤامرات كلثوم؟ اسكن معي في هذه الدار، إنها كبيرة، وغرفتك دائماً تنتظرك... آه... نسيتُ! أنت متزوج ولك أبناء، تعيش معهم بعيداً عنّا... ما هي أسماء أبنائك؟ وما عددهم؟ دعني أخمّن... آه من النسيان! النسيان اللعين! العدوّ الذي يسرق كل شيء، خاصة ذكرياتي... فبأي حق يفعل هذا؟ قل لي، أنت الذي درستَ هذه الأشياء، لماذا ينسى الإنسان؟ الله يُبقي الستر! ماذا كنت أقول؟ آه... كنتُ أقول إنّ أباك لم يأت لزيارتي هذا الأسبوع، وإنّ أخي الأصغر لا يكفّ عن الغناء

في الساحة من غير أن يخطر بباله أن يدفع الباب ويدخل ليؤانسني. . . هو معذور. . . فامرأته تمنع عليه هذا. . . أعطني ماء لأشرب، أنا عطشانة. . . وبعد هذا سأصلّي. . . لعلّني صلّيتُ قبل قليل! لا أتذكّر. . . هل رأيتني أصلّي؟ حالتي تدعو حقّاً إلى الرثاء. . . اسمعني يا ولدي، أَطفئ التلفزيون وتعال لتقرأ القرآن عند رأسي. . . تُفضّل أن يكون أخوك الأكبر من يفعل هذا، فهو أعرف بالقرآن منك. . . ومع ذلك، فقد ذهبتَ أنت إلى المسيد في حيّ بوعجّارة بفاس لتحفظ القرآن، هل نسيتَ؟ لا. . . لا يجوز لك أن تنسى المسيد وكذلك الفقيه مفتاح الذي كان أعور ورغم ذلك يرى كل شيء. . . كان قاسياً، لا يفارقه قضيب يهشّ به على كل من يأخذه النعاس. . . ألا تذكر الفقيه؟ لكن. . . ما هو اسمه؟ ساعِدني. . . ذكرتُ اسمه قبل ثوان. . . فتّاح. . . فلاّح. . . مفتوح. . . فتّوح. . . فـ. . . رأيتُه البارحة. . . حمل لي ربطة نعناع طريّ جميلة. . . هو رجل طيب. . . قل لي، ما اسمه؟ وعدني بالعودة ليسلّمني قسائم الزيت والطحين. . . الحرب توشك أن تتوقف. . . آمُلُ يا ولدي أن يُوَلّي هذا الزمن العصيب الذي يُوَزَّعُ فيه القوت على الناس مقابل قسائم عوض الفلوس التي كانت منعدمة. . . ماذا؟ تقول إنك كان عمرك عشرين عاماً، وكنت تريد أن تتزوج بـ . . . ما اسم تلك الفتاة ذات الشعر الطويل؟

خلدتْ أمي إلى النوم وهي تحاول أن تتذكر اسم فقيه المسيد. هي لحظات عابرة تغيب فيها فتكفّ عن الوجود، عيناها نصف مغلقتين، فمها مفتوح، ورأسها مائل. يعزّ عليّ أن

أراها في هذه الحالة. فكأنها حزمة عظام مهترئة، شيء منخور لا يتماسك، يتداعى إلى الانهيار، ينكمش، يصبح بدون معنى. . . أمي تتنفّس. . . أراقب صدرها الذي يعلو وينزل وأنتظر.

هذا يذكّرني بالعام 1977 حين أُجريت لها عملية جراحية على عدسة عينيها في مستشفى سلا. بقيتْ ثلاثين يوماً معصوبة العينين، طريحة الفراش على ظهرها. كنتُ أقضي معها وقتاً طويلاً، إذ كان لازماً أن أحرسها حتى لا تنزع الضمادات من فوق عينيها. أخي لا يأتي إلاّ بعد أن يفرغْ من عمله في نهاية النهار. أما أنا، فلا رئيس أو مدير يحكمني، ولا أبناء يشغلونني. فالكاتب يتمتع بحرية التصرف في وقته. كنتُ أكلّمها، وهي تقصّ عليّ وقائع وحكايات تخص العائلة، فتوصيني بألاّ أكتب عنها أو بأن أكتب من غير أن أسمّي الأشخاص بأسمائهم في تلك الفترة، كنت أكتب روايتي «Moha le Fou, Moha le Sage». كنتُ في حالة غضب قصوى. مستاءً من كون المغرب أصبح دولة بوليسية بتواطؤ مع من كانوا يزعمون أن السياسة لا تعنيهم ويكنزون الملايين بلا حياء على حساب الشعب، جاعلين من الرشوة نظاماً في العيش. ما زلت أتذكّر تلك اللحظات حيث كنتُ أسوّد الأوراق تلو الأوراق، عين على أمي النائمة، وعين على دفتري، والحنق يعصر قلبي. لم تكن لأمّي فكرة عمّا أنا بصدد كتابته. كانت تنصت إلى صرير القلم على الأوراق وتقول لي: «احذر يا ولدي. . . أنا خائفة عليك»! فكنتُ أطمئنها. لكنها تسألني هل تم العثور على الابن الأكبر لجيراننا وهل توصّل والداه إلى أخبار

حول مصيره. اختفاؤه كان يشغل بالها. تضع نفسها مكان والديه، فلا تفهم لماذا يختفي، بين عشية وضحاها، شابٌّ لم يرتكب أي ذنب! لا تتكلم عن المَلك ولا عن وزرائه، لكنها تقول إن رجال البوليس متوحشون ولا قلب لهم. تفكّر في ابن الجيران الذي انتزعه من أسرته رجال شرطة مدنيّون. هي ذي دولة البوليس: التعسف والعنف والقسوة! كم من أمّهاتٍ تعذّبن وربما فارقن الحياة ألماً بسبب أمر جائر أصدره البوليس باختطاف وإخفاء أحد أبنائهنّ لأنه تظاهر للمطالبة بالعدالة والديمقراطية! لقد عرف المغرب سنوات سوداء تمّ فيها قمع كل معارضة، حتى ولو كانت عادية وبدون عنف، معارضة بالأفكار...

أ ولدي، ابتعد عن السياسة، دعك من مخاطرها، لقد أرادوا قتل السلطان خلال احتفاله بعيد ميلاده، مات كثير من المدعوّين، وكتب الله له النجاة، ثم حاولوا قتله مرة أخرى في السنة التالية... أنا أتذكّر هذا جيداً... أصابنا الفزع... كنّا سنموت نحن كذلك لو قتلوه... أعرف... نحن لا علاقة لنا بالسياسة... لكنك أنت عوقبت، فالعسكر لا مزاح معهم... كانت أيّاماً مظلمة! الخوف... الخوف في كل مكان... المتسوّلون والخدم يتجسّسون على العائلات... كل الناس يرتابون من كل الناس ويحذرونهم... لعلك تذكر أحد زبناء والدك، هو أيضاً قبضوا عليه وسجنوه لأنّ له أخاً في الجيش ربما شارك في محاولة الانقلاب ضد السلطان... فالعائلة كلها تعرّضت للعقاب... الله ينجّينا من العسكر وأفعالهم.

إنها تتذكّر جيداً هذه الحقبة. كما أنها لن تنسى أبداً محنة العملية الجراحية التي أجريت على عينيها. ما تزال تتحدث عنها: تعذّبتُ كثيراً... شهر كامل وأنا مستلقية على قفاي بدون حركة... يغمرني الظلام ولا أنهض من الفراش... أذكر أنك كنت تكتب في أوراقك، وكنت أنا أفكر في المسكين ميلود الذي اختفى وانقطع حسّه... أبوك كان شديد التذمّر لأنه بقي وحيداً في طنجة... فكّرتُ فيه... غير أنني لا أخفي عليك أن غيابه شهراً كاملاً أراحني كثيراً... الزوّاج يا ولدي هو أيضاً تلك العادة التي تصبح ثابتة فتتحوّل إلى تعب دائم ومحنة قاسية... كنتُ أنا أفكّر في صحتي، وكان هو يرغي ويزبد لأن الخادمة لا تتقن مثلي فنّ الطبخ... كان له أسلوب خاص في الثناء على موهبتي في الطبخ! على كل حال، كل هذا قديم... وكتابك؟ هل تمّ نشره؟ كدت أنسى... أعطني نظارتي بسرعة... أريد أن أشاهد التلفزيون الذي ينقل الآن صلاة الجمعة... لكن... أَيْمَّا... نحن في يوم الاثنين والتلفزيون لا ينقل الآن وقائع صلاة الجمعة، بل يعرض فيلماً مكسيكيّاً بالعربية الفصحى! آه... أعرف، فبصري يضعف، لكنّ سمعي ممتاز... أُنصت جيداً إلى القرآن... ما أجمل صوت هذا المقرئ الذي يرتّل القرآن الآن! لا أَيْمَّا... لا أحد يرتّل القرآن الآن، هذا يحدث في رأسكِ، إنكِ تسمعين صلوات بعيدة... إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني إذن أن ساعتي قد حانت... هيّا، بسرعة... يجب تجهيز الصالون واستدعاء الطلبة ليقرأوا القرآن على جثماني... سأرحل في واضحة النهار... كن

مستعداً لذلك. . . أريد سهرة بهيجة يحييها أحسن طلبة المدينة، يرتلون خلالها القرآن وينشدون المدائح النبوية. . . أوصيكم بأن تحسنوا استقبالهم وأن تكرموهم، فلا بد من أن ينصرفوا مسرورين شبعانين. . . أطعموهم جيداً. . . لعل من الأفضل أن تكلّفوا مُمَوِّنَ حفلات بإعداد الأكل. . . يبدو أنهم يقومون بعملهم بسرعة وفعالية، يحلّون المشاكل. خاصة في الجنائز، حيث تكون عائلة الميّت المكلومة منشغلة بأمور أخرى غير تحضير الطعام لكل الناس الذين يفدون من المدن لتقديم التعازي. . . إذن، لا تنس مموّن الحفلات، ثم تلاوة القرآن والمدائح النبوية، ثم عود البخور الوارد من الجنّة رأساً. . . تعال. . . اقتربْ مني لأقول لك سرّاً. . . لقد خبّأتُ عود البخور في مكان آمن لتعطّروا الدار به يوم تشييع جنازتي. . . لكن. . . أين خبّأته؟ يجب عليك أن تبحث عن المكان الذي خبّأته فيه. . . لكن، أين؟ يا إلهي. . . لم أعد أتذكّر. . . يا للمصيبة! تخونني ذاكرتي في وقت أنا في أمسّ الحاجة إليها. . . إنه بخور حملته لي ابنتي ثريّا من لَلاّ مكّة. . . بخور لا مثيل له، قوي، رفيع، جدّ معطّر. . . لكنني لا أذكر أين خبّأته. . . عليك أن تبحث عنه بسرعة. . . إيّاك أن تسأل كلثوم عنه. . . فهي تستطيع أن تجده وتستولي عليه. . . فتّش عنه في الدولاب، في الأدراج. . . سترى أنه ملفوف في منديل أبيض. . . يا ربي، ساعدني على التذكّر. . . لكن. . . أَيْمّا. . . سأشتري لك من من عود البخور هذا كمية كبيرة. . . الأساس هو أن تفوح رائحة بخور الجنة. لا تقلقي، ستكون جنازتك بهية جميلة. أعدكِ

بذلك. يمكن لكِ أن تنامي مطمئنّة البال. سأتكفّل لكِ بذلك مع إخوتي.

أمي تتكلّم عن جنازتها كلما انتابها الإحساس بالملل. هذا أمر يلهيها ويطمئنها، بل ويجعلها تتفنّن في تعداد لوازم المناسبة وشروط نجاحها. فالأمر بالنسبة إليها هو مسألة لباقة وكرامة... أن ترحل عن الدنيا بخفة... أن تعفي العائلة من المشاكل الزائدة... أن تترك ذكرى جميلة، انطباعاً جميلاً. هي مقتنعة بأن الموت مصير منطقي، أو بالأحرى تتمنّى أن يكون كذلك: لم يعد لي وقت طويل أعيشه... هذا طبيعيّ... فالموت حقّ علينا... لكنّ ما أرفضه هو أن يخطئ الاختيار، فيخطف منّي أحد أبنائي... هي ذي الكارثة التي لن أحتملها دقيقة واحدة... أسأل الله أن تكونوا أنتم مَنْ سيشيّعونني إلى داري الأخرى، وليس العكس... أتمنّى ذلك وأدعو الله دوماً أن يحقق أمنيتي... لكن... من يستطيع أن يكتنه نوايا الله تعالى؟ لا أحد يستطيع ذلك... على كل حال لستُ أنا من يستطيع ذلك... لقد علّمني والدي ألاّ أفكّر في الله بطريقة أخرى غير الصلاة، ولذلك كنت دائماً وفيّة بالصلاة... المشكلة اليوم هي أنني أنسى أن أتوضّأ، وأصبحتُ عاجزة عن أداء الفريضة كما كنتُ أفعل... أكتفي بالتّيمّم... لكن... أين هي حجرة التّيمّم السوداء؟ ها قد ضاعت مني مرة أخرى... ابحثْ معي عنها... انظر تحت السرير، فهي أحياناً تزلق من يدي تحت الغطاء وتسقط في الجهة الأخرى من السرير... آه! هذه الحجرة المقدسة تعوّض الماء... يكفي أن تمرّر يديك عليها وتمسح وجهك

ويديك، ثم تؤدي صلاتك... قل لي، هل وجدتها؟ لا شك في أن كلثوم تعمّدت أن تخبّئها حيث لا أستطيع العثور عليها... أختك عادت إلى دارها بفاس... تقول إنها تملّ هنا، وإنّ التلفزيون عندنا لا يبثّ برامج مسلّية... والحال أنها انصرفت لأنها لا تتفاهم مع كلثوم... تتخاصمان باستمرار وأنا وسطهما أتفرّج دون أن أستطيع شيئاً، لأنّ ابنتي لن تغفر لي انحيازي إلى كلثوم، ولأنّ هذه ستتخلّى عنّي إذا وافقتُ ابنتي ضدها! هل ترى إذن أين توجد المشكلة؟ طيّب... الحجرة السوداء... هل وجدتها؟ ها أنت ترى أنني لم أنسها! فذاكرتي جيدة... لكنّ الذكريات القديمة تعود إلى الظهور كلّما تقدّم المرء في السّنّ... البارحة مثلاً، أمّي زارتني... كانت في أبهى أناقتها... قالت لي إنها تخلّتْ نهائيّاً عن أدويتها لأن النبيّ داواها... هي محظوظة... وأنت كذلك، يا أخي من أمّي، جاءك الموت في الصيف حين كنتَ تقضي إجازتك عند ابنتك في دارها بالبحر... لكن... ليطمئنّ بالك، فأنت حيّ يرزق... أكلّمك وأنت شارد النظرات... أعرف أنك ستقول لي إنك ولدي، أصغر أبنائي، وإنني لا أفرّق بينك وبين شخص آخر... هذا أمر خطير... لكنّ المهمّ هو أن أملأ وقتي... عجباً! المطر يهطل... أنا لا أحبّ المطر... لا أحبّ الريح... لا أحبّ البرد... مللتُ يا ولدي... أتكلم كثيراً... أصبحتُ ثرثارةً... سأخرس... سأختلي بنفسي لأصلّي... سأدعو لك ولإخوتك بالرضى والستر...

[21]

أحاول أن أفكّر في أمّي ميّتةً. أبذل جهداً لأخمّن ما قد يقع من أشياء. أتخيل فراشها فارغاً، وغرفتها غير مرتّبة أو خالية من الأثاث، وسبحتها مرميّة على الأرض، وعلب أدويتها غير موجودة في مكانها. أرى العدم يستولي على حياتي، يمنع النوم عنّي، يبذر الألم في مفاصلي. أنظر إلى وجهي في المرآة فأرى أنني شِخْتُ، فجأةً شِخْتُ، ازداد جسدي تجعّداً، عيناي حزينتان، انطفأ وهجهما، تقعّرتا. أتخيل أمي غير موجودة حيث تركتها آخر مرة. ذهبتُ. أسمع فتّاح، طبيبها وصديقي العزيز، يقول لي في التلفون يجب أن تعود في أقرب وقت ممكن، لا أعرف كم ساعةٍ سيُمهلها اللهُ، لكن خُذْ أول طائرة، أنت تعرفني، فليس من عادتي أن أزعجك من غير سبب يدعو إلى ذلك. أنا لا أهوّل الأشياء. هي في أسوأ حال. القلب... نعم، خار قلبها. إلى اللقاء. أو أسمع ما هو أفظع من هذا من خلال رسالة مسجّلة في الجهاز: ذو الأمانة أخذ أمانته! رسالة مجازية، لكنها في تمام الوضوح. ففي المغرب لا يُقال عند الإخبار بالوفاة إنّ فلاناً مات، هكذا وبكل عنف وتهوّر. هذا لا

يقال. فالنّاعي يحتاط ويتكيّس، إنه يختار كلماته، ويحاول أن يغلّف الرّزيّة بتعابير دينية من نوع استرجع الله ما أعطاه، أو الله يرزقكم الصبر، أو فلانة مَشَتْ عند الله، وكأنّها سافرت عند بنت خالتها! فلا بد من انصرام وقت طويل قبل أن يقال عن فلانة: إنها ماتت...

أنا لست متطيّراً ولا مؤمناً بالخرافات. أكتب هذه الجمل وأنا أفكّر بقوة في أمي. نحن في أحد أيّام الثلاثاء من شهر دجنبر. أمي لا تحبّ يوم الثلاثاء هذا. تتجنّب دائماً أن تسافر أو أن تقوم بعمل مهمّ في هذا اليوم. أراها في غرفتها. الضوء خافت. التلفزيون مُشَغَّلٌ. نحن في شهر رمضان. صوتٌ يرتّل القرآن. تنادي كلثوم فقط لتؤانسها. تشتكي لأنها تعتقد أنني نسيتُها، بيد أنني كلّمتُها في التلفون قبل ثلاثة أيام فقط. لا أريد أن أتلفن لها كل يوم. أحاول ألاّ أعوّدها على هذا. ومع ذلك، فهي تنسى. لا تتذكر متى حدّثتها آخر مرة. لا تفرّق بين الأوقات مثلما تعتقد أنني شخص آخر. هذا لا يصدمني. أتفهّم هذه البلبلة وهذا التشوش، فَأُفَضِّلُ ألاّ أعيرهما اهتماماً وألاّ أنبّهها إلى أنها تخرّف. ذات يوم، تَسَلَّتْ أختي باختبار ذاكرتها، فارضةً عليها أن تتذكّر أسماء جميع أحفادها وحفيداتها وأبنائهم وبناتهم. لم يعجبني أن تخضعها لهذا الامتحان. أنا أيضاً لديّ مشكلة مع الأسماء. لا أنسى الوجوه، لكنني لا أحفظ دائماً أسماء من ألتقي بهم. لذلك، فأنا أعذر أمي حين تتشوّش عليها الأمور فلا تتذكّر اسم كل واحد. هذا ليس حتماً علامة على الحمق ولا على الشيخوخة.

أراها جميلة لم تكبر بعد، جالسة قبالة البحر في السطح المشمس لدارنا الأولى في طنجة. تنظر إلى المنازل المبنية على جنب الجرف. تلاحظ أن عددها يتكاثر وتقول ما أتعس أولئك المساكين، يعيشون في حالة مزرية! تبدو سمينة قليلاً. صدرها المكتنز وقامتها الصغيرة يوحيان بأنها سمنت. لا تحبّ ريح الشرق الذي يداني الشواطئ المغربية. في فاس، كنّا في منأى عن الريح. هي مقتنعة بأن الريح، منذ الأزل، لم تتجرأ على مسقط رأسها. ريح الشرق هي أعتى غضب يحلّ بطنجة، تكنس كل شيء في طريقها، تضطرّ الناموس إلى الفرار، تطرد الروائح الكريهة وتُبعد العين اللاّمة. لكنها توتّر الأعصاب وتسبّب ألم الشقيقة. ولأن أمي تعرف أن والدي سيصبّ جام غضبه بسبب تبرّمه من هذه الريح، فإنها تخاف منها.

نعم يا ولدي... في فاس نجّانا الله من هذه الريح العاتية ومن الغبار الذي يعمي العيون ومن الناس الذين يغضبون ويسخطون بسبب تقلّب أحوال الجوّ. أما هنا، في طنجة، فكل شيء مختلف... هل تذكر؟ كان أخي الأصغر يقول لي إن طنجة هي بلاد النصارى، يعتقد أننا لم نعد في وطننا المغرب، بل أصبحنا ضيوفاً على الفرانسيس... كنت أشعر بالغربة... هذا أمر طبيعي... كنتُ بلا صديقات ولا أهل في طنجة... أفتقد فاس وأفتقد عائلتي وأفتقد ضريح مولاي ادريس... طنجة كانت بالنسبة إليّ المدينة التي سلبتني كل شيء، شبابي، صحتي، عائلتي، ولم تعطني شيئاً... لم أذق فيها سوى ما ينغّص الحياة... أبوك كانت أعصابه دائماً هائجة، وأبوها لم

يكن لطيفاً معه. . . على كل حال، لقد ماتا معاً، أسأل الله أن يعفو عنهما. . . لقد تحمّلتُ من المعاناة والشقاء ما لا يطيقه بشر، فكنت راضية بما قسمه الله لي، عملاً بوصية أمي التي أحسنت تربيتي. . . آه! تذكّرتُ الآن. . . يجدر بي أن أناديها، فلا شك أنها وحيدة الآن في المدينة. . . لكن. . . أي مدينة؟ ساعِدني يا ولدي. . . رأيتها في الأسبوع الفائت. . . كانت آية في الجمال. . . أظن أنها في المقبرة بفاس. . . لكنها زارتني لرؤيتي، هي التي تكره طنجة. . . ساعِدني. . . أين هي؟ هل تراها؟ كلِّمها. . . قل لها إن المرض أنهكني وإنني سألحق بها حتى ولو أقلع القطار. . . تقول لي لا وجود لأي قطار؟ ما أبلهك! فأنا أعرف أن لا وجود لأي قطار أو باخرة. . . لكننا ملزمون بأن نتوسل بأي مركبة تحملنا لملاقاة وجه نبيّنا الصّبوح الوضّاء. . . الآن سأقوم للصلاة. . . ذكريات قدومنا إلى طنجة لا تفارقي. . . يجب أن أطردها لأستريح. . . كنتَ بعدُ صغيراً. . . أظن أننا أقمنا في خلفية متجر والدك، أقصد المتجر الذي وضعه عمك في تصرّفه ليستأنف تجارته. . . فوراءه كانت دار مظلمة. . . لا تقل لي إنك نسيتها، لأنك كنت لا تكفّ عن البكاء في الليل بسبب الكوابيس. كانت داراً أرهقتني كثيراً. . . في ذلك الوقت، كانت طنجة في أيدي النصارى. . . أبداً لم أعرف كيف أتعامل بنقودهم. . . كنت عاجزة عن تقدير ثمن الأشياء بالبسّيطة الإسبانية. . . أما نساء الريف فَكُنَّ يتعاملن بالرّيال. . . أنا لا أفهم لماذا لم يكن الناس يتبادلون بعملة فاس!

لا. . . أمي لم تمت. يكفي أن أناديها لأسمعها تقول لي:

يا ولدي. . . يا نور عيني. . . يا كبيدة قلبي. . . يا من اعتنيتَ بي دائماً. . . أبداً لم تتخلّ عني ولا نسيتني، أنت، يا من تسرع دائماً لنجدتي. . . ماذا عساي أكون بدونك. . . أظن أنني كنتُ سأكون غير ما أنا عليه لو لم تكن معي في محنتي، دائماً تسهر عليّ. . . يداك سخيّتان وقلبك كبير. . . على أهبة أنت باستمرار لتنقلني إلى الأعالي، لئلاّ أتعذب، وخاصة لكي لا يعوزني شيء. . . أنت ولدي، سيجازيك الله على قدر ما ضحّيتَ به من أجلي. . . أعرف أن ثروتك هي طيبتك. . .

[22]

وصلتُ إلى طنجة قبل نهاية شهر رمضان بأيام قليلة. نحن في شهر دجنبر. الفيضانات في جنوب إسبانيا بالأندلس. المطر يهطل مدراراً في طنجة. والصوم يجعل الناس سريعي التأثر والانفعال بل وعدوانيّين، خاصة في نهاية النهار.

أمي ترفض أن تأكل وخاصة أن تأخذ أدويتها. تقول إنه شهر رمضان... وحدهم الكفّار يستطيعون التجرؤ على الأكل بين شروق الشمس وغروبها. تذكّرها كلثوم بأنها مريضة وبأن الله يرخّص للمرضى عدم الصيام. تعترض أمي وترفض أن تأكل. هل هو إفراط في الإيمان أم أن الخبل والهذيان يعاودانها؟ هل تكون ببساطة نسيت أنها معذورة مثلما نسيت أن والديها وإخوتها وزوجها موتى؟

لدى وصولي، لم تستقبلني بترحاب كبير. لعلني بالنسبة إليها غريب أو أحد إخوتها الذي ربما خاصمته. لم تتعرّف عليّ، فأحسستُ بقليل من الخيبة. لم أحتجّ، إذ لا فائدة في الاحتجاج. سألتُها من أنا. لكنك عزيز... تزورني كل يومين مرة... زوجتك دائماً مريضة... وأبناؤك تزوجوا من غير أن

يخبروك... لم تعد تذهب إلى متجرك... تقضي وقتك مع زوجتك في الدار... لعلك تملّ كثيراً... ثم تردف باكية: هل تعرف؟ خالتك، أختي، أختي الصغرى، ماتت البارحة... زارتني في الأسبوع الماضي... كانت في صحة جيدة، تتكلم وتضحك وتضحكني... ماتت وهي نائمة... تَعَشَّتْ... شورباء بالخضر... صلّت العشاء... ثم جاء الموت وخطفها... غريب... كانت بعد صغيرة... أنا أراها الآن هنا، قبالتي... هي في قلب عيني... كأنّها ستكلمني... هذا ظلم... لكن لا تبديل لمشيئة الله...

كدتُ أن أصدّقها، خاصة وأن ما قالته قابل لأن يكون وقع فعلاً. كانت تتحدث بيقين واقتناع. لكن كلثوم أشارت إليّ بأنها تهترف وتخرّف. كلّمتُ خالتي بفاس في التلفون وطلبتُ منها أن تنادي أمي لتطمئنها، فتقول لها إنها لم تمت بعد وإنها تتمتع بكامل عافيتها. ضحكت خالتي ووعدتني بأن تتصل بها فوراً.

تخيم على الدار كآبة قاتلة. كانت في وقت مضى جميلة تحيط بها حديقة. لم تكن داراً تقليدية، لكنها كانت ذات سحر عتيق. كان لها شيء ما يبعث على السكينة والطمأنينة. قبل هذه الدار، كان والداي يسكنان في منزل يشرف على البحر، يقع في أعلى جرف مارشان. أمي لم تكن تحبّ هذا المنزل بسبب أزيز ريح الشرق كثيرة الهبوب وبسبب الجيران. أما في هذه الدار، فهما في مأمن. كان أبي يقول إنها متينة ولا يكفّ عن التباهي بأنه اشتراها من حاخام طنجة.

تقع في نهاية زنقة لا تنفذ، قبالة فيلاّ يسكنها زوجان

فرنسيّان عجوزان. كانت أمي معجبة بهما لأنهما لا يُحدثان ضجيجاً وخاصة لأنهما لا يرميان أوساخهما قريباً من باب دارها. تقول لهما «بونجور» وهي تضحك وتقدم لهما بين حين وآخر طبقاً من الحلوى.

مع مرور الوقت تشقّقت الجدران، وتقشّرت الصباغة، وتلِفت أنابيب الماء والحنفيّات، وتخلخلت الأبواب والنوافذ. فلم تكن لوالدي الإمكانيات اللازمة للحرص على الصيانة، فكانت أمي تتألم لذلك. كانت الدار على شاكلة والديّ المريضين: فكل شيء يتعطل ويفسد ببطء وهما عاجزان عن إصلاحه. بل إن أبي حدث له ذات مرة، وهو يعاني من فورة حمّى، أن تقمّص حالة الدار... انتهيتُ... تصدّعتُ من كل جانب... القنوات انسدّت... رأسي امتلأ بالثقوب... رجلاي لا تكادان تحملانني... أرفض أن أمشي متّكئاً على عكّاز... بصري يضعف يوماً تلو آخر... هذا يلائمني، لأنني لا أرى الأشياء التي لا تعجبني... جميع أعضائي وقدراتي تخونني... أنا دار مهجورة، خاوية، دار بدون سقف، بدون أبواب... تكدّرني الكوابيس... لو كان لي مال لأصلحتُ كل الأعطاب، لرمّمتُ كل شيء، لجعلتُ من هذه الدار قصراً جميلاً... لكنني لست سلطاناً... أنا مجرد رجل عجوز ينهار يوماً بعد يوم بسبب الأعباء والوقت الذي لا يرحم... أنا دار تتداعى للسقوط... لا شيء يعمل كما يجب أن يعمل... التلفون معطّل... تاريخ صنعه يعود إلى عهد السبنيول، فلا بدّ من تبديل أسلاكه باستمرار، التي لم أعد أجدها عند المدني،

بائع العقاقير، لكثرة قدمها. . . باختصار، الزمن نخر كل شيء في هذه الدار التي تشرف على الموت كما أنا. . .

نوافذ الصالون مفتوحة لطرد رائحة الرطوبة، لكن دون جدوى. الرطوبة تسكن في هذه الدار منذ الأزل، ترشح من كل مكان وتزيد في ضغط الكآبة. كلثوم والخادمة الأخرى مرهقتان. أمي تزداد مشاكسةً لهما يوماً بعد يوم. ألمس هذا من تقطيب وجهيهما ونفاد صبرهما. إحداهما تقول لي أنا في حاجة إلى عطلة، أَرْسِلْنِي إلى مكة لأنسى هذا الوْيل. والأخرى لا تقول شيئاً وإن كانت تريد أن تذهب إلى حال سبيلها، لكنها لا تجرؤ على ذلك، لأنها عاهدت أمي ألاّ تتخلّى عنها أبداً.

أختي ذهبت إلى مكّة للمرة الخامسة. يقول أخي إنها تجد دائماً ما تتذرّع به لكي لا تسهر على صحة أمها. أرجوه ألاّ يحكم على الناس بهذه الطريقة الاعتباطية، فيقرّ فوراً بخطئه. يقول لي إنه، في بعض الأحيان، يحدث له أن يتخيّل أمّنا في دار للراحة أو ملجأ للعجزة والمرضى. ثم يعدل قائلاً لا، أنا لا أراها في غرفة محاطة بممرّضات. . . ستحسب نفسها في عيادة أو مستشفى وستخور معنوياتها. لا. . . هذا غير ممكن. . . هذا غير لائق. . . أنا أيضاً لا أراها في مكان آخر غير دارها. . . أجلس بالقرب منها. . . أضع يدها في يدي وأنا أحدّق في الرسوم الغريبة التي تُشكّلها تشقّقاتُ الجدار. . . أحب أن أمسك يدها، وهو ما لم أفعله منذ صباي. . . إنها الآن في تمام صحوها وسكينتها. . . تضغط يدي. . . تسألني عن ابني المعاق: ماذا يقول الأطباء؟ هل سيتمكّن في يوم ما من الكلام؟

الله يحفظه ويُقدره على الكلام... اصبر... فالأبناء نِعْمَةٌ من الله... يريد اللّه أن يمتحننا بهم، فيرى كيف نعاملهم... يهمّك يا ولدي أن تعرف هذا... إنهم ملائكة لا يمكنهم فعل أشياء قبيحة... في فاس تتمّ زيارتهم كما يزار الأولياء... إننا نحبّ أن يعطونا بعضاً من طيبتهم... ولدك منحة لك من الله... يلزمك أن ترعاه، أن تراقبه حيثما حَلَّ، ألاْ تتركه وحيداً... لكن... ماذا يقول أطباء فرنسا؟ هل هم متفائلون؟ هل تمّ ختنه؟ ماذا تقول؟ أنا لا أذكر ختانه... وتقول إن الحجّام ختنه في داري! هذا شيء نسيته... وهل احتفلنا بختانته؟ ختن الأولاد واجب، فنحن مسلمون، أليس كذلك؟ هذا الولد يحبّني كثيراً... يقبّلني بلطف... يمسك بيدي ويعرف أنني مريضة... يقول لي أشياء لا أفهمها... يجب عليك أن تذهب به إلى الوليّ مولاي إدريس، حامي فاس... قل له إنك من جهتي... ابتهلْ إليه... أنا واثقة بأنه سيرضى عنه وسيداويه! جيراننا لهم ولد مثله... يتركونه في الشارع... يحدث له أن يدفع باب دارنا ويجالسنا إلى مائدة الطعام، وحين يشبع، ينهض وينصرف... لكنّ ولدنا ليس مثله... لا يقتحم منازل الناس الذين لا يعرفهم... ينبغي حراسة هذا الملك! ما هو عدد أبنائك؟ عفواً... سبق لك أن قلت لي عددهم، لكنّ ذاكرتي تخونني... إذن، لك أبناء... وامرأتك، أين هي؟ لماذا لا ترافقك؟ آه... إنها هنا، إلى جانبي، أنا لم أرها، قل لها إنّ بصري يضعف باستمرار... تعال، اقتربْ مني... أعطها هذا الدملج... قل لها أن تحتفظ به لتعطيه إلى ابنتك في

حفلة عرسها... أمّي أعطتني إيّاه البارحة... جاءت لتطمئنّ عليّ... كانت بيضاء من رأسها إلى رِجليها... لا تتكلم... اقتربتْ منّي ودسّتْ هذا الدملج في يدي، ثم اختفت... إنها غير ظريفة معي... سأتشكى منها إلى أبي حين يعود من مكة.

مع نهاية شهر رمضان، عادت الأشياء تقريباً إلى وضعها الطبيعي، فَخَفَّتْ حالة التوتر والتذمر في الدار. كلثوم أعجبها أن أمدّد إقامتي في طنجة. أما أمّي، فلا تذكر عدد الأيام التي قضيتُها إلى جانبها. تطالب برؤية الأولاد، لا أبنائي، بل أبنائها، أولئك الذين لم أسمع بهم من قبل. اختلقتهم. تحدثني عن الكبار الذين يأتون ليأكلوا، ثم ينصرفون من غير أن يقولوا لي كلمة واحدة. تسأل عن أبنائها الصغار أين ذهبوا، أولئك الذين ولدتهم وهي بَعْدُ صغيرة. أطمئنها... إنهم في المدرسة، في المسيد، أليس كذلك؟ في الجامع يحفظون القرآن... نعم... أَيْمَّا، إنهم في المسيد يحفظون القرآن... نحن جميعاً في المسيد المعلوم في بوعجّارة... كلنا بفاس بعد الحرب حين كنّا نتقاسم طعامنا مع أبناء السبيل... البرد قارس في فاس، والمسيد غير مدفّأ... أسناننا تصطكّ من شدة البرد، عاجزين عن حفظ القرآن... يطلب منا الفقيه العجوز أن نستظهر جماعةً سورة يس... يقول لنا إن استظهار هذه السورة جماعةً يدفئ القلوب ويشرح الصدور... كنّا نتلاصق لنستدفئ، فكان بيننا مَنْ تفوح منه رائحة كريهة، ومَنْ يغتنم الفرصة ليقرص ردفيْ هذا، ومَنْ يحاول إيلاج وسطاه في إست ذاك... كان ذلك لعبة وإهانة في الوقت نفسه... عند خروجنا من المسيد، كان يُشار

بالإصبع إلى المنكود الذي لم يُبْدِ أية مقاومة، فيُنعت بالبنت، وهو ما كان يمثّل شتيمة كبرى. . . حينئذ كان يتشكّل فريقان، أحدهما يضمّ الضعفاء، والآخر يضمّ الأقوياء الذين لهم سلطة على الضعفاء. . . أما أنا، فكانوا يراعونني لمرضي وضموري، واصفين إيّاي بالحكيم الذي توكل إليه مهمةُ فضّ النزاعات. . . ذات يوم، كان الفقيه مغتاظاً، فانهال علينا بالقضيب يضربنا دون أن يستثني أحداً، فكان نصيبي أنْ تلقّيتُ ضربة قاسية على رأسي جعلت الدم يسيل منه. . . في المساء، تسلّح أبي بسكّين كبيرة وقصد دار الفقيه ليقتله. . . رافقه الآباء الآخرون. . . فخرج الفقيه، يداه خلف ظهره، مطرق الرأس، إشارةً إلى الخضوع والندم، وطلب السماح. . . فتنفّس أبي الصعداء لأنه لا يتصور نفسه قاتلاً أحداً بسكين.

كان المسيد فضاء غريباً يحفظ فيه الطلبة القرآن من غير أن يتعلموا القراءة والكتابة. فكان آباؤنا يعهدون إلى الفقيه تحفيظنا القرآن. بيد أن أمي كانت دائماً تنتقد انعدام النظافة في المسيد، فلا تقبل أن تجد القمل في ملابسي. . . فكانت تقودني عند الحجّام ليحلق شعر رأسي عن آخره، وهو ما كنت أكرهه، فأبكي ضارباً الأرض برجلي. . .

لم تعد أمي تقوى على الوقوف. . . وقعتْ مرة أخرى على الأرض. لا كسور، لكنها تشعر بالألم في كافة أنحاء جسدها. تتحمله وتقول إنّ عظامها أصبحت شفّافة. . . إنها متلاشية كأوراق الشجر. . . لا. . . أقصد مثل عجينة مرقّقة هشّة. . . أجل. . . هي ذي العبارة المناسبة لوصف حالة عظامي. . .

أسقط باستمرار، إذ يكفي أن أُرْخِيَ قبضتي لأنهار... قدماي أصبحتا عاجزتين عن حملي... أجرجرهما... تخلّتا عنّي مثلما خذلتني صديقاتي القديمات... خارت متانتهما لفرط ما حملتاني... عيناي أيضاً لم تعودا قادرتين على إدراك الأشياء والتمييز بينها... هذه حالة غير حديثة... لكنّ كل يوم يمرّ يسلبني نسبةً من بصري... عيناي تنطفئان ببطء... النور يهجرهما دون توانٍ، فأقول إنّ نور عينيّ هو أنتم، أبنائي... عجباً... أبنائي لم يأتوا لزيارتي منذ وقت طويل... إلاّ إذا نسيتُ... أجل... أنا أنسى... ما أقسى أن يفقد الإنسان ذاكرته! والغريب هو أن أحداثاً قديمة تتوارد إلى ذاكرتي وكأنها نابعة من أماكن قصيّة... لا أتعرّف عليها... لعلّها أحداث وقعت لغيري... أحداث أخطأتْ طريقها حين قصدتني... خذ مثلاً أنني أرى نفسي، وأنا بعدُ صبية، راكبة على حصان... فهذا غير صحيح... أنا لم أركب أبداً على أي حيوان... تشوّشني هذه الرؤى التي تتعاقب مختلطةً في ذهني... أراك مثلاً وأنت صغير... وفجأة أرى والدي يضمّك فرحاً إلى صدره... وحين أقترب، ألاحظ أن من يحتضنه والدي صبيٌّ آخر غيرك... والدي نفسه أرى أن وجهه غير مألوف لديّ... تشوّشتْ عليّ الأمور يا ولدي بسبب كثرة الأدوية التي أتجرّعها دون توقف، فتتلف عقلي... ومع ذلك فأنا أقاوم... قل لي، أي أكلة تريد أن أحضّرها لك للغداء؟ سأذهب إلى المطبخ لأهيّئ لك أكلتك المفضلة... لكن، أين الخادمتان؟ هل رأيت؟ أناديهما ولا تردّان عليّ! ها هي الرؤى

والصور تتراقص مرة أخرى أمام ناظري... لا... أنا أهرف... فلا شيء أمامي أراه... الغرفة معتمة... هيّا، أشعل المصباح... تعوزني الشمس منذ رحلنا إلى هذه الدار... فكأنّ فصل الشتاء يسكن عندنا... شتاء طويل... كنتُ أحبّ دارنا في فاس حين يقرس البرد، فيجمّد أصابعي وطرف أنفي، وأتدثّر بعدة أغطية صوفية وأنا أرتجف ضاحكة... اليوم أصبحت الأغطية خفيفة مهترئة، مصنوعة من مادة أخرى غير الصوف لا أعرفها... حين تمسك يدي، تدبّ الحرارة في قلبي... عِدْنِي أنك لن تنقلني إلى الدار الأخرى التي تطلّ على البحر... فأنا لا أحبّها... أريد ألاّ أخرج من داري هذه... أنا واثقة بأنك لن تتركني أموت في غرفة مستشفى... أشعر بالسعادة حين تكون بجانبي... غِبْتَ عني طويلاً هذه المرة، أليس كذلك؟ عشرون عاماً! ماذا تقول؟ تقول إنك بجانبي منذ شهر! إذن فأنا أهذر في كلامي... آه... حتى لا أنسى مرة أخرى... خذ هذه القسائم لإحضار الزيت... فأنا في حاجة إليه لأهيّئ أكلتك المفضلة... خذ حذرك... فالمدينة ملوّثة بالأجانب الذين يحاربوننا... تسألني عن أخي؟ لا... عن أخيك، يعني ولدي... نعم... إنه يزورني أحياناً... هو جد مشغول... لا يمكنه أن يتغيب عن عمله... الإدارة لا تسمح له بزيارتي... هو يعمل في... ماذا يشتغل أخوك؟ هل هو طبيب أم بائع مجوهرات؟ لا أَيْمًا... إنه مهندس... آه... صحيح! مهندس في خريبگة... نعم... الفوسفاط... ينزل إلى باطن الأرض ثم

يصعد ليعطي توجيهاته إلى عمّال المناجم. . . خريبگة! مدينة فيها بحر. . . لا، أَيْمَّا. . . أخي في الدار البيضاء. . . أنتِ لا تفرّقين بين خريبگة والدار البيضاء! آه. . . صحيح. . . الرباط مدينة جميلة. . . لكن. . . أين أخوك؟ سيأتي بعد الظهر. . . قال لي مرة إن الدار تلاشت وإنها توشك أن تنهار. . . لذلك، فهو يريد ترميمها. . . لكن. . . أين سأذهب أنا؟ يقول سأكون مرتاحة في شقة بعمارة. . . أبداً. . . لن أذهب أبداً لأموت في شقة معلقة في الهواء. . . كيف سيمكن لكم إخراج تابوتي إذا متُّ في شقة معلقة في الهواء. . . كيف سيمكن لكم إخراج تابوتي إذا متُّ في عمارة؟ سينزلق من بين أيديكم وتتكسر عظامي فأتألّم لذلك. . . أما هنا، في داري، فسأخرج من الباب دون صعوبة. . . تماماً كما حصل مع والدك، فقد وصلت سيارة الإسعاف حتى باب الدار وأخذته. . .

غَفَتْ أمّي. . . تشخر وفمها مفتوح. غابت بعيداً. أُمسك بيدها، فتفيق لتواصل هذيانها:

إيّاك أن يخطر ببالك أن تبيع داري. . . قل لي، الناس الذين جاؤوا البارحة، جاؤوا فقط ليزوروا الدار، أليس كذلك؟ لا، أَيْمَّا. . . طبيبك وممرضته هما اللذان جاءا البارحة. . . ماذا تقول؟ أنا لم أمت بعد. . . ما زلت أعي الأشياء. . . أستغرب أن بعض الناس يستعجلون رحيلي! الله هو الذي سيقرر متى أرحل. . . لن أتركك تبيع داري. . . أنا أرفض أن أخرج منها. . . الله وحده سيخرجني من هذه الغرفة. . . لقد جهّزتُ كل شيء لجنازتي. . . إذا أرغمتني على الانتقال إلى دار أخرى،

فلن يكفيني الوقت لتجهيز الأشياء من جديد... عِدْنِي أنك لن تُقْدِمَ على بيع هذه الدار العتيقة... تريد كلثوم أن تعذبني، فتخبرني بأشياء رهيبة... تزعم أنها سمعتك تتحدث مع إخوتك عن بيع الدار... إنها تكذب، أليس كذلك؟ إنها تقول أي شي... تبالغ... لعلّ عينها على الدار... حدثتني مؤخراً عمّا سَمَّتْهُ «لانْطْرِيطْ»، تلك الفلوس التي يتقاضاها العاجزون عن العمل... أرجوك أن تعطيها بعض المال... فهي تستحقّه على رغم أنها تثير أعصابي وتقسو عليّ أحياناً... لكن... هذه حالة بني آدم! إنها تتحمّلني طول الوقت، ليلاً ونهاراً... لذلك، فهي تستحقّ وساماً... لا تنسَ أن تعطيها قليلاً من المال...

لا... لن أذهب عنده... أقصد أخاك... يريدني أن أذهب للإقامة عنده... لا... لن أخرج من هنا... أنا مرتاحة حيث أنا... أعرف أين توجد قاعة الحمّام والمطبخ والصالون... أخاف، إنْ أقمتُ في دار أخرى، أن أتلف، أن تضيع مني جميع نقط الاستدلال... لذلك، فأنا أتشبث بداري، تماماً مثل حمار يرفض أن يتحرك من مكانه... لعلك تذكر، حين كنّا في فاس، كان يحدث أن يتوقف حمار ويسدّ الطريق، فيعرقل حركة السير، خاصة حين تكون الطريق ضيقة... عبثاً يحاول صاحبه تحريكه بالضرب أو بإعطائه التبن، فهو لا يريد أن يتحرك من مكانه... رأسه هي التي تقول له هذا... إذن، فأنا حمارتكم... لن أتزحزح من هذه الدار... قل هذا لأخيك... وأنا سأقوله لوالدك... فلا أحد يستطيع تغيير موقفي...

لعلك مللتَ مني يا ولدي... أعرف أنني أضايقك... والدك كان على الأقل يُضحكنا... أما أنا، فتعوزني هذه الموهبة... مؤخراً، وفدتْ امرأةٌ لا أعرفها... كانت مهتاجة... فشرعت توبّخ كلثوم ورحيمو... بَكَتَا كثيراً... تقولان إن المرأة هي زوجة أخيك... لكنني لم أرها... إنهما تختلقان أشياء لإثارة الفتنة... لكن لا يحقّ لأحد أن يسيء إليهما... فمن الذي سيعتني بي إذا تخلّتا عني؟ أنا في حاجة إلى هاتين المرأتين، لذلك فأنا أصبر على طبعهما السيّئ... ماذا أقول لك أيضاً يا ولدي؟ أسأل الله أن يعينكم ويحفظكم جميعاً... كما أدعوه أن يُقَدِّرَ على بنات أخيك الزواج برجال من عائلة طيبة، أغنياء وخاصة من عائلة طيبة... ماذا تسمع أذناي؟ إنه والدك مغتاظاً لأنّ الرّصّاص لم يصلح طرادة الماء بالمرحاض وكذلك الصنبور الذي يسيل... أخذ الفلوس ولم يصلح شيئاً! أنا لا أطيق فورات غضب أبيك... لحسن الحظ أن كهربائيّاً أصلح ما فسد... من الآن فصاعداً، ينبغي إحضار كهربائي كلّما تعطّل شيء من لوازم الماء... هذا مهم... سأقوله لوالدك... فالناس أصبحوا يغيّرون مهنهم بسهولة... إنها الدنيا بالمقلوب! هي مقلوبة من زمن بعيد، ألم تنتبه إلى ذلك؟ انظر مثلاً إلى تلك الساعة الجدارية... تعطّل عقرباها، فتوقّف الزمن... هل تعرف لماذا؟ بكل بساطة لأن ميناء الساعة صدئ بسبب برودة الحائط... فالجدران هنا ترشح ماءً... عجباً! والدك تأخّر عن المجيء... من عادته أن يأتي للغداء في الواحدة... آه! إنه فصل الصيف... لعل تجارته نشطت هذه

الأيام، وهو ما يفسر تأخّره. . . ما رأيك لو قبِلت أن تحمل له غداءه إلى المتجر. . . سأجهّز القفّة بسرعة. . . خذ طريق الرصيف، ثم طريق مولاي إدريس، وستصل إلى الديوان. . . خذ حذرك من المظاهرات. . . فالفرانسيس نَفَوْا السلطان، وفاس كلها تغلي غضباً. . . ماذا يقول المتظاهرون؟ ألا تسمعهم؟ إنهم يصرخون: المغرب لنا، لا لغيرنا! أجل. . . إنهم يطالبون بالاستقلال. . . أخي معهم الآن، فهو استقلالي. . . هو وطني. . . وطني مخلص، صديق السي علاّل الفاسي. . . يجب أن أهيّئ من الأطعمة ألذّها وما يكفي لكي يشبعهم، لأنّ السي علاّل سيتغدّى عندنا. . . تدخل أمي إلى المطبخ. . . تحضّر أكلات عديدة في آن واحد. . . فالمناسبة تدعو إلى التعجيل. . . لا بدّ من مساعدتها. . . هل تسمع أصوات المتظاهرين؟ الفرانسيس يضربونهم. . . يطاردونهم. . . دروب فاس ضيقة. . . هذا يوم لا كالأيام. . . تعال يا ولدي. . . مُدَّ لي يدك. . . سنخرج لنسقي المتظاهرين. . . سنبقى في عتبة الباب وسنعطي الماء لكل من يعطش منهم. . . فاس تهتزّ يا ولدي لأنّ الفرانسيس خبثاء. . . أخذوا سلطاننا. . . ويريدون الآن أن يأخذوا أبناءنا! ومع ذلك، فما أحلى الإقامة بفاس! أحسّ بالراحة في فاس. . . بل إنّ فاس هي المدينة الوحيدة التي تقيني من المرض. . . لكن. . . أَيْمًا. . . نحن لسنا في فاس. . . كما أننا لسنا في صيف 1953. . . نحن في طنجة. . . وفي العام 2000! ماذا تقول؟ الوقت يمرّ بسرعة! احسب معي يا ولدي. . . كم عدد الأعوام التي قضيناها في

طنجة؟ خمسون عاماً تقريباً! لكن... أين كنت طوال هذه المدة؟ كأنّنا لم نأت إلى هنا إلاّ البارحة! ما زلتُ أشمّ رائحة الورد الذي يتمّ تيبيسه على السطح ليُستخرج منه، قطرةً بعد قطرة، عطر منعش يشرح النفس... تغمرني الآن هذه الرائحة... إنه الصيف إذن... ومع ذلك، أحسّ بالبرد قارساً... فهل يمكن أن أكون الآن في فاس وطنجة معاً، وأن يكون الفصل صيفاً وشتاءً في الوقت نفسه؟ هذا شيء غريب! إنه وجودك معي يا ولدي ما يلعب برأسي... رِجلي توجعني... لا أقدر على المشي... لا أستطيع أن أجري على رغم كوني فتاةً صغيرةً... ينبغي أن أصعد إلى السطح لأنشر الغسيل، ولأتحدّث مع للاّ خديجة... لكنّ رِجلي توجعني... إذا توكّأتُ عليها، فسأتداعى مثل الخرقة... لو كنتُ في وقت آخر مضى لكنتُ سأقول مثل القفطان... أما اليوم، فأنا مثل قطعة قماش ممزقة... أنهار فلا أستطيع الوقوف إلاّ بصعوبة... إنها والله لإهانة كبرى أن أسقط أرضاً وأنتظر أن تعينني إحدى المرأتين على الوقوف! كثيراً ما خشيتُ أن تدور بي الأيّامُ لتوصلني إلى الحالة المزرية التي أنا فيها اليوم، أي كومة تراب رخو، رزمة خِرَقٍ مكوّمة في ركن لا تستطيع حراكاً! أحسب الساعات والأيّام، فأخطئ لحسن الحظ... لا أدري اليوم أو الشهر الذي أنا فيه... يمكن لك أن تهزأ بي... فأنت على الأقل تضحك... لنقلْ إنني أُضحكك... هل تعرف؟ إن سقف مكان الغسيل يوشك أن ينهار... الدار كلها توشك أن تسقط بسبب القدم والبلل... التشقّقات في كل مكان...

سيأتي يوم لن يبقى فيه لا سقف ولا جدران ولا دار... هنا سيكون قبري... فلا داعي لنقلي إلى المقبرة... داري ستكون مثواي الأخير... لا... ماذا أقول يا سيدي يا ربّي؟ يجب أن أكون قدّيسة حتى أُدفن في داري... فوحدهم القدّيسون والأولياء هم الذين يحقّ لهم أن يُدفنوا في دورهم... وأنا ما أنا لا قدّيسة ولا وليّة... أنا مجرد امرأة متعبة...

[23]

كثيراً ما يكون التلفون معطّلاً. فهل يكون السبب هو قدم الأسلاك أو الرطوبة؟ يحدث أحياناً ألاّ تقطع أمي المكالمة بعد انتهائها من الحديث. ثم إن كلثوم نفسها يحلو لها بعض المرّات أن تقطع التيار عن الجهاز، وهو حركة يمليها عليها مزاجها الرديء أو نوع من الانتقام أو تذكير بسلطتها في الدار. حينئذ تصبح أمكم معزولة، فيتعذر الاتصال بها كلّما حاولتم ذلك... فالتلفون دائماً مشغول... تظنّون أنه معطّل، فلا تستطيعون أن تُسْمِعُونِي كلاماً قبيحاً. أقطع التيار وأريح نفسي من هيجان أعصابكم... في المرة المقبلة، انتبهوا لألسنتكم حين تكلّمونني... ولا تنسوا أن تتركوا ما يكفيني من المال لشراء ما نحتاج إليه... هناك شيء آخر... أنا لا أقبل أن يتدخّل أيّ كان في تدبير شؤون الدار... فأنا التي يجب أن أتكفّل بكل شيء... وهو ما أستحق عليه تعويضاً بكل جدارة...

هذا سلوك لا يمكن أن أقبله. جاء أخي مؤخراً وعاير كلثوم بعنف بسبب سلوكها، فلم يعجبها ذلك. فكان ردّ فعلها هو لجوؤها مرة أخرى إلى قطع التيار عن جهاز التلفون. قالت له

إنها سجينة في هذه الدار، أمي تلاحقها بالملاحظات والأوامر، وتمنع عليها زيارة أبنائها وأحفادها. فرفض أخي أن يرضخ لتهديدها على الرغم من اعترافه بأنها تقوم بما لا تحبّ زوجته ولا أخته أن تقوما به. أنا لا أتصور أن تضحّي زوجة أحد أخويّ بوقتها وراحتها وتساعد أمي على الذهاب إلى المرحاض وتطهّرها وتنشفها ثم تُرجعها محمولة بين يديها كفتاة صغيرة!

كلثوم أصبحت ضرورية. تناولها أدويتها في الوقت المحدد، تطعمها، تحادثها، تؤانسها، تغيّر ملابسها، بل وتُضحكها أيضاً. فمن غيرها يستطيع القيام بكل هذه الأعمال المرهقة؟ صحيح أنها تتقاضى أجراً مقابل ذلك. لكنّ ما بينهما هو صلة عمرها عشرون عاماً. إنها نوع من الصداقة والرفقة. ومع ذلك، فأنا لا أنكر أنها تستغلّ هذه الحالة، فتسرق من وقت لآخر الأواني والصحون القديمة لتبيعها وتتصرف في ثمنها، وتنهي ميزانية تدبير شؤون الدار. فلماذا ستبقى بجانب أمي؟ أباسم العواطف وحدها؟ ثم إن أمي تخلط كل شيء، العمل والحنان والواجب... لكننا لسنا في مصنع! على كل حال، تقولان معاً إنهما «متعلقتان إحداهما بالأخرى... هذا ما كتبه الله علينا... القدر جمع بيننا... الموت وحده سيفرق بيننا... بيننا ميثاق مقدس... هكذا نحن... مؤمنتان... الله شاهد على ذلك... وفوق كل هذا، لا ندري من هي التي ستموت قبل الأخرى!».

طنجة هذا اليوم تلفّها شمس ساطعة. أقترح على أمي أن أُخرجها لنقوم معاً بنزهة خارج المدينة. فهي لم تغادر الدار منذ

أن ذهبنا في الصيف الماضي إلى فندق «لوميراج». حملتها كلثوم إلى السيارة، وأخذتُ وجهة البحر. لم تتعرف على الشوارع. كانت مسرورة، فظلّت تدعو لي بالبركة طوال الطريق. كنتُ أريدها أن تنظر إلى الناس وتشم روائح المدينة وتشاهد البواخر تدخل إلى الميناء. أُوقف السيارة بمحاذاة الشاطئ. أشعة الشمس القوية تمنعها من رؤية الأشياء. انتبهتُ إلى أنها لا ترى أي شيء تقريباً، لا بسبب ضعف بصرها فحسب، بل أيضاً بسبب قصر قامتها. فهي مكوّمة في المقعد، لا تستطيع بذل أي مجهود لتنهض. يضحكها الموقف وهي تقول إنها مركومة في مقعدها مثل كيس بطاطس. نغادر حافة الشاطئ ونتوجه إلى منطقة الجبل. حين وصلنا، قالت لي بكل جدية: هل وصلنا إلى ضريح مولاي إدريس أم لم نصل بعد؟ لكن، أَيْمًا، مولاي إدريس ليس هنا، إنه في فاس، ونحن الآن في طنجة، واسم وليّها هو سيدي بوعرّاقية! لا... أنا أريد مولاي إدريس... فلم أزره من زمن بعيد... إنه من يتوسط بيني وبين النبي... أستودعه أدعيتي ليبلّغها إليه... أريد أن أوصيه بالدعاء لولدي بالنجاح في الامتحان... أعني آخر أبنائي... سيجتاز امتحان الانتقال إلى الثانوي... فلا بدّ من أن ينجح... لكن، أَيْمًا، فاس بعيدة عنّا، بيننا خمس ساعات بالسيارة! ماذا تقول؟ لسنا إذن في فاس ولا في مكناس! بسرعة... أرجعني إلى داري... ففيها على الأقل أعرف أين أنا...

حين عدنا إلى الدار، حملتها كلثوم بصعوبة إلى فراشها. في المساء، كانت جد مرهقة، فتكدّر نومها طوال الليل. تقول

لي كلثوم إن هواء البحر لا يناسبها، يسبّب لها الإسهال. تُفهمني أنها تقضي حاجتها في سروالها، وترفض أن تضع بين فخذيها فُوَط الورق، متعمّدةً أن تنزع جزءها اللاصق لتصبح غير صالحة للاستعمال، كما تعرب عن تذمّرها من افتقار الدار إلى آلة غسيل كهربائية وعن نفاد صبرها، وتقول إنها لا تفعل ما تفعله إلاّ باسم الوفاء.

[24]

والدة صديقي رولان تركتْ مؤقّتاً شقّتها، لأنّ المالك يريد إصلاحها، وأصبحتْ تقيم في فندق صغير يشرف على زقاق هادئ في مدينة لوزان. انسجمت بسرعة مع إيقاع الحياة في الفندق: فهي لا تكلّف نفسها عناء الاهتمام بأي شيء. تتصرف في وقتها كما تشاء، تقرأ وتشاهد برامجها التلفزيونية المفضلة، تتلفن إلى صديقتها التي تحب أن تلعب معها البريدج. أخبرتْ ولدها بأنّ السعادة تغمرها، فشجعها على تمديد إقامتها بالفندق. كان يودّ أن تختار أمه فندقاً فخماً مجهّزاً بمسبح وحمّام بخاري. فهو يحبّ دائماً أفخم الفنادق، بل ينوي أن يُنهي حياته في شقة أنيقة تابعة لفندق خارج التصنيف. لا يعرف الآن هل سيتم ذلك في سويسرا أو في آسيا. إنه آخر ترف يمنّي به نفسه.

بعد أيام، سأسافر إلى لوزان لرؤية والدته التي غالباً ما يحدثني عنها بكلمات تجرح أحياناً إحساسي. هي في صحة جيدة، على رغم تجاوز عمرها التسعين سنة، مستقلة بذاتها، تلقائية، تقرأ، تعزف على البيانو ولا تنسى أن تنتقد نمط حياة ابنها. ذات مرة، سمعتني أتحدث في برنامج تلفزيوني عن رواية

كتبتها حول أحد معتقلات الحسن الثاني، فقالت لـ رولان: «لكن. . . ماذا فعل صديقك ليتمّ اعتقاله في سجن مرعب طوال عشرين عاماً تقريباً؟ إنني أرثي لحاله. ـ لكنّ الأمر، يا ماما، لا يتعلق بصديقي، بل بشخص آخر أخذ صديقي على عاتقه حكاية قصته!».

أحلم بعقد لقاء بين أمي وأمه يتم في طنجة، لأن والدتي لا يمكن لها أن تسافر. أحاول أن أتخيل كافة الاستعدادات التي ستسبق الحدث: إعادة طلاء الدار، تغيير ثوب الأفرشة، ترميم الحمّام. . . أخمّن مدى صدمة والدة صديقي حين تدخل إلى الحمّام لقضاء حاجتها، فتجد طرّادة الماء معطلة على رغم كونها أُصلحت مرّات عديدة، وتجد صنبوري المطهرة متوقفين عن العمل لأن كلثوم تعمّدت تكسيرهما لمضايقة يْمّا، وترى أن المغسلة مشرومة، وأن المصباح يتدلّى برخاوة من السقف لأن سلكه صدئ ولأن الكهربائي الذي يُفترض أن يبدّله ما هو إلاّ أحد أبناء كلثوم الكثيرين الذي لا خبرة له. أنا لا أتصور عيناً سويسرية تنظر إلى حمّام في دار مغربية متواضعة! لا، أفضّل أن يتم اللقاء في بهو فندق «المنزه»، حيث سأنقل أمي في أريكة متحركة، وأقول لها إن امرأة مسنّة ترغب في التعرف إليها، هي أكبر منها بقليل، لكنها تبدو دون عمرها الحقيقي. ستقول لي إنّ واجب الضيافة واللياقة يقتضي دعوتها إلى الدار، ثم ستستدرك مُلاَحِظَةً أن طبخ كلثوم ثقيل وغير لذيذ. سأترجم الحوار بين العالمين، ثم لن أنسى أن أخبر صديقي رولان الذي سيضحك كثيراً.

ستقول لي أمّي: هذه المرأة أحسن حالاً منّي... هل أنت متأكد من عمرها... لأنني أنا لا أعرف متى وُلدت... ما أكثر المرّات التي حاولتُ فيها تقدير سنّي... لكنك كنت تجد أن عمري لا يطابقني... لكن... قل لي، هذه المرأة، هي نصرانية، أليس كذلك؟ هي ليست مسلمة... أقصد أنها لا تشبهنا... إذن فهي كافرة بالله وستذهب إلى جهنم... أليس هذا ما يقوله القرآن؟ أستغفر الله... فلا يليق بي أن أقول مثل هذا الكلام... لكن آباءنا وأجدادنا علّموُنا دائماً أن النصارى والكفّار سيذهبون إلى جهنم... إذن فوالدة صديقك لن تذهب إلى الجنة... أنا لن أراها هناك! لكن، أَيْمَّا، أنت تعرفين أن أفعال الناس هي التي تخوّلهم الذهاب إلى جهنم أو إلى الجنة... فمن الممكن أن يعاقَب مسلم على فعل قبيح ارتكبه ويذهب إلى جهنم وأن يكافأَ نصرانيٌّ بالجنة لأنه فعل الخير في حياته! ما أبلدني يا ولدي! ما تقوله صحيح... فكم مرّة لاحظ والدك أن أشخاصاً غير مسلمين أحسن سلوكاً من المسلمين... فكان يقول مثلاً إن هذا اليهوديّ يستحق أن يكون مسلماً أو إنّ هذا النصراني واحد منّا لشدة طيبته!

ستسألني مرة تلو المرة من تكون هذه المرأة ولماذا جاءت عندنا وما هو اسم ولدها وما هي مهنة زوجها... ستطرح عليّ هذه الأسئلة إلى أن تتبدّد والدة صديقي في تلافيف ذكرياتها الطفولية.

هذا الصباح، كلّمتُ أمي في التلفون. تعرّفتْ عليّ بسرعة. التحاليل الطبية التي أُجْرِيَتْ لها غير جيدة. فنسبة السكّر في الدم

ارتفعت على رغم الأنسولين والحمية الغذائية. هذا إضافةً إلى تَعَفُّنٍ بوليٍّ. طبيبها هو الذي قال لي هذا، أما هي فلم تجرؤ على إخباري به. سألتني فقط متى سآتي إلى المغرب لزيارتها، مشيرةً إلى قرب حلول عيد الأضحى، علماً بأنّ هذا العيد حان موعده وانتهى قبل أكثر من شهر! هذا العيد بالنسبة إليّ، يا ولدي، هو دائماً مجلبة للإنهاك ولهيجان أعصاب والدك الذي ينتظر دائماً آخر لحظة ليشتري الكبش، معتقداً أنه خبير بالأكباش، لكنه كثيراً ما يتعرض للغش والابتزاز. زِدْ على هذا أنني أكون بدون معين يساعدني، لأن الخادمتين تنصرفان لقضاء العيد كل واحدة مع أسرتها... هذا شيء طبيعي... لكنني أجد نفسي دائماً في مواجهة كبش مذبوح في فناء الدار أو المطبخ، فيكون عليّ أن أجهّز الأكل وأنظف البيت... وفوق كل هذا، لا تكونون أبداً راضين، لأنّ لحم الكبش يكون غير صالح للأكل في اليوم الأول من العيد، بسبب طزاجته ورخاوته... آه يا ولدي! أتذكر هذا جيداً... فلا تقل لي كعادتك إنني أخرّف... إن أيّام عيد الأضحى بالنسبة إليّ أيّام سوداء... الله يسامحني... أيام مرهقة... والناس لا يفكّرون إلاّ في الأكل... والحال أن هذا العيد مناسبة للتصدق على المساكين والمحتاجين... لا تنس أن تشتري كبشاً لك، على رغم أنك لا تحب هذا اللحم... فواجب عليك أن تؤدي الفريضة... يمكن لك أن تتصدّق بلحمه على الفقراء... وبعد أعباء الكبش، يكون عليّ أن أهيّئ الحلويات... فأفراد العائلة يزوروننا ليباركوا لنا العيد... وأنا، يا ولدي، لا أكون مستعدة

لاستقبالهم والترحيب بهم لأنني لم أجد الوقت لتغيير ملابسي المتسخة، فأسخط وأنخط، لاعنةً ريح الشرق وكذا العادات وما يجيء بسببها... لماذا النصارى، يا ولدي، أراحهم ربّهم من مثل هذه الأعياد القذرة المتعبة؟ لماذا كل هذا الدم وهذه المصارين وهذا الجلد وهذه الكوارع؟ لماذا كل هذا اللحم الواجب أكله والذي يبدو أنه يضرّ القلب؟ أستغفر الله... فأنا لا أريد أن أكون مسلمة ناقصة... لكن، لا بد من أن يأتي يوم يتم فيه تخليصنا من أتعاب العيد هذه... وفي كل عام، حين يحل اليوم السابع للعيد، أمرض، فألازم الفراش... لقد عَيِيتُ يا ولدي... في العام المقبل، سنكتفي بشراء اللحم من عند الجزار... فلا ذبيحة ولا دم في الدار...

تحسب أن العيد سيحلّ الأسبوع المقبل، وتذكّرني بضرورة شراء كبش وتوزيع لحمه على المحتاجين، مضيفةً أنّ الأحسن أن أعطي مالاً لكلثوم لتشتري به ما تشاء. كل هذا فعلتُه قبل أكثر من شهر إبّان العيد... ومع ذلك أطمئنها بأنني سأستجيب لطلباتها.

تراودني الرغبة الآن في السفر لأقضي بضعة أيام بجانبها. فأنا أحتاج إلى الحديث معها، إلى سؤالها لماذا رَبَّتْنِي على نحو لا يهيئني لتفادي الفخاخ والدسائس. ستقول لي إن عليّ أن أغضّ الطرف عن هذه السفاسف، تماماً كما تعوّدتْ هي أن تفعل، حيث تؤثر السلامة دائماً، منصرفةً إلى العناية بزوجها وأبنائها ودارها، بعيداً عن أي حقد أو حسد. أحدّق في وجهها فأرى أو بالأحرى أخمّن كل ما قاسته في صمت، من غير أن

تحتجّ أو تصرخ أو تطالب بالإنصاف. أنظر إليها فأدرك أن في هيئتها وفي صوتها وفي كلامها شيئاً ما ينمّ عن كونها ضحية بريئة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها ولا كيف تَثْأَرُ لها. ضحية ماذا ومَن؟ لا أدري. في بداية تَرَمُّلِهَا، لاحظتُ أن حالتها تحسّنتْ إجمالاً. تبدو كما لو أنها تخفّفت من وجود أبي. فكأنّ موته أراحها وجعلها تخلد إلى عطلة طويلة الأمد. كانت تمنّي نفسها بهذه اللحظة، قائلةً أدعو الله أن يعطيني يوماً واحداً فقط لا أرى فيه خلقة هذا الرجل!

لا أستطيع طبعاً أن أقول لها إن «حياة مشتركة بين اثنين هي سيرورةُ بناءٍ دائمةٌ». فهذه كلمات لن تصل إلى إدراكها بسهولة بالعربية الدارجة. ستنظر إليّ لتتأكد من أني لا أسخر منها. ثم ستسألني ماذا تفهم أنت في الحياة؟ ستقول لي في عائلتنا كل واحد يبقى ملازماً لمكانه، يتحمل مجرى الأشياء كما حدده أسلافنا، ثم يفعل ما يستطيع ليعيش حياته، فينجح أو يفشل. وفي ما يخصني، فأنا دائماً أتوكل على الله، حامدة شاكرة إياه...

قالت لي ذات مرة: أي حياة عشتها أنا؟ ثم أجابت بتنهيدة متواصلة قبل أن تطلب مني أن أكمّل من عقلي.

[25]

زيلي هو اسم والدة صديقي رولان، وهو تصغير لِـ سيسيليا. مؤخراً أصيب صديقي بصدمة حين نودي عليه من مصحة لإخباره بأنّ أمه وقعت أرضاً وبأنّ حالتها ليست على ما يرام. طلب أن يكلمها. فلم تتعرّف عليه من خلال التلفون: «أنا يا سيدي لا أعرف شخصاً باسم رولان... إنك تضايقني... فلا ابن لي بهذا الاسم... لذلك، لا تلحّ عليّ... من فضلك، لم يسبق لي أن ولدتُ أحداً... دعني إذن وشأني يا سيدي!». كانت هذه أول مرة تفقد فيها ذاكرتها. فتألم رولان لذلك، رافضاً تصديق ما سمعه: كيف؟ أنا، ابن زيلي الأوحد، يتم هكذا نسياني وعدم الاعتراف بوجودي! هذا غير مقبول!

بعد أيام قليلة، كلمها في التلفون، فتعرّفت عليه توّاً، وهو ما أضحكه. وحين سألها لماذا اعتبرته غريباً في المرة الأخيرة، أجابته: «يا ولدي، كلما كبر المرء أصبح أضحوكة!».

سافرتُ بالقطار إلى لوزان. رولان ينتظرني بفندق «لاَبِي».

أعزّ صديقات زيلي امرأة جد غنية. حين أصبحتْ عاجزة

عن المشي، اختارت الإقامة في أفخم دار للعجزة بسويسرا. في حين أن زيلي ما زالت قادرة على التحرك بمفردها، بحيث لا تبقى في هذه الدار إلاّ أسبوعين كل ستة أشهر. تملك صديقتها سيارة رولس رويس مع سائق خصوصي. بين حين وآخر، تمرّ بها لتأخذها في نزهة، وهو ما كان يعجب زيلي ويسرّها.

أما أمي، فلم تعد لها أية صديقة. صديقاتها كُنَّ بنات خالاتها، وأحياناً بعض الجارات اللواتي كانت تلتقي بهنّ في الحمّام العمومي، فَكُنَّ يتحدثن ويتبادلن الشكاوى ويتساعدن ويتبادلن المجوهرات والملابس بمناسبة الأعياد والحفلات، ثم يتناسين صداقتهن عند الانتقال للإقامة في حيّ آخر. كانت أمي تود أن تكون لها صديقات حقيقيات تستطيع أن تثق بهنّ وتكشف لهنّ عن همومها. جارتنا في طنجة كانت ابنة عمّ الملك، فكانت أمي معجبة بأناقتها ورصانتها. لكنها كانت تنتقل كثيراً إلى الرباط. وحين تعود تحكي لأمي عن إقامتها في القصر الملكي وعن الهدايا التي كان الملك يخصها بها. ذات مرة أعطت لأمي حفنة من العود القمري، فقررت أن تخبئها إلى يوم جنازتها ليتم بها تعطير كفنها. أحياناً كانت تقع بين بنات خالاتها أحداث ذات صلة بالحسد ونزاعات حول أمور تافهة، فكانت أمي تكره ذلك وتتدخل لتهدئة الخواطر. كُنَّ يعتبرنها امرأةَ سلم وحكمة. لكنها لم ترتبط بصديقات حميمات ووفيّات. ولذلك، فلا واحدة تعرض عليها القيام بفسحة في سيارة رولس رويس، أو تفرّج عنها غمّها. هي تعرف هذا وتردده بشتى الأشكال. هذا ما كتبه اللّه عليّ... صديقتي الوحيدة والباقية تسكن في

الدار البيضاء... إنها أقرب بنات خالتي إليّ وزوجة أخي في الوقت نفسه... أصيبتْ بذلك المرض الذي لا أريد ذكر اسمه، فبتروا أحد نهديها، وحالتها منذئذ تحسّنت... لم نتقابل منذ زمن بعيد، وهذا أمر طبيعي... فهي تسكن في الدار البيضاء، وطنجة ليست في الطريق نفسه... حين كنتُ صغيرة، كان زوجها، أي أخي الأصغر، ذاك الذي مات وعمره أربعون سنة، يداوم على زيارتي، فيأخذني في سيارته ليعرّفني على المدينة وضواحيها... كنت أحبه كثيراً... يوم موته، حسبتُ أنني سأرافقه إلى قبره... كان فراقه جمرة في القلب يصعب إطفاؤها... قبل أيام، جاء لزيارتي... لاحظتُ أنه لم يتبدّل... الأناقة نفسها... العطر نفسه... قال لي إن أخاه الأكبر استلف منه مبلغاً من المال لأنه أصبح عاطلاً بدون عمل، فطمأنته وقلتُ له إن زوجته هي المسؤولة عن هذا... فهي التي تستبقيه في الفراش عوض أن تتركه يذهب إلى عمله.. سأتصل الآن ببنت خالتي لأطمئنها على زوجها فهو حقّاً في أحسن حال. هل تتذكر يا ولدي تلك الأصياف بالدار البيضاء؟ كنتُ أترككما، أنت وأخاك، تقضيان عندهم العطل الكبرى... يا للعجب! ها هو، وأنا أتكلم معك، يتراءى أمام عيني كالملاك... أراه وكأنه نور باهر يخطف بصري... أسمعه يقول لي أشياء تشرح صدري... تعال، اجلس إلى جانبي يا أخي الصغير... هل رأيتَ كيف أصبحتُ؟ أنا شيء جدير بالرثاء... كومةُ طينٍ... كيسُ رملٍ يسيح من كل جانب... كم سنة مرّت على غيابك عنّا؟ خمسة وثلاثون عاماً؟ مدة طويلة

هذه! لا... إنك تبالغ... أتذكّر، كما لو أنّ هذا حدث البارحة، أنكَ دخلتَ المصحة لإجراء فحص على كبدك، وحين خرجتَ كنتَ بارداً أصفرَ الوجه... في الليلة نفسها، فاضت أنفاسك... فأغمي على أمي... أما أبناؤك السبعة، فلم يعرفوا أي وجهة سيتّجهون بسبب حزنهم البليغ.

لكن... لماذا تبكي يا ولدي؟ أنا لا أخاطبك أنت بالذات... أنا الآن في رفقة أخي الصغير.... أخرج إلى حديقة الدار وأَحْضِرْ لنا بعض الفواكه، فالأشجار مثقلة بها.

نحن الآن في إيموزار عند خالتي، أخت أمي الصغرى، التي تزوجت من رجل غنيّ، رجل جميل وأنيق، يتكلم بصوت خافت، ولا يعود إلى داره أبداً خاوي اليدين. كان أول رجل في العائلة اشترى سيارة. أذكر أنها كانت سوداء، فكنتُ أحوم حولها مُمَرِّراً يدي على أبوابها، وأتظاهر بقدرتي على قيادتها، فأجلس على المقعد، يدايَ على المِقود، ورِجلاي القصيرتان لا تصلان إلى الدواسات. إيموزار منتجع صيفيّ ذو جوّ بارد منعش لا بدَّ من أن تكون لكبريات عائلات فاس فيه إقامة ثانوية. فيه تلهّيتُ مع ابنة خالتي بلعبة الزواج، فكنّا نتدثّر بلحاف، فأكشف لها عن ذَكَرِي وهي تتركني ألمس أسفل بطنها. لم يكن لعبنا بريئاً، لأنها مرّةً أمسكتْ بإصبعي وأدخلته في فرجها، وحين داعبتُها، كادت أن يغشى عليها. هذه ذكريات لا تُنسى. أمّي لم تكن غرّة لتصدّق أننا فقط نتلاهى. كما أن خالتي لم تكن مغفلة، فكانت لا تنفكّ تنبّهني بلهجة متهكمة احذر! إذا كنتَ تريدها أن تكون زوجتك، فعليك أن تكون طبيباً أو

مهندساً، لأن ابنتي جميلة، ولن أزوجها إلاّ بأجمل وأغنى رجل في فاس!

دار خالتي فسيحة يعجبني أن ألعب في حديقتها العامرة بأشجار الفواكه. أرى خالي، شقيق أمي الأصغر، مستغرقاً في لعبة الورق مع رجال آخرين من العائلة. أسمعهم، بين أسىً وتنديدٍ، يتحدثون عن «عدوان ثلاث دول على فلسطين». أسأل خالي أين فلسطين، فيجيبني، مستعيناً بخريطة في جريدة، انظر، إنها توجد هنا، بجوار مصر تماماً، أرض في منتهى الصغر، وعلى رغم صغرها، لا يراد لها أن تبقى مسلمة!

زيلي تنتظرني. أخبرها رولان بزيارتي. استحضرتْ خادمة للتنظيف وألحّت على ابنها أن يقول لي إن شقتها صغيرة ومتواضعة. هي، تماماً مثل أمي، تحرص على أن «تبدو بمظهر بشوش ولائق». سيدة نحيلة، حادة النظرات، أنيقة، ذات نبر خاص في صوتها. أهديتُها باقة ورد. ابتسمت لي وقبّلتني ثم قالت لي: أنت مشهور، جد مشهور، أراك كثيراً في التلفزيون... ابني لم يعد يشارك في برامج تلفزيونيّة ولا يزورني إلاّ لماماً. يعترض رولان على كلامها، فتقاطعه زيلي: هذا غير صحيح... إنك تتلفن لي... لكنك لست معي!

أهنئها على حالتها الجيدة: اثنان وتسعون عاماً ورباطة جأش قوية! نعم... لكن بصري يضعف، بل لا يفتأ يضعف... أحبّ أن أمشي، أن أحلم، وأن أقرأ أيضاً. أقرأ الآن طوماس بيرنار... رائع وقوي وعنيف في نقده... أحب هذا الرجل وكل ما يكتبه عن النمسا، وطني... قلت لي إن حالتي

جيدة... لكنني كومة عظام نخرة... أفكِّر باستمرار في الموت... أنا لا يخيفني الموت... أعتقد أنه كان عليّ أن أموت مباشرة بعد موت أبي، زوجي الأخير... مات قبل عشرين سنة... أين كنت يا رولان حين موت أبي؟ لعلك كنت مسافراً... أذكر الآن أنني اتصلتُ بك هاتفيّاً، فردّتْ عليّ تلك الآلة الملعونة التي طلبت مني أن أترك رسالة... يعني أن أقول لها إن بابا مات... فيا للمسخرة! على كل حال، كنتُ حبلى بك حين تزوجتُ بابا الذي قَبِلَكَ، أقصد تَبَنَّاكَ... لم أقل لك هذا أبداً من قبل... هل يدهشك هذا الآن؟ لا يهم... أنت ولدي... وأبوك أحبّك كثيراً... لم يخبرك بذلك... ففي سويسرا، لا تقال هذه الأشياء للأبناء!

إيه... أعود إلى مسألة الموت... أنا لا أخاف من الموت... ما يخيفني هو الجحيم... هو كل ما ينتظرنا بعد أن نسلم الروح... الجنة؟ أكيد أنها لن تكون من نصيبي... ربما هي جديرة بأمك... أما أنا، فقد سافرتُ كثيراً عبر العالم... وقليلة هي المرّات التي تردّدتُ فيها على كنيسة... ولا شك في أنني ارتكبتُ بعض المعاصي... ما الذي يبرر هذا الخوف من الجحيم؟ إنه المدرسة الكاثوليكية الداخلية التي قضيتُ فيها مراهقتي عند الراهبات في إيطاليا... e vero la paura del inferno(*). كان ذلك في أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث أَجْلاَنِي أبوايَ عن النمسا للإقامة عند راهبات إيطاليات خوفاً

(*) بالإيطالية في الأصل الفرنسي.

عليّ... no era un regalo, no, ma la vita era bella perche
dopo la guerra a conocido el amor ad la libertad(*)...

أنا أحب التحدّث باللغة الإيطالية... أعشق هذه اللغة... تطربني جرسية كلماتها... أما ابني، فيتكلم بالألمانية... إنها لغة أقل طرافة... هو لا يأتي لزيارتي، أو بالأحرى يزورني في مناسبات جد متباعدة... أقولها بكل صراحة، إنه كسلان... يعدني بأنه سيزورني ثم يخلف وعده... بيد أن خطيباته القديمات يُدَاوِمْنَ بالمقابل على زيارتي... ما زلن إلى اليوم متعلقات به، لكنه يتظاهر بعدم الانتباه إلى ذلك... ما أكثر أسفاري! مفتونة أنا خاصة ببلدان الشمس.... مصر، آهٍ من مصر! كينيا... المغرب! الحياة هنا كئيبة... فصل الشتاء يلازمنا باستمرار... الناس متحفظون حذرون... لديّ صاحبة أصبحت ضريرة... يروق لي أن أتفسح معها... أحكي لها ما أراه... ميزتها أنها غير ثرثارة... نتنزه معاً... أتكلم حين أرغب في الكلام... هذا ملائم... أحياناً لا نتبادل أية كلمة... كل واحدة في عالمها الخاص... أنا أفكِّر في ولدي وهي تفكّر في ابنتها... فنتمشّى خلال ساعات، ثم نتوقف لشرب الشاي... وبعد ذلك نعود على أعقابنا، مسرورتين سعيدتين... المشكل هو حين تفاجئنا الأمطار، فتكدّر سعادتنا... هنا، أفكّر في المغرب... ما أجمل بلدك! اكتشفتُ المغرب مباشرة بعد الحرب... كان يرزح تحت

(*) بالإيطالية في الأصل الفرنسي.

الاحتلال الفرنسي. . . الأسواق المغربية هي ما كان يستهويني أكثر من غيرها. . . يا للضياء! ويا للفرح! العجاج حيثما ولّيت، لكن الناس غير مبالين. . . نعم. . . كم أحب أن أهجر هذه الشقة الضيقة وأذهب للإقامة في ملجأ للعجزة. . . لكن يُقال لي إن جميع غرفه مسكونة. . . لديّ بعض الصديقات هناك. . . فلا بدَّ من رفقة، خاصة حين يختفي الأبناء. . . قل لي، هل عثرتَ بسهولة على غرفة هنا في لوزان؟ إن على المسؤولين أن يفكِّروا في تجهيز المدينة بفنادق أكثر. . . ماذا تقول؟ ستسافر حالاً إلى المغرب لترى والدتك؟ صحيح. . . إنها لا تسكن معك في باريس، بل في طنجة. . . لا، أنا لا أعرف هذه المدينة. . . كما ترى، فأنا أقيم في شقة في غاية التواضع. . . أعرف أنك كنت تحسب أن والدة رولان تسكن في دار كبيرة. . . أنا أستأجر هذه الشقة منذ خمسين عاماً. . . هذه الغرفة كانت لولدي. . . ما زلت أرى صورته وهو صغير يلعب الشطرنج مع والده. . . كان في منتهى اليقظة، موثراً للعزلة. . . بلدية المدينة تبعث لي كل يوم وجبة طعام. . . هذا لطف منها. . . لكن. . . أخبرني، هل وجدتَ غرفة بسهولة؟ ما أبلهك! كان عليك أن تخبرني سلفاً بتاريخ قدومك حتى أحجز لك غرفة جميلة في فندق «لابي»، أليس كذلك يا رولان؟ قل لي. . . هل تضع أمك في معصمها سواراً مثل هذا؟ فيكفيني أن أضغط عليه بإصبعي ليبادر طبيبٌ إلى المجيء عندي. . . وفي حالة خطر ما، حسبي أن أضغط على هذا الملمس الخاص في هاتفي الجوّال لتهرع سيارة الإسعاف إليّ فوراً. . . فهل تملك

أملك مثل هذا الجهاز؟ لا. . . وكيف تفعل؟ والأشخاص الذين يسهرون عليها، هل يعرفون القراءة والكتابة؟ لا. . . أنا لا أصدّق! ما يضايقني خاصة هو ضعف بصري والخوف من الجحيم. . . لكنني أمشي من غير أن أتوكّأ على عكّاز. . . وهذا شيء يطمئنني. . . أحرص على التفسح مع صاحبة لي فقدت بصرها. . . أحب كثيراً أن أتمشّى معها لأنها قليلة الكلام. . . أنا أكره الناس الذين يثرثرون. . . آه! لولا استحواذ حكاية الجحيم هذه على ذهني لكنتُ قد رحلتُ منذ زمن. . . أعرف أن هناك طبيباً سويسريّاً مختصّاً في تحضير كوكتيل ذَاعِفٍ يُمِيتُ من يشربه بسرعة. . . يضع الكأس فوق طاولة بجوار المريض، فيكون هذا مخيّراً بين شربه وعدم شربه. . . هكذا. . . بكل سهولة ومن غير إحساس بأي شيء. . . لكن الدّين يحرّم هذا. سمعتُ أن هناك جمعية، أظن أن اسمها «Exit». . . تغري، كما يدل على ذلك اسمها هذا، بالخروج، بالرحيل في هدوء وكتمان، بالانسحاب على رؤوس الأصابع. . . لقد ألّف ابني كتاباً كاملاً عن هذا الموت الطريف الممتع. . . أظن أنني قرأته. . . لا أذكر جيداً. . . لكن الجرأة تعوزني. . . تستحوذ على ذاكرتي باستمرار تلويحات الراهبات الإيطاليات بالجحيم والمطهر وما جاورهما. . . أشكرك على مجيئك. . . لطيف أنت. . . يشرّفني كثيراً أن يزورني رجل ذائع الصيت مثلك. . . هل تريد أن تشرب كأساً من الكحول؟ أينك يا رولان؟ قَدِّمْ لصديقك ما يشربه. . . لا تعطه ماءً، هذا لا يجوز، على رغم أنه منعش. . . قدّم له كأساً من الويسكي أو من الكونياك. . . مونيك في منتهى

الظرافة... جمال ورقّة وذكاء... عيناها جد سوداوين... تزورني من حين لآخر... هي الآن صديقة لي... لكنها ما تزال جد مغرمة برولان... أما طام، فهي أيضاً آية في الجمال... غير أنها جافية... في نظراتها شيء من التشامخ... يا لنخوتها! ليندا أيضاً ما تزال تحبّ رولان... فطنة ورقّة وملاحة... لا... لست ضجرة... أحلم... في كل الأوقات أحلم... أحلم بأسفاري، تلك التي قمتُ بها سابقاً، وتلك التي أمنّي نفسي القيام بها... أحلم بالشمس... أتذكّر كل ما فعلته... أملأ نهاراتي بجميع هذه الأحلام... كلّ حين أستعيدها... هذا يكفيني... يسلّيني... في الليل أنام جيداً... فلا مشاكل لي مع النوم... أنا لست مثل رولان الذي لا يأتيه النوم إلاّ إذا تناول أقراصاً... البيانو لم يعد هوايتي... لم يعد يروقني... وأمّك... هل تعزف على آلة موسيقية ما؟ لا... هذا شيء مؤسف! إنه لَمُحْزِنٌ ألاّ يعزف المرء على آلة موسيقية! حياتي أنا قضيتها كلها في السفر وفي اكتشاف البلدان وفي السباحة ومداعبة مفاتيح البيانو... وأمّك... ماذا؟ قضت كل حياتها في المطابخ؟ هذه ليست حياة... هذا أمر لا يليق بامرأة... أحبّ أن آكل أشياء خفيفة... رولان، لا تنس أن تشتري لي عنباً أسود، ذاك المستورد من إيطاليا... عنقوداً واحداً فقط... يعجبني أن أرى هذا العنب موضوعاً في طبق، هنا، أمامي، على هذا الخوان... يعجبني منظره خاصة تحت أشعة الشمس... ماذا؟ تريد أن تنصرف الآن؟ أشكرك على زيارتك... التفاتةٌ لطيفة!

لا تنس أن توصي رولان بأن يضاعف زياراته لي، فقد يعمل بوصيتك. . . . لكنني أعرف عناده. . . فهو حازم في أفكاره. . . إنه فقط بصري الذي يضعف من يوم لآخر. . . الأشياء تتضبّب أمامي. . . لكنني أتمتع بصحة جيدة. . . نعم، من يدري؟ فقد أستسلم ذات يوم لإغراء ذلك الكأس من الحليب الذي يصنعه ذلك الطبيب السويسري. . . ما اسمه؟ كأس الحليب القاتل! رولان يسمّيه الحليب الزّعاف. . . لعل ذاك لن يخلو من هزل. . . الأمر مرهون بأن يخصصوا لي غرفة في الدار التي أحبّ. . . في هذه الحالة، سأبقى وقتاً أطول، وإلاّ. . . أظن أنّ عليّ أن أتحلّى بالجرأة. . ابني أعرب عن موافقته. . . قبل أيام، دخلتُ في غيبوبة. . . مباشرة بعد حادث سقوطي. . . لم أتعرّف عليه، فأغضبه ذلك. . . لكنني سرعان ما استرجعتُ ذاكرتي. . . ما عدا هذا، فصحتي جيدة. . . لا أشكو من أي شيء. . . هذا الصباح دعاني بوّاب العمارة إلى الغداء معه. . . كان لطيفاً معي. . . لا أعرف ما هو الطعام الذي سيهيّئه. . . قبل سنوات، كِدْتُ أن أتزوج من مصريّ، رجل ميسور. . . لكنه فقد بصره. . . فخذلتني الجرأة على العناية برجل ضرير، علماً بأنني أحببته كثيراً. . . حدث هذا قبل أن أتعرّف على والدك. . . سبق لي أن حكيتُ لك هذا. . . أظن أنه كان يحبني أيضاً. . . كنّا متفاهميْن. . . كان بإمكاننا أن نتزوج. . . لكن هذا لم يحدث. . . أنت ابن غير عاقّ. . . تزور أمك باستمرار. . . اللّه يحفظك. . . تقول لي إن الجحيم لا يخيفها! ماذا؟ هل هذا هو الإسلام؟ مع ذلك، فالإسلام دين مرعب! ماذا؟ هي فرحة

بملاقاة النبي في الآخرة؟ أنا أغبطها على مثل هذه المعتقدات. . . هي امرأة مؤمنة، وهذا شيء جميل. . . أما علاقتي أنا بالإيمان. . . فلست أدري. . .

[27]

حلّ شهر أكتوبر وأنا بعيد عن طنجة. قطعتُ على نفسي عهداً بأن أتصل هاتفياً كل يوم في الساعة نفسها لأطمئنّ على أمي. أحياناً يظل التلفون يرنّ بما يفيد أن الخط مشغول. لعل الجهاز في غير موضعه. تتهيج أعصابي، فأتلفن إلى الجيران طالباً حضور كلثوم. لمستُ في كلامها أنها تفرط في مراعاتي ومجاملتي، وتتذلّل بل وتكاد تعتذر على اضطرارها إلى إخباري بأشياء غير سارّة. أتخيلها مطأطأة الرأس تتظاهر بأنها امرأة مغلوب على أمرها تتحمل أوجاع الدنيا كلها.

كادت أمي أن تموت بسبب الاجتفاف. أصيبت بإسهال حادّ أفرغها عن آخرها. فارتعبت كلثوم ورحيمو، هما لا تدريان كيف تتصرفان، هل تقومان بتنظيفها أم تستنجدان بالجيران أم تطلبان بالهاتف حضور الطبيب أم تخبران أبناءها. . . رأتاها تسوء حالتها شيئاً فشيئاً ويتبدّل لونها وتجحظ عيناها. . . والساعة قد تجاوزت منتصف الليل، ولا أحد يساعدهما على تركيب أرقام الهاتف والجيران كانوا غائبين والبقّال، الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة، لم يكن بعد قد عاد إلى بيته! أخبرتا أمي بذعرهما

وحيرتهما، فطفقت تبكي وتنادي أبناءها الذين لم تفرّق بينهم وبين إخوتها ووالديها: هذه ساعتي قد دقّت، ساعة الموت المحتوم الرهيبة... سأموت من غير أن أرى أمي ولا أبنائي ولا أخي الأصغر خاصة الذي خرج ليشتري الخبز ولم يعد... لكن، ماذا تنتظران؟ أطلبا حضورهم حالاً، قولا لهم إن ابنتهما تحتضر... قولا لهم إنني امرأة مسلمة أؤمن بقدر اللّه وأصلّي الصلوات الخمس... لكنني لا أفهم لماذا تخلّت عنّي أمي، أنا التي كنتُ دائماً أطيعها وأحبّها... غريب كيف يتبدل بنو آدم... حتى ابني اختفى ولم يعد يأتي لزيارتي... نعم، أعرف، ذاك الذي يسكن خارج المغرب... إنه هناك، غير بعيد عني، غير أنه لا يسمع ندائي... ماذا تنتظران؟ بادرا إلى إحضاره... أحتاج إلى أن أكلّمه آخر مرة، إلى أن يضع يدي بيديه، فأحس بحرارتهما... هو سيدكما... لماذا تضحكان؟ لكن مولاي عليّ، أخي الأصغر، كسلان... أين هو؟ لم يصحُ بعد من نومه هذا الصباح... يكره العمل... ما هذا يا سيدي يا ربي! لا تنظرا إليّ هكذا... افعلا أي شيء... سائل قوي يتدفق من تحتي... رائحته كريهة... أنا ألفظ مصاريني وكبدي وقذاراتي... هيّا، أحضرا فُوَطاً كبيرة واجمعا هذا السخط الذي يتصبب من تحتي... أتخلص منه وأشعر بأنني سأرحل، سأموت... لساني أصبح ثقيلاً، دبقاً، لا أستطيع تحريكه، لا أستطيع أن أتكلم... لم أعد أتكلم... أكلّم نفسي... وأنتما دائماً تتحركّان في مكانكما بغباء! لماذا لم يأتِ أبنائي؟ أعرف، إنهم يختبئون... قواي خارت... جسدي تمكّن منه الضعف

والهزال، ولا يد تهبّ لمساعدتي على الوقوف، ولا نظرة ترعاني. . . أنا هي التي أرى وجوه هؤلاء وأولئك تتحرك من حولي دون توقف ومن غير كلام. . . ما أطول الليل! أنا لا أحب الليل. . . ينام الآخرون وأنا أحسب النجوم. . . لكن، أين هو ابني؟ أين نور عيني؟ عليه أن يأتي حالاً، أن ينزل من الجبل. . . فرُغت معدتي ولم آكل شيئاً هذا اليوم. . . هوذا الموت بعينه. . . كل شيء يتميع، يتحول إلى سائل. . . أبحث عن رباط مطّاط لأحزم به كمّي فستاني. . . أين وضعته؟ أدور في مكاني ولا أجده. . . هذا الرباط يفيدني كثيراً حين تتهدل أكمام ملابسي وتعيقني عن الحركة. . . لكن، أين اختفت كلثوم؟ ماذا تفعل؟ آه! إنها في الحمّام، تنظف ملابسي من تلك القاذورات. . . حسناً تفعل. . . والأخرى؟ أين هي الأخرى؟ ماذا تفعل؟ لماذا لا تأتي لمرافقتي إلى الحمّام؟ فرائحتي كريهة، منفرة. . . هذه أول مرة يقع لي هذا الذي يحدث لي. . . يلزمني أن أغتسل. . . لكنني عاجزة عن ذلك. . . آه كم خشيتُ هذه اللحظة التي أكون فيها مثل كيس طين مبلّل ثقيل يعجز عن الحركة! ها قد أصبحت لا شيء. . . تحوّلتُ إلى رزمة صغيرة تفوح منها روائح مقززة. . . أين هم أبنائي؟ هيّا. . . جَهِّزَا الصالون. . . أشعِلا المواقد. . . الناس سيفدون من كل مكان. . . كَلِّفَا من يشتري دزينة من الفراريج. . . لا بدَّ من إبقائها في ماء مملّح طوال الليل، فهذا كفيل بتنظيفها. . . فَكِّرَا أيضاً في اللحم وفي الخبز. . . الوقت متأخر، ولا أحد يرد عليّ. . . أتكلم وحدي. . . لا داعي لإحضار الطبيب، فلن

يستطيع شيئاً. . . أنا في غنى عنه. . . هو الآن عديم الجدوى. . . إنه مثلي، لا فائدة من وجوده. . . الدليل هو ألاّ أحد يسارع إلى زيارتي أو يستجيب لنداءاتي. . . عندي اللَّه. . . اللَّه وحده يسمعني ونبيّه، سيدنا محمد، آخر أنبيائه. . . عندي اللَّه الذي وحده سيرحمني وسيغفر لي. . . سامحني يا سيدي يا ربّى، فأنا لست طاهرة حتى يمكن لي التلفظ باسمك. . . أنا نجسة. . . يتعين عليّ أن أغتسل وأتوضأ. . . لكن كلثوم ورحيمو منهمكتان في أشغال أخرى. . . ها هما قادمتان. . . إنهما ترفعان عليّ صوتيهما، خاصة كلثوم! فهي توبخني وتقول لي إنها ستؤدبني. . . فكأنني فتاة صغيرة زلّت، بالت في حوائجها، فلا بدًّ من معاقبتها. . . تخيفني نظراتها الشرسة. . يخيفني صوتها الزاجر. . . ومع ذلك، أخشى أن تنصرف وتتركني وحدي في مواجهة محنتي.

أنصت إليها وأنا أحدّق في صدع طويل يشق السقف. أحضن يدها، متسائلاً ترى هل سأكون، بعد رحيلها عن هذه الدنيا، أكثر عرضة لحسد الآخرين ودسائسهم. . . ظلت تردّد عليّ دائماً أن بركتها تحميني من كل عين آثمة، ففرحتْ حين قلتُ لها إنني لا أشك في ذلك. ومع مرور الوقت، انتهيتُ إلى الاقتناع بأنني فعلاً مصون وبأن لا عين شرّيرة أخشاها في حياتي، إلى أن حلّ يوم مشؤوم تهاوت فيه على رأسي سماء سوداء. . .

أوصتني دائماً بأن أحترز ممّن يقدّمون أنفسهم كأصدقاء لي. لم أعمل بوصيتها، فوقعتُ يوماً في فخ نصبه لي شويطنٌ سمين

وماكر. لكنني لم أجرؤ على أن أتظلّم منه إلى أمي ولا أن أطلب شهادتها ضده، وذلك بسبب مرضها. بيد أن قصة الحماية تلك لا يقبلها العقل. ومع ذلك، بقيتُ أتمسك بها بدافع هو اليأس والتعب أكثر مما هو اليقين. . .

ما عمر كلثوم؟ لا أحد يستطيع أن يجيب. كل ما نعرفه أنها ولدت ستة بنين وبنات، كلهم متزوجون، وأن لها اثنين وعشرين حفيداً. لا تتكلم أبداً عن زوجها. لعله مات أو يعيش بعاهة ما منزوياً في ركن مهجور بالدار. إحدى بناتها أمّ لستة أولاد. هي فخورة بذلك!

بعض الناس يتوافدون لزيارة أمي. هي لا تكره الزيارات المفاجئة، خاصة وأن حركة غير عادية تدبّ في أنحاء الدار، كاسرة الصمت والرتابة. لا تفرق بينهم وبين أبنائها، فتمنح كل واحد منهم اسماً غير اسمه، وتمنحهم مكانة في أكثر ذكرياتها بعداً عن الحاضر.

بين فينة وأخرى يأتي زوج رحيمو وأبناؤها لقضاء النهار في الدار. أمي لا تتبرم من ذلك، على رغم ما يمثله عددهم من عبء وبلبلة. لا تشكو ذلك لأحد لأنه ينسيها ثقل الوقت. . . الوقت! أحد أبغض أعدائها!

منذ شهور، تنام أمي نهاراً وتصحو ليلاً، وهي العبارة التي أزعجت كثيراً كلثوم ورحيمو. تقولان إن الحياة أصبحت تعاش بالمقلوب، لا فرق بين الحسن والسيئ، بين النور والظلام، بين الأبيض والأسود، بين السكينة والصراخ! لأمي فعلاً قدرة على الصراخ لا تملكها غير المراهقات! ترفع عقيرتها منادية كل من

في الدار ليجتمعوا حول المائدة ويأكلوا ويغنّوا. فالحياة لا تحب الفتور والكسل. الحياة ليست طريقاً مسدوداً ولا نفقاً مظلماً. إنه النهار... نهار جميل من نهارات فاس الصيفية، حيث الجوّ حارّ، فنبلّل أيدينا ووجوهنا بماء الساقية النديّ وسط الفِناء، والدار ملأى بأفراد العائلة ينشرون الأنس والمودة في جنباتها... لكن! ماذا أقول؟ لعلني أيضاً صورة من صور الذاكرة المتدفقة!

أنا جالس في ركن ظليل من الغرفة، أصابعي تلهو بعلب دواء. أرقب النساء يتحركن نشيطات بين المطبخ والغرف. لعلها عشية أحد الأعياد. أمي سعيدة. تغنّي وهي تحضّر الأكل. تبكي وهي تقشّر البصل. تبكي وتضحك من ذلك. أختها الصغرى جاءت من فاس. ترتدي فستاناً جميلاً من حرير أزرق سماوي. تمازح الرجال. لا تتورع عن التلفظ بكلمات بذيئة وهي تقهقه. تبدو أيضاً سعيدة. تقول إن سبب وصولها إلى طنجة متأخرة يعود إلى كون زوجها ظل يضاجعها طوال الليل. أمي تخفي وجهها بيديها.

ينسين وجودي بالغرفة. أنصت وأسجّل. تدهشني إباحية هؤلاء النساء اللواتي يرخين العنان لألسنتهنّ حين يَكُنَّ بمفردهنّ، فيتحدثن عن الجنس، ويحلو لهنّ أن يكرّرن أسماء ذَكَر الرجل، واصفات إيّاه في أدق تفاصيله، وأمّي، ذات الحشمة والعفة، تغطّي وجهها بِكُمِّ فستانها، لكن تضحك من قلبها، والنساء يتلوّين في غنج مقلدات حركات وأوضاع فعل المضاجعة وهنّ يغنّين. فجأةً رأتني خالتي. تصيح ويلي! ويلي!

ويلي! الشويطن سمع كل شيء... تظاهر بالنوم... لكنه تابع كل شيء! أمّي تهرع إلى المطبخ. إحدى بنات خالتها تنحني عليّ قائلة إيّاك أن تخبر أحداً بما سمعته... كنا نمزح فقط، أليس كذلك؟ شُفْ... هات يدك... المس بها نهديّ... إنهما ناعمان ليّنان... أرى أن هذا يعجبك يا العفريت! أعجن نهديها الضخمين الثقيلين وأنا مغمض العينين. لا أنبس بكلمة. لا أمنّي نفسي بأي شيء. أضحك. أجذبها نحوي. تجلس. تفتح فخذيها. تحشرني بينهما. أختنق. لكنها تحتكّ بي. يبدو أنها بدون سروال. أحس بشيء يخزني. لعله فرجها الذي حلقت زغبه. أسمعها تقول لي أشياء غريبة... يا رجلي الصغير، جسدك ضعيف، لكن ذكرك ليس ضعيفاً... انظر إليه كيف انتصب... هذا أمر لا يصدق... فطفل مريض مثلك لا يمكن لذكره أن ينتصب بهذا الشكل... ويلي! ويلي! ويلي! أنا مضطرة إلى الانصراف الآن... إذا شئتَ، بعد الغداء، سأعود لألعب معك... هل ترغب في ذلك؟ لكنّ هذا سيبقى سرّاً بيننا.

أبي لم يعد بعد من متجره، بينما وصل خالي مولاي عليّ برفقة زوج أختي. يتكلمان في السياسة، يندّدان بالاستعمار، لا يهتمان بحماقات النساء الجميلة. أقول في نفسي: إنهما مخطئان، إذ ما أجمل النساء سعيدات بالحياة! من ركن انزوائي أرى كل شيء، ألاحظ، أسجل، أُعجب بالنساء لاهيات مرحات، غير مكترثات بهموم الدنيا. لهنّ عالمهنّ الخاص. لا يسعين إلى التطاول على عالم الرجال. كل واحد يلزم مكانه.

لكن، ما السر في هذا الانسجام والتوازن والتساوي؟ إنه في نوع من التدبير الغريزي. يكفيهنّ أن يعشن، شريطة ألاّ يتبدّل أي شيء، هناك عَوْدُ الأشياء! العود الأبدي للأشياء نفسها! أشياء تحدد إيقاع الحياة وسيرورة الأحداث! فالزواج يعقبه الحمل فالنفاس فحفل اليوم السابع بعد الولادة فنحر كبش التسمية باتجاه مكة فالرضاعة فأولى خطوات المولود ثم ختانه إذا كان ذكراً. . . كل هذه مناسبات للاحتفال، ثم تتعاقب الفصول، يتعرف الناس على كل منها حين يتنبهون إلى ظهور فواكه معينة في الأسواق.

لا أذكر أن أحداً أصيب بمرض! فالكل يتمتع بصحة جيدة. لا يبدو أن والديّ سيموتان. . . هذه قناعة! الخوف، الوسواس من أن تدوسك سيارة. السيارات في فاس لا تصل إلى المدينة العتيقة. تبقى الأسوار. وحده زوج خالتي يملك سيارة. سيارة سوداء من صنع أمريكي. مقاعدها من الجلد. رقم تسجيلها هو 238MA5. أستفسره عن معنى MA بين هذه الأرقام. يقول لي إنّ الحرفين اختصار لِـ MAROC، وإن رقم 5 يؤشّر إلى مدينة فاس، وإن العدد 238 هو مجموع السيارات في مدينتنا، لكن عددها أكثر من هذا في الدار البيضاء.

[28]

تصرخ أمي كطفلة صغيرة. صوتها بعيد المدى. تنادي كلثوم ورحيمو اللتين لا تردّان عليها. تعوّدتا مثل هذه النداءات التي لا ضرورة تستوجبها. تلومهما أمي على كونهما تتركانها تتكلم وحدها... إنهما تتعمّدان إفقادي صوابي... تعتبرانني حمقاء، لا عقل لي ولا رأس... أنا أتمتع بكامل قواي العقلية... أمّي يمكن لها أن تؤكد هذا... يا للعجب! أمي أصغر مني وأخفّ حركة منّي... أراها تسرع في خطوها بتأنق... تستعجل الخروج لحضور حفل زواج ابن أخيها أو ابنة أختها لا أذكر تماماً... سأسألها بعد قليل... ستخبرني بحقيقة الأمر... إذا توكّلتُ على هاتين البدويتين، فلن أحصل على أي جواب.

للخمسينات في فاس طعمُ كَرَزَاتٍ صغيرةٍ شديدة السواد ورائحة ماء الزهر ولون زمن ولّى دون رجعة. الهرم والمرض أعادا أمي إلى فترة شبابها الزاهرة. يُقال إنها كانت إحدى أجمل بنات فاس. تحمرّ خجلاً فترخي عينيها إلى الأرض. أمها فخورة بها، لكنها لا تصرح بذلك لكي لا تمسّ شعور ابنتها الصغرى.

تُرى هل كانت لأمي لعبة مفضلة في صغرها؟ تعلّمتِ الطرز عوض أن تضيع وقتها في اللعب. أعدّت بنفسها جهاز عرسها، فقضت نهاراتها ولياليها تزركش ثوب لحاف السرير وأغلفة المخدّات بالخيوط الملوّنة والرسوم الهندسية ذات الدقة المتناهية. كانت تقول إن الخطأ لا يجوز، وإلاّ سيضطرّها ذلك إلى إعادة العمل من البداية، بل تدّعي إن الطرز الفاسي هو الذي أتلف بصرها. مئات الساعات قضتها في تجهيز لوازم عرسها. تعلمت الطبخ أيضاً، لكن هذا أمر طبيعي، فلا يجوز لفاسيّة ألاّ تتقن أفانين الطبخ.

كانت تحب أن تهيئ الطعام بنفسها دون مساعدة أحد، فتمنع على نفسها الأكل حين تكون مشغولة بالمطبخ. تغمرها سعادة كبرى حين تلاحظ في نهاية الغداء أو العشاء أن الصحون والأطباق فرغت عن آخرها وتسمع من في الدار يُثنون عليها. كان ذلك يكفيها ويغنيها عن الأكل. أحياناً كانت تأكل كسرة خبز مع حبّات زيتون كي لا يغمى عليها. وفي المساء كانت تتهاوى فوق الفراش خائرة القوى، فتنام قبل الجميع. كانت تردد دائماً أنها لن تتبرّم أبداً ما دامت قادرة على الطرز والطبخ. كانت في كامل صحتها.

تتأسف أمي على كونها لم تعد قادرة على الوقوف والخطو دون الاستناد إلى أحد، وعلى عجزها عن الخروج بمفردها لتتجوّل في دروب فاس، مدينة صباها. لعلّ هذا الانكفاء إلى أعماق ذاكرتها الندية يُطمئنها أو يسعفها على تفادي وضعية طالما خشيتها، وضعية أن تجد نفسها فجأةً بين أيدي الآخرين، وعالةً

عليهم. كم تكره هذه الأيدي وهذه الوجوه! كم تشعر بالحنين إلى لغة طفولتها وصورها وروائحها وأصواتها! لعلها بذلك تسعى إلى استعادة نقطة انطلاق ما...

جميعنا متحلّقون حولها من غير أن ترانا، وهو ما أثار أعصاب أحد إخوتي... أنا لا أرى داعياً للأسى. كل ما في الأمر أنها انكفأت إلى أقصى سنوات حياتها، وأنها حين ستعود من رحلتها هذه ستنادي كل واحد منّا لتحكي ما رأته، ولتوصينا بالاعتناء بوالدتها التي تتلهف على الرحيل عن هذه الدار. كل هذا يفتقر إلى المنطق، لكنّ علينا أن نتقبل الوضع كما هو، فنجتمع حولها على رغم أنها لا تنتبه إلى وجودنا.

تريد كلثوم أن يصف لها الطبيب أي دواء يهدّئ نومها. ففي الليل يتبلبل كل شيء ويتسارع: القلق والذعر والصراخ والذكريات التي تُغِيرُ عليها فتمنحها إحساساً بالغرق في هوّة لا قرار لها.

ابنتها لم تعد تأتي لزيارتها إلاّ لماماً، بل إنها كفّت عن الاطمئنان عليها بالتلفون. أما الممرّضتان اللتان تتناوبان على عيادتها لحقن الإبر وتبديل الضمادات، فهما رائعتان. لا تتشابهان على رغم كونهما أختين. تعاملانها كما لو كانت جدتهما، فتقبّلان يدها وتكلّمانها بلطف وتفعلان أكثر مما هو واجب عليهما. لذلك، فأمي تحبّهما، لكنها لا تفرق بينهما، وهو ما يضحكهما ويتسبب في أشكال من سوء الفهم جد مسلّية.

حدث هذا فجأة: غلالة سوداء كثيفة غشيت السماء، فخيم

الظلام على الدار وعلى غرفة أمي كذلك. الظلام ولا شيء سوى الظلام، ومعه هرج ومرج الحياة بعد الغداء: أذان الصلاة وقرقعة الأواني وحوارات شخصيات فيلم مكسيكيّ بالعربية الفصحى وصياح بائع الطناجر مشِيداً ببضاعته وكلثوم متحدثةً مع رحيمو بصوت عال وخرخرة الماء أو بالأحرى صرصرته في أنابيب الحمّام البالية وضجيج الجيران المعتاد في الساعة نفسها وصخب المدينة، ثم أمي التي لم تعد ترى شيئاً. كسرت نظّارتيها القديمتين وزلقت من فوق فراشها تأهّباً للتوكؤ على حوضها من أجل الاقتراب من الطاولة حيث جهاز التلفون. لماذا عرّضت نفسها مرة أخرى لخطر السقوط وتكسّر أحد عظامها؟

حين تغطّي غشاوة ما بصري، أحس بالحاجة إلى الكلام معها. أعرف أنها ليست هنا، ومع ذلك أناديها لتأتي من أجل احتضاني وطمأنتي، لأن هذه الظلماء التي جثمت على صدري فجأة تخيفني. صحيح أنني أسمع ضوضاء الحياة اليومية، لكنني لا أدرك شيئاً، وحدها أمي تستطيع إذن أن تنقذني. لا... إنها ليست ميتة، إنها بعدُ حية، بل ما تزال في ريعان شبابها، طافحة بالحيوية والجمال كالنوارة... ليس ما أقوله هذياناً... أنا أراها الآن بأمّ عيني... ربما أنتم لا ترونها... أما أنا فأراها باستمرار أمامي... جاءت لتحميني... لتضمني إلى صدرها... سنقرأ معاً القرآن... هي تحفظ سورة العرش عن ظهر قلب، تلك التي تمنح البركة والأمان... أنا لا أراكم... أما هي، فواقفة قبالتي بكامل بهائها... لست حمقاء... إنه فقط تأثير هذه الأدوية التي لا تتفاهم فيما بينها داخل جسدي والتي تشعل الفتنة

في رأسي وتتلف عقلي... لكن، أين هما نظّارتاي؟ من الذي سرقهما منّي؟ لا تساويان ريالاً واحداً، لكنهما تسعفانني على رغم أنني أرى الأشياء ضبابية مختلطة... لقد تعوّدت أن أراكم مكلّلين بهالة نورانية... هكذا أنا، ولا أتذمر من حالي أبداً... هل تكسّرت نظارتاي؟ من الذي كسرهما؟ لا... وحده الإطار ما تكسّر... يمكن لي إذن أن أضع الزجاجتين على عينيّ لأرى... لأراكم، أنتم أبنائي، قلبي وكبدي، اللّه يحفظكم لي ويجعلكم فوق كل شر وفوق كل الذين يسعون إلى أذيتكم، الحساد، المنافقين، الأشرار، أولائك الذين سخط أولياؤهم عليهم، اللّه ينجيكم من أعينهم ومن هذا الغبار الأسود الذي تهيجه الريح وترميه إلى جبل الأزبال والنفايات... نعم يا أبنائي، أرى العيون الشريرة في كل مكان... الحسد والحقد والقسوة... كل هذا يتربص بأولاد الناس الطيبين... لكن ربي وأجدادي معكم... لا تنسوا أن تجهزوا لي جنازة رائعة... لا تقتصدوا... إياكم والبخل والحقارة... رحيلي عن هذه الدنيا أريده رائعاً... يجب أن يحفّ بتابوتي جميع أفراد العائلة... وأنتم، أبنائي، ستنوّرون بوجودكم لحظة هذا الرحيل الأكبر المهيبة... ستنشرون عليها الألق والأناقة الجديرين بها... تجنّبوا البكاء... تجنّبوا الصراخ... أكثروا من الأدعية والصلوات... وأنا في وسطكم مثل أي شيء صغير ينبغي إرجاعه إلى مرجعه، إلى خالقه، إلى من يهب لنا الروح والحياة والموت... لكن الموت لا شيء... إنه فقط مجاز إلى شيء آخر أجمل من الحياة، هناك حيث ينتظرني النبي وصحابته...

لكن، لماذا تذرفون هذه الدموع؟ هل قلت ما يدعو إلى البكاء؟ لقد تحدثتُ ببساطة عمّا هو محتم علينا، أي النهاية، الموت... نعم، كونوا سعداء وأنتم تجهزون جنازتي... صحيح أن جسدي سيُطمر في باطن الأرض وستأكله الديدان... لكن روحي سيتلقّاها ربي... وهذا أحسن شيء يمكن لي أن أتمنّاه... ها أنتم أخيراً تضحكون... لقد أضحكتكم... هذه علامة جيدة... أنا لا يخيفني الموت... كل شيء بيد اللَّه، ولا يسعنا سوى أن نطيعه ونتقبل مشيئته... هذا ما علّمني أجدادي إيّاه... أنا لم أذهب أبداً إلى مدرسة، ومع ذلك أعرف أشياء وأشياء... على كل حال أعرف ما كان يجب عليّ أن أعرفه... نحن لا خيار لنا... لكن، أين هما نظارتاي؟ لماذا أظلمت الدنيا؟ هل لاحظتم مثلي أن السماء اكفهرّت فجأة؟ هل هي نهاية النهار؟ هل حلّ الليل؟ أشعلوا إذن جميع المصابيح... كم يعجبني ضياء الأنوار الذي يشرح صدري ويُطمئن خاطري! فكونوا أسخياء معي نوراً وصلواتٍ وأدعيةً... لكن، ما لكلثوم لا تردّ على نداءاتي؟ هذه عادتها... إنها تعيش معي من زمن بعيد... ربما منذ عشرين عاماً... أعرفها جيداً وتعرفني جيداً... غير أنها تعاكسني وتغيظني... تتعمد أن تتركني أناديها من غير أن تجيب، كما لو كان لها شأن... قولوا لي، هل الوقت نهار؟ هل الوقت ليل؟ يحزنني ألاّ أعرف... ما هذه الغشاوة السوداء التي فوق عينيّ؟ لعلها ساعتي قد دقّت... لكنني لا أسمع صوت الآخرة يناديني... فأنا بعدُ حية وأنتظر... لكن، أخبروني لماذا لم

يعد يأتي إلى الدار؟ هل يعرف أن هناك أحمد آخر أصغر منه قد فتح مؤخراً حانوتاً قبالة حانوته وأن له زبائن أكثر من زبائنه؟ أيا أمي، يا من يعتقد الناس أنك ميتة، تعالي... الشوق إليكِ يملأ قلبي ويعيق تنفسي... العائلة كلها حاضرة... جدتي نفسها أبت إلاّ أن تحضر، تلك التي زوّجوها وعمرها اثنتا عشرة سنة، لَلاّ بورية، إنها معنا... هل تذكرينها؟... إنها أمك... إنها تنتظرك منذ وقت طويل... هناك كذلك مولاي علي وأيضاً أصغر أبنائك، ذاك الذي تفضلينه على الآخرين... اليوم يوم عيد... فلماذا لا تأتين لمشاركتنا فرحة العيد؟ أنا لم أتعمد كسر نظارتيّ... لا، الخطأ ليس خطئي... لا تعاقبوني على ذلك... سأحتاط في المرة المقبلة... إنها كلثوم التي نزّلت عليّ الباطل... تنتقم مني لأنها مضطرة إلى البقاء بجواري والاعتناء بي... لا أكفّ عن الحلم بآخر يوم في حياتي، لكنني لا أحسّ بدنوّه، وأنا لا أستطيع معرفة أجلي... أخشى أن يحين وأنا نائمة... أقول هذا لأنّ موتي أريده أن يكون باذخاً احتفاليّاً ينشر السعادة عليكم... أقول هذا لأخفّف حزنكم ولأترك السكينة والوئام إرثاً لكم... أنا لا أملك أشياء مادية ذات قيمة... ليس لدي سوى هذه الدار ورضاي عليكم... لقد لاحظت أن في الحمّام تشقّقات جديدة، فلا بدَّ من ترميمها عاجلاً... لا تنتظروا آخر يوم للتفكير في ذلك... امنعوا عنبر من الدخول، لقد آذتني كثيراً حين كنت صغيرة... أنا أعرفها جيداً، فهي تدفع الباب وتدخل محمّلة بالهدايا، لكنها كلها هدايا مسمّمة... أنا لا أبغي لها سوى الخير... لكن، لتبتعد

عنّا... لتختر وجهة أخرى غير داري... أرى كذلك مجموعة من الفئران في هيئة بني آدم، عددهم ثلاثة... إخوان ثلاثة أساؤوا إلى أبي... ينبغي طردهم... ستتعرّفون عليهم بسهولة... إنهم يضحكون بقوة وباستمرار... سيأتي قريباً يومٌ يموتون فيه مختنقين جرّاء الشرور التي اقترفوها... لكن، ماذا أقول؟ لا أعرف عن أي شيء أتكلم... إنني أقول أي شيء يخطر ببالي... أختلق أشياء لأتلهّى بها حتى لا أحس بعبء الوقت... عجباً! كم الساعة الآن؟ هل صليتُ العشاء؟ أنا لا أذكر هل صليتها أم لا... هذا لا يهم... سأصليها في ما بعد...

ترفع كلثوم عينيها إلى السماء وتقول متنهدة: هي هكذا باستمرار... لا تتوقف أبداً عن الهذيان... تارة تقول إن أخاها أتى لرؤيتها، لكنها لم تكلّمه، وتارة أخرى تقول إن أمها جاءت لزيارتها، فتناديني لتأمرني بتهييء البسطيلة... إننا في هذه الدار نعيش مع الأشباح... تدّعي أنها تراهم... لكنني لا أرى شيئاً... أحياناً أتساءل من يدري، ربما أنها ترى فعلاً جميع هؤلاء الأموات الذين يأتون ليأخذوها معهم... أعترف أنني أشعر أحياناً بالفزع... لكنني سرعان ما أقول في نفسي أنا ما زلت أتمتع بعقلي سليماً، أما هي فلا شك تخرّف... ومع ذلك، من يدري؟... أموات مدفونون تحت التراب يحلّون ضيوفاً علينا! هذا شيء غريب! بيد أن ما يهدئ روعي هو أنها تتخيل نفسها باستمرار في فاس... فكل ما تقوله يحدث هناك، في تلك المدينة... أما هنا، فنحن في طنجة... لم تعد تعرف

أين هي... في بداية جنونها كنت أصحّح لها الأشياء وأوبّخها، فأذكّرها بحقيقة الأمور بدقة... فكانت تندهش وتنظر إليّ نظرة شكّ ثم تقول لي: أنت حمقاء وإلاّ فأنا الحمقاء! منذ ثلاثة أيام وهي تبكي، خاصة حين نجد نفسينا، هي وأنا، وحيدتين... تبكي دون انقطاع لا على حالها، بل لأنها تزعم أن أمها ماتت البارحة ولم يتمّ دفن سوى نصف جسدها ومن غير أن يكون قد تم تغسيله حسب الطقوس الإسلامية... لقد حاولت أن أقنعها بأن أمها رحلت عن هذه الدنيا قبل ثلاثين عاماً، لكنها ظلت بعناد متمسكة بأنها لم تمت إلاّ البارحة... وبقيت تنتحب كطفلة يائسة... ثم انتقلت فجأة لتقول لي إنّ جنازة ابنتها كانت باهتة عديمة البذخ... هنا توتّرت أعصابي وقلت لها إن ابنتها ثريّا ما تزال حية وإنها كلّمتها البارحة في التلفون فور عودتها من مكة... فتوقفت عن البكاء وقالت: إذا كانت ابنتي ما تزال على قيد الحياة، فمن تكون تلك المرأة التي دفنّاها بالأمس؟ هذا لم يحدث بالأمس، إنك فقط تتوهّمين، ترين أشياء لم تقع حقيقة...

تدخل كلثوم إلى الغرفة. تغلق الباب وراءها. تجلس على كرسي. تنظر إلينا واحداً تلو الآخر. تقول: بما أنكم مجتمعون جميعاً هنا، فسأعترف لكم بأنّ صبري قد نفد... صحيح أنها أعزّ صديقاتي، غير أنني لم أعد أتحمّل... إنها ترهقني... أنا في حاجة إلى فترة من الراحة، إلى شمّ هواء آخر، إلى قضاء بضعة أيام مع أبنائي وأحفادي... لكنني لا أستطيع التخلي عنها... حين أخرج صباحاً إلى السوق للتبضع، تتوسل إليّ أن

أعود بسرعة... وأنا لا أستطيع أن أغدر بها... قبل عشرين عاماً، كنت أقوم بأعباء تنظيف الدار، أما اليوم، فقد أصبحتُ صديقتها، ابنتها، والدتها، وسواسها... أنا أيضاً أحبها ولا أتحمل أن أراها تهرف وتخرّف، هذا شيء يؤلمني... أنا أصغر منها بخمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً، لكنني أخاف أن أصبح مثلها في قريب الأيام، أخاف أن أنتهي في زاوية غرفة بين الحمق والأرق، فأبتهل إلى اللّه أن يحفظني وأقرر أن أهتم بنفسي... أنا أيضاً تؤلمني مفاصلي ورأسي ومعدتي... أحاول أن أرعى صحتي... أبنائي يعترضون على كوني لا أزورهم بانتظام... من حين لآخر أسرق بضع سويعات وأذهب لرؤيتهم... من قبل كانوا يأتون لزيارتي هنا، وهو ما كان يبعث بعض الحركة في هذه الدار المتلاشية... هذا أمر غير هيّن، لكن ما العمل؟ ربّي كتب عليّ أن أكون هنا، أن أعتني بهذه المرأة الطيبة في أيامها الأخيرة... الليل هو تحديداً ما يخيفني، فأنا لا أعرف كيف أركّب أرقام هواتفكم، وأحمد نادراً ما يقضي الليل معنا، فيصيبني الهلع والقلق حين تسوء حالتها... أخاف أن أجد نفسي عاجزة عن التصرف... يجب أن توصوا أحمد بملازمة الدار كل ليلة، فهو على الأقل رجل ويمكن له أن ينفعنا في حال وقوع مصيبة ما، وما أظن أن رحيمو لن يعجبها ذلك... هذا كل ما أريد أن أقوله لكم... لقد حفظتُ عن ظهر قلب المواقيت التي أناولها فيها الأدوية... لحسن الحظ أن ألوان العلب لا تتشابه... أحياناً أتسلّى بتغيير برنامج الوصفة، فأعطيها في الصباح حبّة وردية زائد نصف حبّة بيضاء،

وفي الظهيرة حبّتين بيضاوين من العلبة الخضراء، وفي المساء نصف حبّة من العلبة الصفراء وأخرى من العلبة الزرقاء. . . أما هذه العلبة، فأمر سهل، إذ ينبغي أن أناولها كيساً واحداً منها قبل العشاء. . . وحين يضطرّ الطبيب إلى تغيير الأدوية، أجدني في ورطة. . . ومع ذلك أتدبّر أمري حيث أوفق إلى التمييز بينها. . . على كل حال أتمنّى ألاّ أخطئ في المقادير. . . لكن هذا لن يحدث ما دمت قادرة على التمييز بين الألوان وما دامت صحتي جيدة. . . أنا أيضاً يتهددني المصيرُ نفسه، فلم أعد في سنّ العشرين. . . الوقت غدّار. . . لحسن الحظ أن هذه الصداقة تجمعنا. . . أنا أفعل الخير، وأنتم كذلك تفعلون الخير. . . فاللّه يعينكم ويحفظكم.

لسنا جميعاً واثقين من صدق هذه الخاصية المثالية التي تدّعي كلثوم أنها تميّز صلتها بأمي. . . أغمض عينيّ، تاركاً إياها تقول ما تشاء. وهل لنا خيار آخر؟ على كل حال، أمي هي التي تتعلق بها وتحرص على بقائها معها، فلا يجب الإخلال بهذا التوازن الهش. أما رحيمو، هذه التي لا تقول شيئاً، فلا نعرف رأيها. يكفيها أنها تنظف الدار، وتتابع بشغف حلقات Esmeralda، وهو مسلسل من أمريكا اللاتينية، وتؤدي صلواتها الخمس، وتحتج حين تسيء كلثوم معاملتها. أحياناً أحسب أنني أمام مشهد يضم ثلاث شخصيات في جلسة سرية: المريضة وربّة الدار والخادمة، دون أن أنسى أحمد الذي لا أحد يعرف تماماً طويته غير البريئة.

[29]

مؤخراً قرأتُ في جريدة أن الأشخاص الأمّيّين أكثر عرضة لمرض الزهايمر من الأشخاص الذين سبق لهم أن زاولوا نشاطاً عقليّاً كبيراً ومتنوّعاً. وفيما يخص أمي، فقد وظفت مخّها كله لأجل أن تتصور حياة أخرى وأن تجعلنا في منأى عن الشرور وأن ترانا نكبر في ظل حمايتها وبركتها. لذلك، فمجالها العقلي جد ضيق؛ تحفظ بعض آيات القرآن وبضع أدعية وابتهالات إلى اللَّه وتضرعات إلى النبي، وكذا بعض الأغاني الشعبية. هكذا تعيش حياتها مع هذا النزر من الأشياء التي تسكن رأسها وتغيب ثم تعود. كما تعرف بالحدس والعادة أسس ومقاصد تقاليد فاس، مسقط رأسها، وكيف تمشي في دوربها المتاهية من غير أن تضلّ.

إلى هذا المخّ الصغير تسلّل الزهايمر من غير عنف. بين حين وآخر، يحدث لأمي أن تستعيد بضع هنيهات من وعيها فتستخفّ بما يعتور ذاكرتها من تلف. غير أن هذه الهنيهات أصبحت تقلّ وتقصر مع مرور الأيام. لا يؤلمها ذلك، لكنها تقنط، فتستقيل حينئذ من الزمن الحاضر، وتلوذ بمفردها بأقاصي

ماضيها، تحفّ بها من كل جانب أطياف وخيالات من ذلك الزمان الغابر، المؤنس والبريء.

أحياناً أتساءل هل الإرهاق وترداد الهذيانات نفسها هما ما يثير أعصاب كلثوم، أم هو الخوف من أن تنتهي حياتها إلى المصير نفسه الذي آلت إليه أمي.

أفكّر في هذه الحالة من الهبل والخبل، في هذه الغيابات حيث الزمن يتكدر ويتبعثر. أتخيل أمي ناظرة إلى وجهها الشاحب المنهك في مرآة مليئة بالثقوب. أتصورها باحثة في أعماقها عن آثار سعادة أملاً في لأم شروخ النفس وإنقاذ الكلمات من ورطة هذا القلق المؤلم.

تجتاحني كآبة عارمة. لا بدَّ من تخليص نفسي من هذه الهواجس. أفكّر في زيلي، والدة صديقي رولان. أتصورها في الأربعينات بمدينة فيينّا، جميلةً وعاشقةً للحياة، فاتنةً ومتوثبةً، مسافرةً ترافقها حقائب ملابسها وصناديق أمتعتها، لامباليةً، عازفةً على البيانو قبل أن تركب القطار المتوجّه إلى باريس لتعيش قصة حبّ رائعة.

لم تهدأ أمي. تنتحب مطالبةً بحضور والدتها وأخيها الأصغر. كلثوم تضج غيظاً. تارة تقول لها بخشونة إنهما ميّتان ومدفونان تحت التراب منذ وقت جد بعيد، وتارة تجاريها وتنخرط في هذيانها، فتجلسها على كرسيّ متنقّل وتجيلها في أرجاء الدار بحثاً عن الميّتين. . . لا تقلقي يا عزيزتي. . . هيّا بنا. . . سنبحث معاً عن ماما وكذا عن الأخ الأصغر، ذاك الذي تفضّلينه على الآخرين. . . لعلهما مختبئان تحت السرير أو

خلف ستائر النوافذ. . . كفّي إذن عن النحيب يا صغيرتي. . . سأنظر خلف هذه الستارة. . . عجباً! لقد اختفيا. . . هما أخفّ حركة منّا! انتظري. . . لِنَرَ هل هما داخل الدولاب الكبير. . . ماذا أسمع؟ إنها ضحكات خافتة. . . لعلهما يسخران منّا. . . لا تتحركي. . . اصمتي. . . سنعثر عليهما. . . لدينا الوقت الكافي لذلك. . . أجل، لقد هيّأتُ طعام العشاء. . . طبختُ ما يكفينا جميعاً، نحن وهما كذلك. . . أملك تحب طاجين لحم الخروف بالسفرجل والملوخية. . . أعرف أنها تعشق هذه الخضرة الدبقة، أما أنا، فأكرهها[١]. . . ستقولين لي إنني مجرد قروية يعوزها الذوق الرهيف لمعرفة قيمة الملوخية. . . ليس مهمّاً، فقد طبختها لوالدتك. . . ماذا؟ الصالون؟ من يدري. . . لعلهما هناك. . . لا، لا أرى أحداً. . . تقولين إنك تسمعينهما وترينهما؟ صحيح. . . لنكفّ إذن عن البحث عنهما بما أنك رأيتهما. . . نعم، لنعد إلى غرفتك. . . لقد دعوتِهما للعشاء. . . حسناً فعلتِ. . . الآن، سأتركك. . . سأخرج لإحضار الخبز، فلا يمكن تصور طاجين بدون خبز. . . سأتغيب بضع دقائق. . . ساعديني على وضعك في فراشك. . . سأجهز المائدة قبل أن أذهب إلى الفرن لإحضار الخبز الساخن. . . لكن، لماذا تبكين؟ آه. . . تريدين وشاحاً من حرير لرأسك. . . لا. . . تريدين خِماراً لكتفيك. . . لا. . . خرقة لتلعبي بها. . . آه. . . تريدين مالاً لتذهبي عند بائع المجوهرات. . . انتظري إذن مجيء ولدك. . . سيعطيك ما تشائين. . . أوراقاً مالية كثيرة. . . بانتظار ذلك، ابلعي دواءك. . . العلبة الصفراء. . . لا. . . نسيت أي

دواء سأعطيك... أخاف أن أخطئ... إنك تُفقدينني عقلي... لم أعد أعرف ما أفعل... تَشَوَّشَ الأمرُ عليّ... أنا متعبة... لا بدَّ من مناداة ابنتك... على كل حال، هذا واجب عليها... أعرف أنها مريضة... إنها الفترة التي تشتد نوبات الصرع عليها... لا يهم... فأنا هنا... سأظل هنا... هذه حياتي... هذا قدري... وأنا راضية بما كتبه ربّي عليّ...

أمي خائرة القوى. دورانها في أرجاء الدار أنهكها. لا تقول شيئاً. حزينة. تحدق في الفراغ. غائبة. عيناها شاخصتان. تصلّي العشاء وتعيد صلاتها. حين أنهتها، نادت لَلاّ بهيَّة، ابنة خالتها. تكلمها بصوت مرتفع: لَلاّ... يا لَلاّ... أسرعي... هذا نهار كبير... عائلة الخطيب لن تتأخر في الوصول... حذار، لا تضعي على وجهك أية مساحيق... أوصيك بالحشمة... ولا تنسيْ أن تطرقي رأسك... تذكّري هذا جيداً... سأقولها لك مرة أخرى، غضي طرفك... هذا مهمّ، بل مهمّ جدّاً... إنها لفضيحة كبرى أن تنظر الفتاة إلى عائلة خطيبها... وحدهنّ الفتيات المتهتّكات، الفتيات عديمات التربية من يفعلن هذا... إنهنّ غير جديرات بالاحترام... هي ذي أمارة الشرف والعفة... إنها تكمن في هذا السلوك المحتشم، في هذا السكوت... نعم، أنظري إلى الأرض طوال الوقت... لا ترفعي عينيك إلاّ لتشكري والدك ولتقبّلي يديه... هيّا إذن يا لَلاّ، لنبدأ بطقس الحمّام، وبعده ستكون حفلة الحَنّاء.

ستتزوج لَلاّ بهية... ستهجرنا وسنبكيها بحرقة... أنا

كذلك بكيت حين زُوِّجْتُ... كم كان عمري؟ خمس عشرة سنة؟ ست عشرة سنة؟ لا أذكر جيداً... هي ذي كانت العادة... الفتاة لا تتزوج إذا تعدّى عمرها العشرين عاماً... هل تتصورين مبلغ قلق الوالدين، أن تصبح ابنتهما شيئاً غير مرغوب فيه، أن تصبح حبورة، بضاعة بائرة مرمية في قاع حانوت... اسمعيني يا لَلاّ بهية... ليس لنا السّنّ نفسها، فأنت تكادين أن تكوني ابنتي... تعالي، اجلسي بجانبي... خذي يدي بين يديك وأنصتي إلى أدعيتي... سأنادي كلثوم لأطلب منها أن تهيئ الحَنّاء، ثم سنذهب إلى الحمّام البلدي... يعجبني أن أذهب إليه على رغم أنني لا أطيق الحرارة... يا لحسن حظك! لن تنضافي إلى رتل العوانس اللواتي نسيتهنّ الحياة، أعني الزواج... لقد تزوجتُ من رجلي الأول وأنا أجهل كل شيء عن الحياة... كان شابّاً من عائلة شريفة... لم يكن غنيّاً، لكنه كان في منتهى التقوى والطيبة... غير أن الموت اختطفه مني... كان جميلاً... دعاه اللّه إليه بعد نوبة حمّى شديدة، تاركاً إيّاي حبلى... لم أجد وقتاً للبكاء، حيث ولدتُ ابنتي وانشغلتُ بإرضاعها... حليبي كان مدراراً لدرجة أنني كنت أرضع كذلك أختي التي كانت لا تكبر ابنتي إلاّ بأقل من ستة أشهر... كان والدي يتألم لحظّي العاثر، وأمي لا تكفّ طوال اليوم عن الدعاء لي... هل ترين إذن يا لَلاّ بهيَّة، عليك ألاّ تيأسي... ستتزوجين وستلدين أبناء كثيرين... فَرَحِمُكِ خصيبة سخيّة، وقلبك أبيض... تقولين إنك لا تعرفين زوجك؟ سيكون لك الوقت الكافي

لمعرفته. . . لا أهمية لذلك، المهم هو أن تظلّي عفيفة، أعني ألاّ تَهَبِيهِ نفسكِ قبل الزواج. . . نعم، العفة. . . أما في ليلة العرس، فأنتِ له وهو لكِ. . . هذا أمر طبيعي، وإلاّ فلا معنى للزواج. . . اسمعيني، أنا لم أكن أعرف أيّاً من أزواجي الثلاثة، وهو أمر لم يزعجني إطلاقاً. . . ماتوا جميعاً. . . أظن أنهم ماتوا، لأنني لم أعد أرى أيّاً منهم. . . فأين اختفوا؟ كلثوم. . . يا كلثوم، هل رأيت زوجي؟ لا زوجي الأخير، بل زوجي الثاني. . . لم ترينه؟ ماذا أقول يا سيدي يا ربي؟ إنني أهترف. . . وها هي الملعونة تخلّ بواجب الاحترام نحوي! هل سمعت يا لَلاّ بهيَّة؟ كثلوم تكلّمني كما لو كانت تكلّم واحدة حمقاء! فيا للمسخ ويا للخسة! أنا لم أعد أطيقها. . . سأطردها حالاً. . . أين هو ولدي؟ قولي له أن يطردها، فالدار ما زالت عامرة ببنات الخير. . . وأنتِ يا لَلاّ بهيّة، اتصلي بِلَلاّ البتول، إنك تعرفينها، أقصد النكّافة، ذات الأسنان الذهبية، تلك التي تشرف على السير الحسن لمراسيم حفلات الأعراس، قولي لها أن تغيثني بخادمتين اثنتين. . . لماذا تسخر مني كلثوم؟ هل قلت شيئاً مثيراً للسخرية؟ إنني أخلط الحاضر بالماضي البعيد؟ وبعد؟ أي عيب في هذا؟ وفوق كل شيء، من تكون هي حتى أطلعها على شؤوني وحساباتي؟ وفيما يخص الحساب، لن أتركها تنصرف قبل أن تقول لي أين ذهب المليون الذي أخفيته ليلة البارحة تحت الوسادة، فحين أفقت هذا الصباح، لم أجد سوى الجريدة التي خبّأته فيها. . . لقد حسبتُ بنفسي الأوراق المالية واحدة واحدة. . . كان عددها كثيراً وأحجامها مختلفة. . . إنه

ولدي، الذي يعيش في فرنسا، هو من أعطاني إيّاها لأشتري بها كل ما أحتاج إليه. . . آه، كدت أنسى. . . قولوا للقاضي أن يستدعي أزواجي الثلاثة لينبّههم إلى ضرورة الاعتناء بي، فهذا واجب عليهم. . .

[30]

الجوّ حارّ، حارّ جدّاً. هي ذي فاس حين يقترب الصيف. صَهْدُها لا يطاق. شتاؤها بارد وصيفها شديد الحرارة. أنا أقطر عرقاً... أعطني قليلاً من ماء الورد، إنه منعش... ماذا تقول؟ نفد! لقد اشتريتُ بنفسي كمية وافرة من الورد ويبّستها في سطح الدار، ثم ساعدتني بنت خالتي لَلاّ مريّة على استقطار مائها بواسطة الإنبيق، وكانت الحصيلة عشر قنّينات تتسع كلّ منها لِلِتْرٍ واحد... ماذا؟ تقول إنني أحلم، وإنّ هذا حصل قبل ثلاثين عاماً؟ ولنفرض أن هذا صحيح، فهل هو مبرّر لحرماني من ماء الورد؟ ما هذا المنطق؟ وإذا رغبتُ في أكل الخليع، إذا طلبت منك أن تهيّئ لي طاجيناً صغيراً من الخليع بالبيض، فهل سترفض لي هذه الرغبة؟ أفّ! ستحتجّ بأن لحم الخليع يُطبخ في الشحم، وبأنّ الطبيب نفسه نصحني بأن أتجنب المواد الدّهنية، لأنها تتنافى وحِمْيَتِي... لكن، عن أي حِمية تتحدث؟ لقد توقّفت عن أكل السكّر منذ ثلاثين عاماً، والخليع لا علاقة له مع السّكّر! ثم أي خطر تنطوي عليه المواد الدهنية؟ عندي وصفة فعّالة بالليمون الحامض تقضي نهائيّاً على دسم هذه المواد...

لكن، قل لي، أين اختفت كلثوم؟ والأخرى، ما هو اسمها؟ تتظاهر بعدم سماعي! غريب أمر الناس هذه الأيام؟ يتحولون إلى أطياف حين تحتاج إليهم! لا يهم... نحن في فاس، في دارنا بفاس... ها هو أبي قد عاد من شغله... النور يسطع من وجهه... هو دائماً هكذا... بشاشة وسعادة... أخبرنا بأنه اشترى جملاً... يجب أن نستعدّ لطقوس ذبحه... سنستعين بالعربي، جزّار الحيّ، ذاك الذي تزوج بالمرأة الأولى لزوجي الأخير... تذكرين، آخر أزواجي الذي كان متزوجاً بفطومة التي لم تكن تلد... فقد كان يبحث عن امرأة أخرى لتُنجب له أبناء، وعمي هو الذي اقترح عليه أن يتزوج بي على رغم أنني ترمّلتُ مرتين... لا شك في أنه تردد في الاقتران بي بحجة أنني ربما منحوسة... لكنّ الأقدار شاءت أن يتزوجني مع احتفاظه بفطومة المسكينة رهن الاحتياط... وحين حبلتُ أنا، بادر إلى تطليقها... ماذا؟ تقولين إنني سبق أن حكيتُ لك هذه القصة؟ لا... أبداً... لعل شخصاً آخر هو الذي اختلقها... لا علينا... إذن، العربي، الذي ستلد له فطومة ثلاثة عشر ابناً، هو الذي سيتكلف بذبح الجمل... سيصرخ الجمل مثل كائن بشري... أبي يحب هذا الطقس الذي يسمح بجمع كل أفراد العائلة... في بداية كل فصل ربيع، نعرف أن مولاي أحمد سيشتري جملاً... أمي لا ترى داعياً لتوجيه الدعوات، فبمجرد ما يدلف الجمل إلى دروب المدينة الضيقة، يتقاطر أفراد العائلة على دارنا ضيوفاً لعدة أيام... والدي يعشق هذه الأيام... في المساء يلعب الورق مع رجال العائلة، وفي النهار يحكي لجيرانه

التّجّار كيف ربحهم... كان رجلاً ورعاً، حساسيته رهيفة، يحفظ القرآن عن ظهر قلب، يقول إنه لا يفهم لماذا بخس الشرع الإسلامي المرأة حقها في التركة، فجعلها ترث فقط نصف ما يرثه الرجل... كان ذا جرأة وصراحة في آرائه نادرتين، فكان يعاملنا جميعاً، إناثاً وذكوراً، على قدم المساواة... كان رجلاً رائعاً... أنا أنتظره الآن... إياك أن تنصرفي... إنه يحبك كثيراً... سترين هذا بنفسك... بعد قليل سيأتي، وكعادته سيحمل معه سلة مليئة بالفواكه، تفاح إسْبانيا والموز والجوز وتمر السعودية، وكذا لُعباً لكِ ولأخيك... سترين أن له لحية بديعة، بيضاء كلها... ويلي... ويلي... ويلي... الوقت متأخر... سأقول لكلثوم أن تأتيني بالطنجرة لأحضّر طعام الغداء... يا ربي، أنا لم أعد أستطيع الوقوف... لكنه، حين سيأتي، سيقرأ بعض الأدعية، وسأستعيد صحتي كما كانت من قبل...

هذا الصباح، كلّفت كلثوم مَنْ يتلفن إليّ لتقول لي إن صبري قد نفد... قضينا معها ليلة بيضاء... لم أغمض عينيّ دقيقة واحدة... والمصيبة هي أنني كنت ملزمة بالإنصات إليها، إلى تخاريفها التي لا رأس لها ولا رجلين، وبالإجابة حين تسأل، وبإيقافها حين تسقط من فوق الفراش لأنها أرادت أن تخرج لتذهب إلى المقبرة لإيقاظ الموتى الذين يتظاهرون بالنوم، الموتى الذين يقضون النهار معها ويتخلّون عنها في الليل... لا... لم أعد أتحمل... سأصبح مثلها مختلة العقل أخرج وأدخل في كلامي... لكنني أنا لا أحد لي يعتني بي إذا ارتميتُ

في ركن ما من الدار... صحيح أن لي أبنائي وأحفادي، لكن كل واحد يفكّر في نفسه وقد أموت من غير أن يعنيهم ذلك... لا... هذا فوق طاقتي... عليك أن تأتي بسرعة لتكلمها أو لِتُودِعَهَا بين يدي طبيب مختص في الرأس ليعطيها أقراصاً تهدئها وتوقف هذياناتها وتنوّمها خاصة... هل تعرف، لقد ظلت طوال الليل تبحث تحت السرير عن المختار... ستسألني من يكون هذا المختار... إنها تزعم أنه ابنها الذي ولدته في الشهر الماضي، وتارة تقول إنه رضيع الممرضة حليمة، لا بل رضيع أختها التي بلغ افتخارها بمولودها الأول هذا درجة جعلتها تأتي به إلينا لنفرح به، من غير أن تعرف أن هذا سيتلف عقل والدتك، لأنها بمجرد ما رأته حسبته ابنها، فأرادت إرضاعه وبدأت تغنّي له إحدى أغنياتها القديمة، بل رفضت أيضاً أن تعيده لوالدته، فكان علينا أن نحتال لانتزاعه منها، فبكت حليمة... ومنذئذ لم تعد تزورنا... لكن والدتك أصبحت تلهج بالطفل الصغير... إنه يستحوذ على مشاعرها... تِسمّيه المختار وتطالبنا بإحضاره... هذه حالنا هنا في الدار... تبكي دون توقف وتقول إن الموتى أخذوا الرضيع معهم... ولهذا السبب، تريد أن نذهب بها إلى المقبرة لاسترجاعه... في هذه المحن أغرق كل يوم... أحس بأنني سأجنّ... قدرتي على التحمل خارت عن آخرها ولا حقّ لي في الاستراحة... أنا أعرف أنها متعلقة بي مثلما أنا متعلقة بها... لكن يحدث لي أن أفقد أعصابي كما حصل هذه الليلة... شي آخر: سخّانة الماء بدأت ترشح... الرّصّاص يقول يجب تبديلها بأخرى

جديدة... إنها غالية الثمن... كما أن الصيدلي لم يعد يقبل تزويدنا بالدواء بالدّيْن وبدأ يرفض أن نسدد ثمنها بالشيك، إنه يريد النقود، وأنا لا أعرف أمور البنك... الشيكات التي تتركها لا أعرف كيف أستعملها... فما العمل... عليك أن تعود من فرنسا حالاً لتحلّ هذه المشاكل...

أمي لم يدهشها أن أصل إلى طنجة على عجل. هي مقتنعة بأنني أسكن معها في دارها. حسبتني أخي الأكبر. جسدها ازداد ضموراً. قالت لي الجلد على العظم... لا شيء سوى الجلد على العظم... حين كنت صغيرة، كنت الوحيدة بين بنات العائلة التي تملك نهدين جميلين... جسدي كان متسق الأطراف، لحيماً دون رخاوة، لا أثر فيه لعظام بارزة... هات يدك... المسْ ذراعي... فلن تمسّ سوى جلدة رقيقة مجعّدة لا تكاد تغطي العظم... هل تعرف يا ولدي أن كلثوم تعاملني كما لو كنت واحدة حمقاء؟ هي مقتنعة أو تريد إقناع الآخرين بأنني ولدت هذه الأيام ابناً آخر... فيا للانحطاط! إن عقلي ما يزال والحمد للّه في تمام قوته... من يمكن له أن يصدق هذا: امرأة في سنّي تلد ولداً! لقد خلطتْ رضيع الممرضة بالطفل الذي ولدتُه قبل أن ألدك أنت والذي مات أياماً قليلة بعد ولادته... كنا قد سميناه المختار، ثم دفنّاه في باب الفتوح... هل تذكر المقبرة التي هناك في مخرج فاس... إنها على بعد ربع ساعة من هنا... تخرج من الدار... تمشي في الطريق الأولى على اليمين... إنها بوعجارة... ثم تعبر الرصيف الذي يفضي بك إلى الفخارين... لا... انتظر... أظن أنني

أخطأت... إسمع... لا شيء أسهل من الذهاب إلى مقبرة القبب بباب الفتوح... تخرج من الدار... وحين ترى تابوتاً يحمله أربعة رجال أقوياء، اتبعه، فسيوصلك إلى المقبرة... إلى هناك أردت البارحة أن أذهب... لكن كلثوم تحرص على معاكستي وتنغيص عيشي... أرادت أن تقنعني بأننا لسنا في فاس... أنا لم أغادر مدينتي أبداً، فلماذا تزعم هذه البدوية الغبية أننا في طنجة؟ الحمقاء هي هي، أليس كذلك؟ نحن الآن في فاس، أليس كذلك يا ولدي؟ قبل أيام قليلة، فتح والدك متجره في حيّ الديوان حيث يبيع التوابل: الكمّون والفلفل والزنجبيل... هو لا يبيعها أبداً بالتقسيط، بل بالجملة... اذهب عنده... قل له إن طعام الغداء جاهز... إلاّ إذا كان يريد أن يتغدى في المتجر بسبب كثرة الطلب... اذهب عند كلثوم وقل لها إننا في فاس وإن السلطان تم نفيه وإن جميع المغاربة يبكونه وإن الوطنيّين يتظاهرون مطالبين بإرجاعه إلى عرشه...

لكن... أَيِّمَا، نحن في طنجة، وأنتِ تخلطين الأزمنة بعضها ببعض، وكلثوم صادقة في كلامها. اسألي اللّه أن يرزقها الصبر لتبقى إلى جانبك...

هذا مستحيل! يعود السلطان محمد الخامس من المنفى ولا أحد يخبرني بذلك! ماذا؟ تقول إنه مات؟ أي مرض قتله؟ لكن، لماذا تخفون عنّي هذه الأشياء؟ هل تريدون أن أخرج عن عقلي؟ دعنا من هذا يا ولدي... بالأمس، اغتسلتُ في الحمّام بماء فاتر، ماء يكاد يكون بارداً، لأن سخّانة الماء تعطلت... ليس

من السهل أن تعثر هنا على رصّاص يصلح هذه الأعطاب... فاضطرّت كلثوم إلى تسخين الماء في طناجر وغسلتني كما لو كنتُ رضيعة... صحيح، لقد أصبحتُ جدّ صغيرة ونحيفة لدرجة أنها تعتبرني طفلة رضيعة... أنا! رضيعة! انظر، أنا ما زلت فتية، والدليل أنني أرضعتُ قبل أيام وليد الممرضة... تركته عندي... أعطتني إيّاه... إنه ظريف ولطيف... مثلك تماماً... عيناك وأنفك وشعرك... لكنهم خطفوه مني... قالوا إنني معتوهة عاجزة عن تربيته... فأعطوه لامرأة أخرى لترعاه... أظن أنها ممرضة... فقلت لهم إنني موافقة، لكن شريطة أن ترجعوه إليّ حين أبرأ من مرضي... فأنا في كل الأحوال والدته... هل تعرف؟ أنا أحلم به كل ليلة... أراني حاملة الرضيع بين يدي وأنا في ضريح مولاي إدريس أسأله أن يباركه ويبارككم جميعاً... اللّه شاهد على ما أقول... أنا لا أكفّ عن التماس رحمته وشكره على وهبي هذه الهدية الرائعة، رضيعاً جميلاً ذا بشرة بيضاء هي ما يعجبني... كم أحبّه! هل تعرف... أنا لا تعجبني البشرة القاتمة... أعرف أنك ستعيب عليّ هذا... أنا أفضل الأطفال الذين ولدوا في فاس ببشرة بيضاء، بشرة وردية اللون، بشرة تذكّرني خاصة ببشرتي حين كنت صغيرة... أرى أن ما قلته يضحكك... لكنه صحيح... لقد كنت جميلة... اسأل والدك... تزوّجني وعمري يقل عن عشرين سنة... قل له أن يحكي لك... ماذا؟ مات... صحيح، الحق معك... لكن، حين تزور قبره للترحم عليه، اسأله... فمن واجبنا أن نكلّم الأموات لأنهم

أحياء في قلوبنا... اللَّه يقول هذا... هذا مذكور في القرآن... أتمنّى أن تخبرني بكل شيء حين أكون مدفونة في قبري... كم تسعدني فكرة أن تناجيني على رغم أنني لن أستطيع سماعك ولا إجابتك... فهذا يطمئنني يا ولدي... لقد قلت هذا لأخيك الأكبر، ذاك الذي يحفظ القرآن عن ظهر قلب... لقد وعدني أن يقرأ سورة في كل مرة يأتي إلى قبري للترحم عليّ... فالقرآن يشرح الصدر ويدثّر النفس بالرحمة والرأفة... أعرف هذا لأنني على بعد إصبعين من التراب الذي سيشملني... أشعر بهذا ولا يخيفني إطلاقاً... فالقرآن، كلام الله، سيكون معي... الملائكة الذين على كتفي اليمنى يضمنون هذا الحضور... ولأجل ذلك، لا بدَّ من أن نكون طيبين، مستقيمين، قلوبنا بيضاء... وأنا حرصت طوال حياتي على أن يبقى قلبي في منأى عن كل الأوساخ والدنَس... فأنا مثلاً لم أعرف معنى للسرقة والكذب والخيانة والشر. حين كان والدك يسيء معاملتي بتلميحاته الجارحة، كنت أردّ عليه بآية من القرآن وأقول له: أُودِعكَ بين يدي اللَّه الذي سيجازيك، أما أنا فمجرد عبد مسكين مؤمن باللَّه ونبيّه.

نبّهتني أمي مؤخراً إلى أن أصدقائي لم يعودوا يترددون إليها للاطمئنان على حالتها، فأنت لا تعرف كيف تحافظ على أصدقائك أو لا تعرف كيف تختارهم، فما الذي حدث بالضبط؟ خذ الزيلاشي مثلاً... من قبل، كان يزورني بين الفينة والأخرى، فيهديني كمية من العود القمري ويسلّيني بكلامه ويقبّل رأسي كما لو كنت أمه... كان رجلاً لطيفاً، مهذّباً،

رهيف الإحساس بالأشياء... ماذا وقع له؟ لماذا كفّ عن زيارتي؟ كان، حتى وهو وزير، يجد الوقت ليجالسني ربع ساعة من حين لآخر... من حين لآخر، أراه في التلفزيون... ما أجمله! يبدو وكأنه استعاد شبابه... هو لا يفارق السلطان... فنعم الرجل... كما أن صديق طفولتك أمسك رجليه عن دارنا... من قبل، كانت زوجته تزورني، فتدردش معي ثم تنصرف بلطف... غريب! طباع الناس بدأت تتغير بسرعة وبدون سبب... المهم هو أنني لم أعد أرى أثراً لأصدقائك... لعلني أضايقهم... أعرف أنني أفتقر إلى حسّ الظرف والدعابة... لكن... لماذا أهتم بهذه الأشياء؟ فهم أصدقاؤك وأرجو أن يكونوا بخير... أخي الأصغر، ذاك الذي جاء قبل قليل، له أصدقاء كثيرون... سأقول لوالدك إنّ الزيلاشي قطع زياراته، فلا شك في أن شؤوناً أخرى أهم من ذلك تشغله... فهو وزير وربّ عائلة وأشياء أخرى... أما أنا، فلا اهتمامات لي... أبوك في المتجر وأنا في المطبخ... هذه حالتي منذ الأزل... المطبخ، كنس الأرض، المائدة، تنظيف الملابس، غسل الأواني، دون أن أنسى والدك الذي يسخط لأنّ الطعام ينقصه الملح... أرجوك، كلِّمه حين يعود... أنا لم أعد أطيق سوْرات غضبه... تقلّبات مزاجه تكدّر عيشي... يعاملني كما لو كنت خادمته... نعم، أعرف أنك ستقول لي إن والدك مات قبل عشرة أعوام... أعرف هذا... لكنه لا ينفكّ يأتي من حين لآخر، يدفع الباب، يدخل على أصابع رجليه، يلقي نظرات تفحّص وتفتيش ثم يختفي... أنا لا أراه، ولكنني

أحس به، فأكلّمه، أقول له كل ما يغمّ قلبي، لا أترك أي شيء، أفرغ جميع ما في مزودتي، فينصت إليّ في صمت، لأنّ الأموات لا يتكلمون، أليس كذلك؟

لأمّي رائحة كريهة. إنها رائحة الغائط. لقد تغوطت تحتها من غير أن تشعر، نعم، هي التي كانت في منتهى الأناقة والجمال والحرص على النظافة... لم تعد من كانت. لم تعد تتذكر ما كانت. أكيد أن ما صدر منها كان سيروّعها لو كانت في تمام وعيها. أنظر إلى كلثوم تطلب مني بإشارة من رأسها أن أغادر الغرفة، بينما تقومان، هي ورحيمو، بحملها إلى الحمّام.

أمّي... الأناقة جسداً واللباقة روحاً! أمي... التي كانت مهووسة بقواعد الصحة وكان جسدها يتضوع برائحة طبيعية لا أثر فيها للعطر! أمي... التي كانت تنثر رونق الربيع على سطح دارنا في فاس! أمي... أتذكرها عائدة في كامل بهائها من الحمّام البلدي. كعادتها تنحني لتقبيل يد والدي الذي يقول لها: بالصحة! نصعد إلى السطح الذي يفضي إلى سطح الجيران لتناول الغداء. نتخطّى الرسميات فنضمّ طعامنا إلى طعامهم. الجارة تثني على رائحتها الزكية. الحرارة معتدلة. أراني ألاعب إحدى بنات الجيران، بينما أخي الأكبر يراجع فرض الإنشاء قبل أن يسلّمه إلى المعلّم. نهداها صغيران. أمثّل دور الطبيب. تتظاهر بإغماءة. أضمها بين ذراعي. أمي تتابع المشهد من بعيد. تضحك. الصغيرة تهرع إلى أمها لتختبئ بين تلافيف لباسها. أنا أيضاً تمسك بي أمي وتحضنني. أشم رائحتها ملء أنفي. رائحة الأم الحنون، الأم السعيدة، الأم في أتمّ عافيتها.

لا تفهم أمي لماذا تجبرها كلثوم على القيام بتنظيفها أكثر من مرة، خاصة وأنها لا تفعل ذلك عن طيب خاطر! تحتج أمي على ذلك، ومعها رحيمو التي تستغرب هذا التصرف. أنا في رواق الدار أرى المشهد، عاجزاً عن التدخل. أمي تشهق. مثل طفلة صغيرة متلبسة بخطإ ما تشهق. أتحسر على كوني لم آت قبل الحادث أو بعده بنصف ساعة. لعل كلثوم تتعمد أن تتركها مرتبكة في غائطها لأعاين بنفسي ما تقاسيه معها كل يوم حين أكون أنا في فرنسا. من يدري؟ هذا نموذج واحد ممّا أتحمّله من أعباء لا تعرفونها... تكتفون بزيارتها في وقت الشاي، تقبّلون يدها، تطلبون منها أن تدعو لكم بالخير والبركة، ثم تسارعون إلى الانصراف، فأبقى وحدي في مواجهة محنة أرقها ومحنة الإنصات إلى هذياناتها ومحنة جمع أوساخها ومحنة تنظيفها ومحنة الجثو على ركبتيّ لغسل الأرض... نعم، إن أمّكم أصبحت لا تقدر على ضبط نفسها، تتبوّل وتتغوّط تحتها دون أن تشعر بذلك، وأنا راضية بما قُسِمَ لي... أما أنتم، فيكفيكم أن تتقزّزوا، أن تشيحوا بوجوهكم... أحياناً يخيّل إليَّ أنني أنا هي المريضة، أنا التي أهذي، أنا التي أغتسل حين أكون أنظفها... أفكّر في حالتها دون انقطاع... قبل أقل من عشرة أعوام، كانت مريضة، لكنها كانت ما تزال تطبخ وتحرص على نظافتها وتعتني بأناقتها... كنّا نتداول في أمور تارة مهمة، وتارة أخرى تافهة، وتضحكني وأضحكها... أما اليوم...

[31]

أمّي تصلّي. تطلب منها كلثوم أن تكفّ عن تحريك عينيها وأصابعها. تصلّي وهي جالسة في صمت. لكن... لا صلاة مقبولة بدون وضوء... تقول إنها نظيفة، زاعمةً أنها عادت توّاً من الحمّام البلدي الموجود في حي المخفية بفاس، حيث كانت الحرارة خانقة، فتمّت معاملتي برقّة ولطف... كان الحمّام مكتظّاً بالنساء، خاصة وأنّ منهنّ من وفدن من أحياء أخرى بعيدة... كلّهنّ يحببن هذا الحمّام لأنه واسع ونظيف وحسن السمعة... أنا نفسي لا أجد راحتي إلاّ فيه... حجزتْ لي سلمى مكاناً غير بعيد عن مَصَبِّ الماء الساخن، ووضعت أمامي ثلاثة سطول، ثم حَكَّتْ ظهري بعناية، وكذلك ساقيَّ وذراعيَّ... الحقّ أقول... نظفتني كما يجب، فهي تعرفني منذ زمن بعيد... تعرف ما أحتاج إليه... أعطيتها مؤخّراً دملجاً من ذهب لأشكرها على حسن عنايتها بي... المسكينة لم تصدّق... لهذا السبب أصبحتُ بدون مجوهرات، فرّقتُها كلّها، فأنا يعجبني أن أهدي أشيائي إلى المحتاجين... لكن... أين اختفى قفطاني الأبيض، ذلك الذي لبسته عند

خروجي من الحمّام؟ أنا لا أحلم، أذكر جيداً أنني أخرجتُه من الدولاب وعطّرته بماء الورد، كما أخرجتُ ملابسي التحتية وجواربي البيضاء ووشاح رأسي الأصفر الكناري والمنديل المطرّز وكل ما أحتاج إليه. . . اسألوا حبيبة إذا لم تصدقوني، فقد ساعدتني على إعداد رزمة الحمّام. . . ماذا؟ تقولون إنكم لا تعرفون حبيبة؟ كفاكم مزاحاً. . . تتظاهرون بأنكم لا تصدقونني. . . اتفقتم جميعاً على معاكستي. . . دعوني أصلّي من جديد. . . أعطني حجرة التيمّم. . . سأخيط قفطاناً آخر ألبسه حين أخرج من الحمّام في المرة المقبلة. . .

أمّي لا تتألّم. إنها شاردة. حين وصلتُ، نادتْ على الخادمتين وطلبتْ منهما أن تجهّزا المائدة وتتفرّغا للمطبخ. قرّرتْ أن يكون الكباب هو وجبة الغداء هذا اليوم. تقول إنها نظفت القضبان بنفسها وقطّعت اللحم، ثم مرّغت القطع في شرمولة حضّرتْها من خليط من البقدونس والكزبرة وشرائح البصل والبهار والفلفل الحلو والملح وقليل من زيت الزيتون. ثم أمرت كلثوم بإيقاد النار في الكانون لأجل شَيِّ الكباب. تقول أيضاً إنها أعدّت طاجيناً بالدجاج والزيتون والليمون المرقّد، حيث قشّرت بنفسها بصلتين ووضعتهما في طنجرة مع خليط من الزيت والماء والزنجبيل والبهار والملح وغبيرة من الزعفران الحرّ، ثم وضعت الطنجرة على نار خفيفة. ولم تنس أن تنبّه كلثوم إلى ضرورة أن يكون الدجاج بلديّاً، وليس روميّاً تمّت تربيته في المصانع بحجم كبير. هذا ما قالت إنها هيّأته، كان هذا فقط قولها بفمها، لأنها في الحقيقة لم تهيئ لا الكباب ولا

طاجين الدجاج، إضافة إلى أن الوقت لم يكن وقت غداء! ومع ذلك، رأيتُها منتشيةً تتظاهر بِشَمٍّ رائحة الكباب والدجاج!

لا شهية عندي قالت أمي. فكل هذه الأدوية التي أتجرعها تقطع شهيتي للأكل... لكنّ ما يسرّني هو أن أراكم تأكلون ما طبختته لكم... هذه سعادتي... إيّاكم أن تقولوا لي إنكم مدعوّون عند أحد أصدقائكم... لا، أنا أرفض هذا... قولوا له إن والدتكم قضت النهار كله تحضّر لكم الأكلات التي تحبونها... وحين سأراكم مجتمعين حول المائدة، سآكل، فقط لأنني سأراكم... غداً سأدلّل والدكم... سأقدّم له أكلته المفضلة، وهي طاجين بقوائم العجل مع قليل من الحمّص والقمح... ستكون أكلة جد مُتَوْبَلَةٍ... سأتركها طوال الليل تُطبخ على مهل فوق الجمر... ستكون أكلة شهية... لقد أمرتُ كلثوم أن تذهب عند بوشتّى، أكبر جزّاري فاس، لشراء قوائم العجل، التي ينبغي تنظيفها جيداً وحَكُّهَا لإزالة زغبها، ثم تركها وقتاً طويلاً في الماء والملح... لا بدَّ من الانتباه إلى الثوم، فإذا أردتَ القضاء على رائحته الكريهة، فلا بدَّ من إزالة رشيماته الخضراء، فهي أصل الرائحة الكريهة... الناس لا يعرفون كيف يجعلون الثوم غير مؤذ!... لكن... أَيْمًّا، لقد فارق أبي الحياة منذ أحد عشرة سنة... ماذا تقول؟ حسناً، هذا لا يهم... يكفيني أنه يحب هذا الطاجين من تحضير أصابعي... لا بدَّ إذن من إرضائه وإسعاده... فحتى الموتى ينبغي أن نعتني بهم... غداً إذن سيأكل أصابعه مع هذا الطاجين... لكن، ماذا تفعلون؟ أرى أنكم تجمعون أطرافكم!

الغداء جاهز... اجلسوا... تقولون إنكم ذاهبون إلى منازلكم؟ هنا منزلكم... أبوكم لن يتأخر عن المجيء... هيّا، خذ التلفون واتصل به، وإذا لم يردّ، فهذا يعني أنه في الطريق إلى الدار... إنه يرفض أن يستقلّ التاكسي... يقول المشي أحسن من التاكسي... لكنني أعرف أن التقشف هو سبب رفضه، فوالدك لم يكن أبداً سخيّاً... لا، إنه يوفّر فلوسه... وفوق هذا، لم يكن غنيّاً... نحن على قدّ الحال... أقول له سنصبح أغنياء حين أرث والدي الذي يملك ضيعات في طريق إيموزار... إنه يهتم بها كثيراً... أعرف أنني سأحصل على نصيبي ذات يوم قريب... لكن لا أحد يجرؤ على الحديث في هذا الموضوع ما دام والدي على قيد الحياة... عيب أن نفكّر في الإرث الآن... ثم إننا لا نعرف من الذي سيموت الأول... اللّه وحده علاّم الغيوب... أنا أعيش في كنف اللّه... يحميني ويبعد عني الشرّ... عندما يحين أجلي، يكفيني أن أغمض عينيّ وأقول أشهد أن لا إله إلاّ اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه... سأبقى أردّد هاتين الشهادتين إلى أن تزهق روحي، إلى أن يشملني صمت عميق وليل رائق...

اليومَ وصلتُ إلى طنجة دون سابق إشعار... وجدتُ كلثوم تحيط بها امرأتان جميلتان، وجههما مطليّ بالمساحيق، تمسك كل منهما بهاتف جوّال. ارتبكتا، فتدخّلت كلثوم: إنهما ابنتا ولدي الأكبر... تشتغلان في المنطقة الحرّة بالميناء، في مصانع الملابس الجاهزة، وقفتا وحَيَّتَا أمي، ثم غمزتاني كما لو كنّا نتعارف، ثم انصرفتا، ترافقهما كلثوم إلى الباب. شعرتُ

بأنها أيضاً مرتبكة. لم أقل شيئاً. تكرر على مسمعي أنهما حفيدتاها الكبريان وأنهما طيبتان. أنصت إليها في صمت. تواصل تبرير حضورهما. أفهم مقصدها وأجلس بجانب أمي التي تهمس لي قائلة إنهما ابنتا ابنتها أو ابنها لا أعرف بالضبط، فهي لها عدة أبناء وبنات... ستة أو سبعة، لم أعد أذكر... الأولاد عاطلون عن العمل، والبنتان وحدهما تشتغلان... ليقطع اللَّه لساني إذا كنتُ ألمّح إلى شيء ما... أظن أنهما... لا، أنا لم أقل شيئاً... أنا لم أفكّر في أي شيء بتاتاً... الحياة صعبة... لكل واحدة ذلك التلفون الذي تضعونه في جيوبكم... أنا لا أملك سوى هذا التلفون الذي دائماً يتعطّل والذي لا تصل إليه يداي بسبب قصر سلكه... أرجوك يا ولدي، اشتر لي تلفوناً آخر مثل الذي عند حفيدتَي كلثوم... أعرف أنني لن أحسن استعماله... خذ لي إذن واحداً يصلح فقط للرّدّ عليكم حين تكلّمونني... لقد مللتُ من هذا التلفون بالسلك... انظر، إنه موصول بسلك آخر هو نفسه موصول بخيطان! إنه جهاز غير عملي... حين أجذب قليلاً، تنعدم الحرارة... وحين يتعطّل، يخفق قلبي بشدّة... أقول في نفسي إنها اللحظة بالضبط التي ستكون تكلّمني فيها من فرنسا، فيردّ عليك الخواء... أرجوك إذن أن تخلّصني من هذه الهريسة... الفتاتان تزوران كلثوم من وقت لآخر... أظن أنهما تعطيانها فلوساً... وقد تكون هي التي تمدّ يدها إلى ما أدّخره من فلوس وتعطيهما منه... تقولان إنهما مخطوبتان، لكنني أشكّ في ذلك... أنا لم يسبق لي أن كان لي

خطيب... انتقلتُ مباشرة من لهو الصبيان إلى غرفة الزوجية حيث كان رجلي ينتظرني... كنت أخاف... المجهول! فأغمض عينيّ... أما الباقي، فلا أريد أن أتذكّره... اليومَ تغيّرت الأشياء... البنات يشتغلن سافرات... أحياناً أتساءل كم تكسب ابنتا كلثوم... لديهما جواهر وأحذية مستوردة من إسبانيا... أبوهما عاطل عن العمل... كانت لديه شاحنة... وحين تسبّب يوماً في حادثة سير، تبيّن أنه لا يتوفر على وثيقة تأمين وأنّ رخصة سياقته مزوّرة، فكاد يسجن... صادروا شاحنته فقط... لحسن الحظ أن الحادثة لم تخلّف لا قتلى ولا جرحى... والآن هو بطالي، فخرجت ابنتاه إلى الشارع... كلثوم تقول إنهما تشتغلان في الميناء... لكنهما أحياناً تزوران أمهما صباحاً في الوقت الذي يُفترض فيه أن تكونا موجودتين بالمصنع! أرى كل هذا... ألاحظ كل شيء في صمت... لكنني أستنكف عن إساءة الظن بهما.

كلثوم سئمت حالتها... رحيمو ضجرة... أنا نفسي قانطة... والتلفزيون لا يبثّ سوى ما يغمّ القلب... والمائدة عرجاء نخر الأسى إحدى قوائمها... والممرضات يبادرن إلى الانصراف خوفاً من أن يصيبهنّ الملل... وأبنائي سئموا الوضع، ألحظ هذا على وجوههم وفي حركاتهم... أتفهّم إحساسهم، فحالتي تتعبهم... أخلط النهار بالليل... أشرد كثيراً... الأمور يختلّ منطقها... وحدها عائلة كلثوم أو رحيمو تأتي لتطرد الملل... يقول والدك إنها تتعمد المجيء قبيل الغداء لتزرد وتعلف ثم تنصرف... رحيمو لها أختان

سمينتان، تأتيان بمعية أبنائهما... تجهّزان المائدة... يأكلون... يتجشّأون... يشربون كؤوس الشاي محدثين ضجيجاً مزعجاً بألسنتهم، ثم يصفقون الباب وراءهم... إنهم بدو لا يسكنون بالمدينة... أناس ينتمون إلى زمان آخر... غير مهذّبين... لكنني أتحمّلهم... أقول في نفسي إن ما أفعله فيه خير وحسنة سيكافئني ربّي عليهما... لذلك، لا أستطيع منعهم من المجيء... فكأنني أتصدّق أو أزكّي... نعم، والدي أوصاني دائماً بفعل الخير وبالإحسان إلى المحتاجين... أعطي حتى وأنا لا أملك ما أعطيه... أزكّي بطريقة مختلفة... وأغضّ الطرف عمّا لا يعجبني... ليس لديّ خيار... نعم يا ولدي، لا خيار آخر لي... عجباً! أرى أن رَجلي لم يعد بعد من عمله... طال انتظاري له ولم يصل بعد... أرجو ألاّ يكون حدث له مكروه... أبوك رأسه قاسحة... هو دائماً آخر من يغلق حانوته... سأبقى أنتظره... خذ التلفون واتصل به... قل له أن يسرع، فالطعام يبرد...

لكن، أَيْمَّا...

أعرف... ستقول لي مرّة أخرى إن والدك فارق هذه الدنيا... لا، إنك مخطئ... هذا الصباح رأيته، تكلّم معي، بل وطلب مني أن أحضّر له طاجيناً بقوائم البقر، إذن... آه... لقد فهمتُ، لعلّه عرّج على حيّ الشّمّاعين ليسلّم على سيدي عبد السلام، عمّي، ذلك الذي خطّط لزواجنا... هما صديقان، حين يلتقيان، يستغرقان في الحديث إلى درجة نسيان وقت الغداء...

لكن، أَيْمَّا، الوقت ليس نهاراً... نحن في الليل... الساعة تشير إلى الثانية صباحاً. الكلّ نائم... كلثوم نائمة، رحيمو نائمة، وأنا أترنّح من النعاس. لقد قبلتُ أن أبقى إلى جانبك هذه الليلة لأرى هل نومك طبيعي... لكنني أرى أن عينيك مفتوحتان وذهنك أيضاً مفتوح. نحن لسنا في فاس. وسيدي عبد السلام مات مثل أبي منذ زمن بعيد. إذن فهما يلتقيان هناك، فوق، عند اللّه، ربما في الجنة... أنا أتمنّاها لهما... عجباً! كم الساعة الآن؟ ينبغي أن آخذ دوائي... ماذا؟ تقول إن وقت ذلك لم يحن بعد؟ ولماذا لا آخذه الآن؟ يجب عليك يا ولدي أن تعرف ما الذي ينفعني وما الذي يضرّني... كفى... لقد غلبني النعاس... تصبح على خير...

للمرة الثانية تقول لي أمي أنا لم أرك منذ دفنوك تحت التراب... لقد اشتقت إليك كثيراً... إنها الآن ترتع في الجنة... هي حقّاً ليست هنا بما أنها تقول إنها تلتقي بجميع موتى العائلة وتقضي في صحبتهم لحظات تدردش معهم وتريد إقناعنا بأنّهم أحياء بين الأحياء. لكن، لماذا حشرتني أنا ضمن الأموات؟ تريد ألاّ تعيش بدوني. تحملني معها في أحلام يقظتها وفي هلوساتها التي تسلّينا أحياناً وتضحكنا. يتصل بعضنا ببعض في التلفون لنحكي آخر نوادرها، فنضحك قائلين: لنحمد اللّه على أنها لا تتعذب في مرضها.

حين أعترض بلطف قائلاً لها: لكنني حيٌّ! تضحك وتضيف: على كل حال، لن أعيش بعدك إذا خطفك الموت

مني... سيميتني اللَّه في حياتك... هذا شيء أحرص عليه... وإذا كنتُ قد حدثتك عن الدفن، فلأنني لم أفرّق بينك وبين أخي الأصغر، أعزّ إخوتي... هل تعرف يا ولدي؟ كل شيء يختلط ويتجلط في ذهني... كل شيء، الناس والأوقات والصور والمشاعر والخضر والفواكه والأدوية والسكّر والليل والنهار والنجوم والأحلام والنوم والنسيان... هذه حالي يا ولدي... قل لي، هل أنت على يقين من أنك ولدي؟ تَبّاً للنسيان! أنسى الأشياء الأساسية... لكن، لا يهم... أرجو ألاّ أكون عبئاً عليكم... أرجو أن أبقى خفيفة ظريفة حتى النهاية... سأقول لك شيئاً. حين فقدتُ زوجي الأول وعمري سبع عشرة سنة، قال لي أحدهم إن اللَّه أعفاكِ من ثقالة الحياة... أنتِ خفيفة الآن... ترمّلتِ وأنتِ بعدُ طفلة... لكنّ الحياة لن تتوقف... أنتِ البراءة سَخِرَ منها القدرُ... أحرصي على أن تظلي خفيفة كالفراشة طوال حياتك، هذا مهم... خلّصتني هذه الكلمات من الحزن... خيّل إليّ أنّ لي جناحين أحلق بهما... لهذا السبب، لم تكن فترة عِدَّتِي ثقيلة ولا عسيرة عليّ، حيث جاء مَنْ تزوجني مباشرة... أمي كذلك كانت رشيقة أنيقة بسبب خفّتها... كالفراشة كانت دوماً متوثبة مجنّحة ظريفة... كم أحبّ أن أشبهها يوم وفاتي... رحلتْ وهي نائمة... أنا أيضاً سأموت وأنا أغطّ في النوم...

هذا الصباح، تبخّرت أطياف الماضي. انتابتها نوبةُ عَتَهٍ جديدة، فاختلّ عقلها وتشوّشت عليها الكائنات والأشياء. حين كلّمتُها من باريس في التلفون، أجهشت نحيباً وهي تستغيث بي.

عُـدْ إلـيّ بـسـرعـة... أرجـوك ألاّ تـتـأخّـر... عُـدْ ومـعـك إخوتك... البنتُ الصغيرة التي تبنيّتُها تخلّت عنيّ... كانت معـي فـي الـحـمّـام... وحـيـن ذهـبـتْ لـتـفـتـح بـاب الـدار، انصرفت... لقد خطفوها مني... كانت لطيفة معي... أنا جد قلقة عليها... انتظرتها ولم ترجع... أين هي يا سيدي يا ربّي؟ أرجو ألا يصيبها أذى... عُدْ إليّ إذن بسرعة... أتوسّل إليك على ركبتيّ... لا تتركني وحدي... هناك أشخاص يتربصون بي... يريدون الاعتداء عليّ... يذهبون ويأتون... أراهم الآن يقتربون منّي...

على عجل وصلتُ. وجدتها في حالة هيجان قصوى. وشاحُ رأسها متهدل على وجهها وكتفيها. تمدّ لي ذراعيها. أقبّلها. إخوتي كذلك يغمرونها بالقبلات. تبدو الآن هادئة، لكنها تصرّ على أن نبقى معها. نظّارتاها مكسّرتان. رؤيتها مختلة. حين استأذنّاها بالانصراف، بدأت تصرخ وتتوسل. أحس بغصّة في قلبي. أبنائي يسألونني لماذا هي تبكي. أخيراً انصرفنا، واعدين إيّاها بالعودة غداً... نعم، لا تنسوا... في شهر رمضان المقبل، سأكون بانتظاركم جميعاً لنتناول وجبة الإفطار. لم تميّز بين صباح الغد والشهر المقبل. ها قد استأنفت إذن هذيانها...

[32]

ماتت زيلي. أخبرني صديقي بذلك قبل قليل. كانت تتغدّى في سطيحة مطعم «ميرابو» في لوزان ذات يوم جميل من أيام يوليو، ترافقها إحدى صديقاتها. بعد الغداء، أصابتها نوبة سعال حادّة. ناولتها صديقتها كوب ماء. شربته، فاختنقت، ثم ارتخى جسدها فوق الكرسي ورأسها على الطاولة. في هذه الأثناء، كان رولان في مسبح «بولي» يتلهّى بلعبة كرة الطاولة، فسمع من يناديه باسمه عبر مكبّر الصوت. كان رجال الشرطة من يطلبونه. بعد أن أخبروه بالنبأ، عاد إلى الطاولة ليستأنف اللعبة. قال لي: مهما يكن الأمر، فهي الآن ميتة. لا بدّ إذن من أن أنهي المباراة، خاصة وأنني أفوز على خصمي. في صباح الغد، فتح الظرف الذي دوّنت فيه زيلي تعليماتها: أوصيكم بإحراق جثماني وبنشر رماده في حديقة الذكريات. أنا لا أرغب في أي احتفال ديني ولا في نشر خبر وفاتي في الصحافة.

في يوم الإحراق، حضرت بضع سيّدات مسنّات، ومن بينهنّ صديقتها الضريرة وبوّابة عمارتها ومونيك، وكذا ناعومي، صديقة رولان حينذاك.

حالة أمي تتدهور أكثر فأكثر. رغبتي في رؤيتها أصبحت تضعف يوماً بعد يوم. الحمّى تشتدّ عليها فلا تفرّق بين الوجوه. تحتاج إلى حضورنا، لذلك أزورها تقريباً كل يوم.

هذا النهار، تغيبت كلثوم، فتهاوى كل شيء حول أمي. عبثاً حاولت رحيمو طمأنتها. اختلّ النسق تماماً لمجرد نقصان قطعة منه. أتفهّم شعور كلثوم: لقد نفدت قدرتها على التحمل، فلا بأس في خروجها مرة أو مرتين في الأسبوع لتشمّ هواء غير هواء الدار. تذكّرني دائماً بأنها ليست خادمةً لأمي، بل صديقتها وواحدة من أفراد العائلة.

زياراتي لها بدأت مدتها تقصر تدريجيّاً. من قبل كنت أجلس إلى جانبها، فأمسك بيدها، وننخرط معاً في أحاديث طويلة. أما الآن، فأتردد في سؤالها عن صحتها، تفادياً لجعلها تخوض في هذيان متواصل أكون مضطرّاً إلى متابعته أو التظاهر بالإنصات إليه. لاحظتُ باستغراب أنها تكون أقلّ خبلاً وهبلاً حين تردّ عليّ في التلفون، ربما لأن الصوت، أكثر من الصورة، يجعل الذاكرة وفية بالأشياء والتواريخ والأحداث. فقررتُ أن أناوب بين زيارتها يوماً والحديث معها تلفونيّاً يوماً آخر.

أعدّت كلثوم قائمة بالإصلاحات الواجب مباشرتُها في الدار لتسير الأمور سيراً طبيعيّاً:

- تغيير سخّانة الماء لا إصلاحها.
- شراء جهاز جديد للطبخ.
- ترميم طرّادة الماء بالمرحاض.

ـ التخلص من الزربية الرباطية القديمة التي تفوح منها رائحة كريهة.

ـ تركيب بارابول لتمكين رحيمو من متابعة مسلسل «Esmeralda» في التلفزيون، وإلاّ فستضطرّ إلى مشاهدته عند الجيران، وهو ما ترفضه والدتك، على رغم أن دارهم مقابلة لدارنا.

ـ التكلم مع صاحب الصيدلية ليبيع لنا الدواء بالدَّين.

ـ وأخيراً، إذا كان هذا لا يثقل عليك، شراء هاتف جوّال لي... نعم، أنا في حاجة إليه ليتمكّن أبنائي وأحفادي الكثيرون من الاتصال بي عن بعد.

تكاد أمي لا تنتبه إلى وجودي معها في غرفتها. هي الآن مستغرقة في لفّ منديل حول سبابتها ثم إبهامها. تقوم بالحركة نفسها عشرات المرّات. تتكلّم. تكلّم نفسها مثلما ينسى الإنسان نفسه. تردد بضع كلمات تارة كما هي وتارة بالمقلوب. تغنّي بصوت خافت. تدندن. ثم فجأة تتوقف. من معي؟ آه؟ ولدي... منذ متى وصلت؟ لم أرك تدخل عليّ... بصري يا ولدي يضعف يوماً بعد يوم... أرى الظلام باستمرار... أنا في حاجة إلى الضوء... الضوء معهم... قل لي، حين وصلتَ، ألم تلتقِ بوالدي، جدّك؟ كان هنا... أظنّ أنه تغدّى برفقة مولاي إسماعيل... لا تقل لي إنك نسيته... ذاك الرجل الذي له ثماني بنات... لا شغل له إلاّ البحث عن أزواج لهنّ... المسكين! ثماني بنات! بعضهنّ تزوّجن في ما يشبه الصفقات... مهنته بيع الجواهر... إنه غنيّ... إحدى بناته

تزوجت من إسكافي! هل تتصور؟ يقضي نهاراته في إصلاح الأحذية البالية... فما أتعسه! لا يكسب شيئاً... فاقترح عليه والد زوجته أن يفتح له حانوتاً يبيع فيه أحذية نسائية... جُنَّ فرحاً... لكنه، لكثرة تعامله مع النساء، تزوّج بإحداهنّ وفرضها على زوجته فرضاً... فذهب مولاي إسماعيل عند والدي ليشكو له ذلك... هل تعرف؟ جدّك رجل جد محترم... يفد عليه الناس من أرجاء البلاد كلها ليستفتوه... لقد سمعتُ كل ما دار بينهما... أما غيثة المسكينة، أظن أن اسمها غيثة، فقد لاذت بالوليّ مولاي إدريس طالبة حماه... قالت إنها لن تبرح ضريحه إلاّ حين تُطَلَّقُ الزوجة الثانية... لكننا نعيش في فاس، والإسلام يعطي الرجل الحقّ في الزواج بأكثر من واحدة... يبدو أن القرآن يوصي بالعدل بين الزوجات... أنا لا أفهم كيف يمكن للرجل أن يعدل بينهنّ... هل تتصور هذا؟ أتساءل ما الذي كنت سأفعله لو كان عليّ أن أقتسم والدك مع امرأة أخرى! على كل حال، ما كنتُ سألتجئ إلى ضريح مولاي إدريس لأعتصم به... أنا امرأة طيبة... لا أظن أن الغيرة كانت ستصل بي إلى حد أن أفقأ عيني ضرّتي... لن أستطيع فعل هذا... لكن، قل لي، من أنت؟ وأين هم أزواجي الثلاثة؟

هي الآن متكوّرة على فراشها في صمت. تحدّق في الفراغ. الزمن! ماذا يفعل الزمن؟ أظن أنه معطّل. يحوم حولها كأنها قشّة لا يبالي بها أحد. يقفز من فوق هذا الجسد المهزول كطيف. لقد نسيها الزمن. هي هنا، لكن هناك، خارج الزمن

الحاضر، موتّدةً في سنوات الأربعينات، وفيةً بأشباحها وخيالاتها. أراها تخلع وشاح شعرها. كلثوم توبخها، تنتزع الوشاح من يديها، وتعيده إلى رأسها بعنف، وهي صامتة خانعة.

طلبت أمي مرآة، فترددت كلثوم قبل أن تحضرها لها تحت إلحاحها. مرآة جيب صغيرة مشروخة من الوسط. نظرتْ طويلاً إلى وجهها، ثم قهقهتْ: لكن، من هما هاتان المرأتان المتشابهتان، المنحنيتان عليّ تنظران إليّ هذه النظرات الغريبة؟ إنهما مجنونتان... مجنونتان وطاعنتان في السّنّ... إحداهما تشبه لَلاّ بورية، والدة أمي التي ماتت وعمرها مئة عام... لكن، ماذا تفعل هنا؟ إذا كانت ميتة، فلا يمكن لها أن تكون هنا... ومع ذلك، فأنا أراها أمامي... إنها هي بالتأكيد... أفراد العائلة كانوا يعاملونها كما لو كانت سلطانة، لأنها لم تلد بعد أمي سوى الصبيان... أربعة صبيان، كلهم جمال وذكاء... والأخرى لا أعرف من تكون... لعلها أمي... غير أنّ أمي ما تزال حية! لقد تغدّت معنا قبل قليل... لكن، لمن هو هذا الشعر الأشيب، هذا الشعر الأبيض القبيح؟ كان حريّاً بها أن تلفّه بوشاح أصفر كناري... كم أحبّ هذا اللون! إنه يشرح صدري... هاكِ، خذي مرآتك المشقوقة، أنتِ التي كسّرتها... لقد كسّرتم كل شيء في هذه الدار... لو أمكن لكم تكسير عظامي لما ترددتم... لكن، هناك ولدي الذي يرعاني، وكذلك والدي الذي يزورني مرتين في اليوم... يا للعجب! من يكون هذا الذي يسكن في هذه المرآة؟ هل ترى من أرى؟ غريب، إنه يشبه أخي مولاي عليّ... هل تتصور؟

العائلة كلها كانت تقول لي إنه ميت، ولكنه ما زال حيّاً. . . كل ما في الأمر أنه غيّر محلّ سكناه، فجاء ليختبئ عندنا. . . زوجته تكدّر عيشه بكثرة المشاكل. . . تعال، انظر إلى هذه المرآة. . . إنها تتسع لإيواء أخي الأصغر! هل تسمع؟ إنه يكلمني، يقول إنه ينتظر قدوم والدي ليخرج من مخبئه. . . كثيراً ما قيل لي إن المرآة لا تكذب. . . هذا صحيح. . . هو جميل أخي مولاي عليّ. . . آه، لو أمكن لزوجته أن تراه، هي التي أوهمت كل أفراد العائلة بأنه مات! لا، إنه لم يمت، وأنا لا أعدم أدلة على ذلك. . . اذهب وانظر إلى المرايا الأخرى. . . فهذه الدار مليئة بالمرايا، سترى أن والدك، الذي مات فعلاً وطمره التراب، يحاول أن يتسلّل إلينا من خلف المرآة الكبرى المثبتة في بهو الدار. . . المرآة التي باعها له حاخام طنجة الأكبر. . . كان يقول إنها واردة من بعيد، من مدينة عائمة في مياه أوروبا. . . آه من هذه الزجاجات التي تخبئ لنا مفاجآت. . . حسناً، أسمع الآن خطوات أبي. . . أرى أنه يمسك طفلاً من يده. . . لكن، من يكون هذا الطفل؟ لعله عبد الكريم، ذلك الذي اختطفته الحمّى منّي. . . كان جميلاً. . . عمره كان أربع سنوات حين جاء الملائكة وأخذوه، فتبعهم خفيفاً كالملاك. . . لكن، لماذا أرجعه والدي من هناك؟ إنهما معاً هابطان من الجنة رأساً. . . إلاّ إذا كانت المرايا. . . آه، ما أخبث المرايا! إنها تخدعني. . . أنا لست معتوهة. . . أرى بعينيّ والدي، ينحني عليّ، أحاول تقبيل يده، يبعدها عن فمي. . . أنت لا ترى أحداً. . . لكن، افتح عينيك يا ولدي. . . إنه جدك مولاي أحمد، الذي تعبده فاس

كلها وتقدسه. . . أبداً لم يسئ إلى أحد ولا اغتاب أحداً. . . ستؤكد لك المرآة هذا. . . لكن، من سرق مونيكتي؟ كم هي جميلة مونيكتي التي صنعتُها من الخرق التي تركها خلفه الخياط اليهودي! رسمتها في ذهني وصنعتها من قصاصات الأثواب التي أعطاني إيّاها موشي. . . إنه الصيف، والجو خانق في فاس. . . موشي لا يشعر بالحرارة تحت جلبابه الأسود. . . يشتغل من غير أن يرفع عينيه. . . لقد هيأت له أمي ما يأكله: بيض مسلوق وطماطم. . . يرفض أن يأكل على كره منه. . . يتحسر على ذلك لأن روائح المطبخ تدغدغ خياشيمه. . . يقول لأمي إنه يودّ أن يأكل، لكنّ ديانته تحرّم عليه طعام المسلمين. . . بالأمس حمل لي حلوى مسطحة الشكل من الطحين الأبيض غير المملّح. . . بدافع الفضول أكلتها، فوجدتها بدون طعم. . . موشي صانع ماهر للأفرشة والحشايا. . . العائلة كلها لا تتعامل مع أحد آخر غيره. . . نعم، مونيكتي؟ دميتي؟ غريب. . . قبل لحظة كنت ألهو معها بلعبة العروسة. . . أختي سرقتها مني، فهي تحسدني وتعتقد أنها أذكى مني. . . ما علينا. . . لن أستاء منها. . . سأستشير المرآة، فهي لا تكذب. . . حين أرى نفسي فيها، تلوح أمام عيني دنيا أخرى. . . أناس غرباء يحومون حولي، فلا أعرف أين أنا. . . إنها مرة أخرى تلك الأدوية الخبيثة التي تلعب برأسي! الأدوية تصيّرني حمقاء. . . هذا ما قالته كلثوم للطبيب قبل أيام. . . كيف أقول لها إن عقلي غير مختلّ وإنني فقط أقوم بين حين وآخر بسفرات، فيحدث لي أن أتوقف في مدينة طفولتي، هناك حيث ألتقي بوالدي وأشيائي

وعطوري. . . عجباً، أنا أكره ذلك العطر الذي تفوح رائحته من جسد تلك الحمارة. . . كلثوم. . . إنها لا تسمعني. . . لقد خرجت. . . يمكن لي إذن أن أصفها بالحمارة. . . إنها تخفيني. . . أين أنا يا سيدي يا ربي؟ رأسي يدور. . . أرغب في أن أنام حالاً. . . لا تنصرف. . . ابق إلى جانبي. . . أعطني يدك. . .

لا شيء آخر لأمي إذن سوى الذكريات التي تستحوذ عليها. لا شيء يحدث حيث أراها ما عدا أنها ترحل بهدوء وخفة. لا تتكلم عن جنازتها، لأنها تعتقد أنها ماتت ودفنت. هي الآن هناك، في دار الخلد. تغمّني حالها. أنظر إليها في صمت.

[33]

«لسانها طاح». أصبح يصعب على أمي أن تتلفظ بوضوح. لا أفهم ما تقول. ألتقط كلمة والباقي أقدّره بالحدس. وجهها ذو صفرة وشحوب غريبين. عيناها فاغرتان تحدّقان في السقف. الطبيب نزع طاقم أسنانها. فمها الآن فتحة غائرة في وجهها تبتلع شفتها السفلى. ذراعاها عظمان رقيقان. أنظر إليها نائمة على ظهرها بدون حراك. حين ألمسها، تصيح مفزوعة. النوم أو الغيبوبة. بالتناوب. تشرد وتشخر. يوصينا الطبيب بمراقبة نسبة السّكّر في دمها ودرجة حرارتها وسرعة انتضاحها وبتنظيف عينيها الكابيتين.

أجلس إلى جانبها، يدها بين يديّ. من حين لآخر، تطالب بحضور أبنائها. نحن جميعاً نحيط بها. وحدها ثريّا غائبة لأنها في مكة. طبيبها، الذي تتعرف عليه دائماً من غير أن تخطئ، يزورها كل صباح ومساء.

أنا الآن من يحدّثها ومن يحكي لها ذكريات من طفولته. هزل جسدك أَيَمَّا. لعلك تذكرين أنكِ، حين كانت صحتك جيدة، كُنْتِ جميلة ومتوثبة، فكنت تجرين خلفي لمعاقبتي حين

أرتكب حماقة ما. تذكرين كذلك دارنا في فاس، آخر دار بناها والدي هناك. كانت كبيرة، لكن مفتقرة إلى وسائل الراحة ومعالم الرفاهية. في فصل الشتاء كنّا نتجمّد من فرط البرد، وننام تحت أغطية ثقيلة. أرض الدار كانت مكسوّة بالإسمنت فقط، لأن والدي لم يكن يملك المال الضروري لتزليجها أو ترخيمها، خلافاً لدار خالتي التي كانت أرضها مزينة برخام مستورد من إيطاليا. ومع ذلك، كنّا نحمد اللّه. اكتشفت وأنا صغير أن في الدنيا فقراء، فقراء كثيرين، وكذلك أغنياء، مثل زوج خالتي الذي اغتنى بفضل قوة عزيمته... كنت أحبه كثيراً. كان رجلاً رزيناً لطيفاً، ينفحني دائماً بورقة مالية وهو مبتسم، فكنت أحتاط من إخبار والدي بذلك خوفاً من غضبه، وأعطيكِ يا أمي الورقة، فأراكِ تفرحين بها. ذات يوم طلبتِ مني أن أرافقك إلى القيسارية بفاس، حيث يوجد سوق الذهب. أخرجتِ من جيبك منديلاً به عقدة تلفّ مبلغاً من المال، فقلتِ لي هذا مالك احتفظتُ به وديعة، والآن، ستشتري لي به هدية. لم أصدّق. أنا، ابنك الصغير، أشتري لكِ هدية! كان يحزنني أنكِ لم تحصلي أبداً على أية هدية، ولو كانت باقة ورد أو علبة شوكولا. كنتِ مسرورة مزهوّة بابنك يهديك أول هدية. حسبتُ المال وسألتُ بائع الحلي: ماذا تعطيني مقابل هذا المال؟ حسب الأوراق وهو ينظر إليكِ: سأعطيك دملجاً يا سيدتي! اختاري ما تشائين... لا... لا تختاري هذا الدملج الغليظ... خذي هذا الممشوق الرقيق الذي يناسب موضة اليوم. فترددتِ أَيْمًا ثم قررت أخيراً أخذه. سلّمتِه إليَّ، وانتظرتِ أن أقدمه لك هدية.

كنتُ متأثراً، وأنتِ كذلك. طوال حياتي لم أنس هذا، وأنتِ كذلك. وبعد ذلك بأعوام، أهديتكِ مضمّة من ذهب. كانت الأولى التي تحصلين عليها في حياتك. قالت عنها خالتي إنها أقل جمالاً من مضمّتها التي أهداها إياها زوجها، فأجبتِها بأنك لم تكوني ترغبين في هذه الحلية الثقيلة الغالية، لكنكِ اضطررتِ إلى قبولها إسعاداً لي. أذكر أنك لم تتزيّني بها إلاّ في مرّات قليلة، إلى أن جاء يوم قررتِ فيه أن تهديها إلى زوجتي. هنا تبسّمت أمي ثم أَنَّتْ قليلاً. يؤلمها أن تبتسم. ضغطتُ على يدها. بذلتْ جهداً لتضغط على يدي. بعد ساعة قضيتها إلى جانبها، تعوّدتُ شحوب لونها وشدة تعبها.

حين وصلتُ آخر مرة ودخلتُ عليها، كان أول إحساس قابلني قاسياً: انقبض قلبي، فبكيتُ وأنا أخفي وجهي بين يدي.

ذهبتُ مع أخي الأكبر إلى المقبرة لنتدبّر إجراءات الدفن. ضحكٌ عصبيٌّ كان ينتابني. كنت أحكي له بعض النكت لئلاّ أفكِّر في ما جئنا إلى هنا من أجله، وهو اختيار المكان الذي سيكون فيه قبر والدتنا. عرض علينا العروسي، المكلف بالمقبرة، عدة أماكن وهو يعرب عن أسفه وحزنه:

ـ اللَّهمَّ ارحم وفرّج. . . أظن أن هذه الجهة مناسبة، فهي قبالة المدينة وخاصة بإزاء الجبل كثير الخضرة، فالمنظر من هنا جميل إذن. لا شك في أن الأمر يتعلق بامرئ ذي شأن يحب السكينة وزرقة السماء. إلاّ إذا كنتما تفضلان الجهة الأخرى. لكنني لا أنصحكما بها، لأن الوصول إلى القبر يتطلب المشي فوق عدة قبور، وهو ما يحرَّم على كل مسلم صالح، خاصة وأن

القبور مطلية بالجير الأبيض. أنا لا أرى أحسن من هذا المكان. هَيَّا، قِفَا هنا، فماذا تريان؟ الأكيد أنكما تتملّيان بمنظر بديع. لهذا السبب، فهذه الجهة يكثر عليها الطلب من لدن العائلات الميسورة، وأظن أن مسألة الثمن غير مطروحة بالنسبة إليكما....

زرنا المقبرة طولاً وعرضاً. اغتمّ قلبي حدّ الاختناق. مرّ موكب جنائزي ضاعف غمّي. قال العروسي:

ـ إنها الجنازة السادسة ونحن ما زلنا في منتصف النهار. بالأمس تمّ دفن أحد عشر جثماناً. العدد يتفاوت بين يوم وآخر. يحدث أحياناً أن يمر يوم كامل بدون جنازة واحدة. لكنني أتحدث عن هذه المقبرة التي تحت نفوذي، أما المقابر الأخرى، فلا تهمني...

نمرّ جيئةً وذهاباً بمحاذاة مكان دفن والدي. أخي يتوقف على قبره ليترحّم عليه. لفت انتباهي أن القبر لا يبعد كثيراً عن طريق المرور. فطلبتُ من العروسي أن يتمّ حفر قبر أمي بجوار قبر أبي. فألقى نظرة سريعة على المكان قبل أن يقول:

ـ خمسة وثلاثون سنتمتراً عرضاً على متر وستين طولاً. م... م... م... لِمَ لا؟ ممكن... لا أرى مانعاً في هذا...

أدهشني جوابه لأنني اعتبرتُ قياس العرض غير كاف لاحتواء جثمان أمي. فقاطعني وهو يخبرني كما لو كنت كافراً:

ـ من عادتنا، نحن المسلمين، أن يُدفن الميت على جنبه

الأيمن باتجاه مكّة، خلافاً للنصارى الذين يتم دفنهم ممدّدين على ظهورهم.

هكذا إذن سيتمّ دفني، أنا، ذات يوم! تخيلتُ كذلك أمي جسدها مكوّم على جنبه الأيمن ورأسها موجّه نحو مكة. فكرتُ أيضاً في والدي الذي كان مؤمناً تستبدّ به غالباً لحظات شكّ وحنق، فتساءلتُ هل كان مسلماً صالحاً... كان يؤدي الصلوات الخمس بانتظام، ويرضى عنّا مبتهلاً إلى اللّه أن يحرسنا، ويصوم رمضان من غير أن يخفي استياءه الذي تعوّد أن يعكسه على أمي أو على الولد المستخدم في متجره. لكن حذار أن نتكلم بحضوره عن الحجّ إلى مكة! لم يكن يحب السعوديين مع أنه لم يكن يعرفهم مباشرة، لأن أصدقاءه من الحجّاج كانوا يحكون له محنهم وخيباتهم في مكة ويتشكّون من سوء الظروف في موسم الحج. على كل حال، فقد كان يعوزه المال الكافي لأداء هذه الفريضة. كان يردّد هذا، مدعّماً عدم تفكيره في الحجّ بآية من القرآن.

في بداية فصل الشتاء هذا، تشرق شمس ربيعية ناعمة على هذه المقبرة، ناثرة ضياء محيّراً. المقابر غير متراصفة حسب نظام هندسي. يزاحم بعضها بعضاً كما لو أن الأموات على وشك أن ينهضوا من تحت التراب ليتملّوا بالسماء أو ليسألوها إنزال المطر في هذه السنة العجفاء. هذا علماً بأن الناس اجتمعوا في المساجد لصلاة الاستسقاء. الجفاف في هذا البلد وسواس مخيف، وما طلب الغيث إلاّ دليل على العجز. العروسي يسألنا هل وقع اختيارنا على مكان محدد. تبادلنا النظرات، أخي وأنا.

فشرع يعدّد مزايا المنظر الذي نراه من حيث كنّا واقفين، وكأنه يستعجلنا اتخاذ القرار، ناسياً أنه فعل ذلك قبل قليل:

ـ انظروا إلى المنظر كم هو رائع من هنا! يجب التفكير في الزوار الذين سيفدون للترحم على هذا الشخص، إذ من الأحسن أن يستقبلهم منظر جميل. لكن. إذا كنتم تفضلون تلك الجهة هناك، التي تشرف على مقبرة أخرى، فـ. . . شخصيّاً أعتقد أن من حسن الوفادة أن تفكّروا في توفير ظروف الراحة للزوار. . .

يقول له أخي إننا نريد أن يكون القبر بجانب قبر والدي. أما أنا، فغامرتُ بهذه الدعابة:

ـ لست متأكداً من أنّ تلاقيهما من جديد فوق الفراش نفسه سيسعدهما. . .

ضحكنا، أخي وأنا. أما العروسي، متظاهراً بعدم سماع الدعابة، فبدأ يشرح لنا كيف سيتصرف ليتصوّر قبراً واحداً لهما معاً بشاهدين اثنين من رخام. ثم التفت إلى الوراء ليرينا قبراً واسعاً وهو يقول:

ـ كْصِيدَا اللَّه يحفظ!

كان يقصد أن النزيلين، رجلاً وزوجته، ماتا فوراً في حادثة سير وتمّ دفنهما في القبر نفسه.

لدى عودتنا إلى الدار، وجدتُ أمي في أسوأ حالة. تتوجع كلّما مسّت يد جسدها. أحسستُ بها في منتهى التعب والضنك لدرجة أنني رحت أدعو لها بِفَرَجٍ رحيم يريحها. أعرف أن إخوتي يفعلون الشيء نفسه. نتبادل النظرات. فيقرأ كل واحد منا

في وجه الآخر الدعاء نفسه. أخي الأكبر يخبرني بأن القتل الرحيم محرّم في الإسلام وبأنّ في ديننا دعاءً خاصّاً لاستعجال الفرج والخلاص مستدلاً بالآية الشائعة: «إنّا للّه وإنّا إليه راجعون».

تستغرق أمي في نومات عميقة تتخلّلها بين حين وآخر نداءاتها لأمها وأخيها الأصغر. أطمئنها قائلاً إنهما في الطريق إليهما. لم تسأل عن ابنتها في أية لحظة. لم أعد على يقين من أنها تتعرّف عليّ حين أقترب منها. أمسك بيدها. فكل أمّ تتعرّف على ابنها حين تلمس بشرته. ذراعها ويدها جد رقيقتين، فخشيت أن أؤلمها. تشخص ببصرها نحو السقف ثم تغيب في غياهب لاوعيها. ها هي من جديد في فاس تلهو مع أخيها الأصغر بلعبة الغُمّيضة. تناديه، تطلق صيحة ثم تغيب في غشية طويلة. أراقب تنفّسها. فمها فاغر باستمرار. الذكريات تخدعها، فتطفو وتختفي، توهمها بأنها تحيا وتضحك، ثم تكفهرّ وتغرق في بئر عميقة، تخاف أن تنجرّ معها، أن تزلّ بها قدمها فتبقى تحت الماء. تقاوم أشباحاً. أراها تحرك يدها كأنها تريد أن تنحّي طيفاً ما. أصبحت عاجزة أو تكاد عن التلفظ، فيكون علينا أن نخمّن ما تريد قوله. كلثوم أَلِفت جيداً هذه الكلمات غير المنطوقة. أتساءل هل تتعرف عليها أم تتخيلها فقط فتتصرف بالعادة. تعرف أنه وقت تقديم الماء لها أو تغيير خِرقها الورقية. تلحّ أمي في طلب شيء ما. ننحني عليها محاولين فهم ما تريد. إنها ترغب في التوجه إلى الحمّام. تقول لها كلثوم: يمكن لك أن تبولي تحتك... لا ترددي، فقد وضعتُ قبل قليل خرقة

ورقية جديدة بين فخذيك. لكن أمي تمانع. تقاوم رغبتها في التبول أو التغوط. فما العمل، خاصة وأن حملها أصبح متعذّراً فهي تصرخ ألماً حين يمسّها أحد.

الدار لم تعد دار أمي التي ألفتها. لحسن الحظ أنها عاجزة عن رؤية الحالة التي آلت إليها. أصبحت شبيهة بدار خربة في مدينة صفائح. ففي المطبخ تتراكم الأواني إلى جانب الغسيل. وفي الصالون تنخر الرطوبة الأفرشة والمخدّات. وحدها قاعة الحمّام نظيفة، لا ينقصها سوى ورق المراحيض. المرض والموت هما أيضاً هذه التفاصيل التي تبدو في ظاهرها تافهة وهذا الإهمال الذي يغمّ القلب وهذه الكآبة التي تخيم على الأشياء وعلى الجدران. تساءلت في نفسي: ما الذي يتعذّر تحمّله، المرض أو الموت؟ قالت لي يوماً إحدى صديقاتي التي كانت تصارع مرضاً عضالاً أفنى جسدها:

- الموت، الموت الحقيقي، أقصد ذلك الفناء أو التلاشي الذي لا يطاق، هو المرض، هو الأيام والليالي التي لا نهاية فيها للتأكّل والتفتّت والعذاب والعجز. هوذا الموت، وليس ذلك الجزء من الثانية حين يتوقف القلب عن الخفقان.

أمي تموت إذن! لو كانت قادرة على الكلام لقالت أنا الآن ألتقط الساعات والأيام... أنحني فأجمع فُتاتها من هنا وهناك، وهو ما لا يساوي شيئاً... غير أن بضع هنيهات من زمن هارب شيء لا يستهان به... لكن، إذا كنتم جميعاً حولي، فسيمكن لي أن أكفّ عن الانحناء على حُتات الزمن... لقد سئمتُ مراكمة الساعات الخاوية، والأيام التي تختلط بالليالي، والأحلام

التي تلعب برأسي، والذكريات التي تملّ وتهتاج كأسماك خارجة لتوّها من الماء... وأنا أغرق وأفنى... ثم ترميني موجة فوق الرمل، فلا أحسّ شيئاً... لكنني مُبَلَّلَةٌ، فأخجل من عجزي، أفقد طاقتي... ما الفائدة في أن أعترف لكم بأنني استنفدت كافة قدراتي على التحمل... كل شيء بين يدي اللّه، هو الذي يوجّه خطوي في هذا البحر المنبسط حيث أغرق ثم أطفو... كل شيء رهين بإرادته... ها أنا قد نسيتُ أن أصلّي... لم أعد أعرف أين أنا... سأرحل، عيناي نصف مغمضتين وفمي فاغر، آه... كم أكره هذه الفتحة في وجهي! لماذا لا أقدر على زمّ شفتيّ؟ أصبحتُ أشخر في نومي أنا التي كرهت دائماً الشخير... زوجي الأخير لم يكن يضايقه أن يوقظني من النوم لفرط ما أشخر... لم أعد أتحكّم في أي شيء... أرغب في الذهاب إلى الحمّام... أرفض أن أبول تحتي... نعم، لن أفعل هذا... مثانتي تؤلمني، لكنني أقاوم... أبداً لن أفعل هذا... أبداً... سأنادي كلثوم... هي لا تسمعني أو تتظاهر بعدم السماع... أمد يدي، فلا أجد أحداً بجواري... أين هم أبنائي؟ أعرف أنهم هنا... إنها الساعة التي يجب أن أحسّ فيها بهم... إنهم يتكلمون في الغرفة المجاورة... أنا أسمعهم... هذا يطمئنني... سأطلب منهم أن يدعوا لي بالفرج، أن يسألوا اللّه عدم نسياني...

[34]

يقول أحد أبناء عمي، وهو رجل فاضل: لمّا يطيح اللسان، يكون الأجل قريباً. ثم يضيف: لكنّ كل شيء بيد اللَّه! فمن منّا يعلم أنه سيكون السابق؟ اسمع، لا تضرب أي حساب لكفن والدتك، سأوثرها به على نفسي. كنت قد أعددته لنفسي، لكنني ما زلت أقوى على مقاومة الزمن. هذا علماً بأن كل شيء بين يدي اللَّه. لا تتردد في الاتصال بي في أي ساعة من النهار أو الليل. أعرف أن هناك إجراءات عديدة لا بدَّ من تدبيرها، وأنت لا تزال صغيراً، أو لنقل لا تجربة لك في هذه الأمور. لكنني لا أستبق الأحداث، فالحياة والموت والمرض والعمر والزمن... كل هذا يذهب ويجيء حسب أهواء الرياح والعواصف، ونحن لا يسعنا سوى الإذعان. فأنا مثلاً أتدبّر أمري مع غدة البروستات، فأرغم نفسي على الخروج كل يوم لأتمشّى ساعة على الأقل، وذلك رغم أن ما أراه في الطريق لا يسرّ العين. أمك أحبها كثيراً. إنها النبل بعينه، ونخوة القلب، إنها السخاء والصبر. أسعدني كثيراً أنها تعرّفت عليّ قبل قليل، على رغم أن لسانها ثقل وكلامها لا يُفهم. تصوّرْ... لو كانت

عندنا في المغرب ملاجئ للعجزة لكنّا، هي وأنا، نزيلين بها الآن! لكن، يا للفضيحة! ويا للعار! أستأذنك الآن في الانصراف... سأواصل مشيي. لكن، إيّاك أن تنسى... فالكفن على حسابي!

يوماً بعد يوم، أصبحت أمي لا تقوى على الصحو لفرط ما هي مستغرقة في سبات عميق. كلثوم تتساءل منتحبة: كيف نعيدها إلى حالة اليقظة؟ لا بدَّ من مناولتها أدويتها. أما أنا، فأرقبها في لوعة وصمت. إنها ليست هنا، ربما في مدينة أخرى، في حياة أخرى. تتسلق جبالاً ثم تنزل خفيفة. كم كانت تحب أن تقول: أنا طالعة هابطة، تعبيراً عن حيرتها وعدم رضاها. أين هي الآن؟ لم تعد كما كانت تتحدث عن فاس ولا عن دار طفولتها القديمة. كانت، وهي صغيرة، قليلاً ما تلعب بالدّمى، مفضلة اللهو بالخضر التي كانت أمها تقشرها لتطبخها، فتعطي لكل واحدة اسماً يخصها ووظيفة تؤديها، ثم ترميها في الطنجرة، وهو ما كان يغيظ والدتها. هكذا تعلّمتُ فنّ الطبخ!

قال لي الطبيب إنها «آثار الاضطجاع». فالتمدد مدّةً طويلةً على الظهر يعرقل كل شيء في جسدها. تصيح بقوة. خيّل إليّ في البداية أنها تستغيث. لكن تبيّن لي من بعد أن بالها مشغول بطعام العشاء... تريد أن تعرف هل الطنجرة فوق نار الموقد... يا للعجب! تحرص على أن تثبت وجودها بكفاءة حتى النهاية، حتى رمقها الأخير! كلثوم هي التي تفكّ ما تعجز شفتاها عن قوله. تخمّن أكثر مما تسمع ما تحاول أمي التلفظ به.

أُطْعِمُ أمي. أُطعم بنيّتي. بضع ملعقات حليب وجبن. طفلة

صغيرة تأكل مغمضة العينين. يدي ترتعش تأثراً. الدموع تصعد إلى عينيّ، فأعدل عن مواصلة إطعامها. كلثوم تنوب عنّي فتتولّى إطعامها كما تعوّدت ذلك. أخرج من الغرفة وأنا أكفكف دموعي. أفكر في أبنائي أكثر مما أفكّر فيها. لست أدري كيف حصل هذا التحويل.

أن أمسك يدها، أن أتحسس عظامها تحت الجلد الذاوي المتجعد، أن أقص عليها حكاية وأنتظر إشارة من جفنيها أو شفتيها اللتين تكادان لا تتحركان. الذكريات تحتاج إلى شمس وضياء وموسيقى. أراني رفقتها على سطح دارنا بحيّ مارشان قبالة البحر. أمي تغيظها ريح الشرق العاصفة، فتقول إنها تحنّ إلى أيام فاس في المدينة القديمة، حيث لم تكن الريح تغامر بالهبوب. أرقبها. أنظر إليها تسوّي وشاح شعرها فوق رأسها كما تعوّدتُ أن أراها. كانت تعشق التملّي بالبحر وأمواجه البيضاء المنذرة بقرب هبوب تلك الريح التي يقول الناس عنها إنها تهيّج الأمزجة سريعة الغضب. في ضباب الماضي الملتبس هذا، تتقاطع أصوات وتختلط نظرات بحثاً عن سكينة رائقة. كانت أمي توحي دائماً بالسكينة والصفاء. لم تخنها أبداً تلك القدرة العجيبة على إثبات ذاتها إزاء العالم بوداعة وأناقة، وهي الخاصية التي لا تزال تلازمها إلى اليوم. لعلّ ما يضايقها أكثر من غيره مصدره معاناتها الموجعة التي أتلفت هذه الأناقة الروحانية التي جُبِلت عليها منذ الأزل.

تضحك ثم تغمض عينيها. لا ترغب في أن ترى نفسها وقد تقلصت لتصبح طفلة صغيرة عليلة. ها هي اللحظةَ تخترق دروب

فاس الضيقة قاصدةً ضريح مولاي إدريس حيث ستمكث طوال فترة ما بعد الظهر. تقول إن مولاي إدريس هذا جدّها، وفد من الجزيرة العربية في العام 808 لبناء فاس. تكلمه فتبوح له بقلقها، سائلةً إيّاه أن يرعى صحة ابنها المريض، وأن يحثّ ابنها الآخر على الاجتهاد لينجح في امتحاناته. أيا مولاي إدريس، أيا قدّيس القدّيسين وأقرب صحابة نبيّنا سيّدنا محمد، أنصت إلى دعائي... لا تغفل عنيّ... تصرّفْ بما يُبعد المرض عن داري... تصرّفْ بما يجعل نورك يفتح لنا طريق الخير... أيا مولاي إدريس، يا حامي المدينة، يا رجل الفضيلة، كن ضامن إيماني وأمانتي... اجعل داري مليئة بنورك... أعطني دليلاً على أنني سأظل في صحة جيدة لأعتني بأبنائي وبزوجي سيئ الحظ... أبعد عنّا العين اللاّمة، عين كل حاسد ومغيار، عين كل شرير يتحالف مع الشيطان... أنا لا أعرف أن أردّ بالشرّ على الشرّ الذي يكنّه البعض لي... أنا لا أعرف سوى الصلاة والدعاء... لا أعرف سوى الطريق التي تؤدي إليك...

أمي لا تحتاج إلى وسيط. فالعروة وثيقة بينها وبين مولاي إدريس. تحملها في صدرها كما حملتها أمها ووالدة أمها. كانت كل خميس تستأذن أبي في زيارة الضريح، فتذهب مع ابنة خالتها، أعزّ صديقاتها، ومعها بعض النقود التي تدسّها خفيةً في شقّ الصندوق الموجود بمدخل الضريح. كانت تنفح مولاي إدريس ما تملكه من مال زهيد من غير أن تخبر أحداً بذلك. وفي المساء، تعود وهي تشعّ سعادةً وانشراحاً وطمأنينةً. كانت زيارتها للضريح خلاصاً. في أثناء أدائها لصلاة العشاء، كنّا

نسمعها تذكّر مولاي إدريس بكل ما طلبته منه وباحت له به. فلم يكن أبي يعلّق على ذلك، مكتفياً بابتسامة ساخرة.

كلثوم ضاقت ذرعاً بحالها. تبكي كثيراً. الإهمال يعمّ الدار أكثر فأكثر. أتذكّر ما قالته لي أمي قبل أيّام: ضرورة تجديد طلاء الجدران وإعداد الصالون ليكون جديراً بجنازتها. ابن عمي، الذي وعدني بالكفن، اتصل بي هاتفيّاً. يقول إن كلثوم تستغل الوضع. فأمك سيدة فاضلة ذات جود وعِرض... لذلك، فهي تستحق جنازة تليق بمقامها. والحال أن كلثوم امرأة جاهلة، امرأة بدوية توهمكم بأنّ وجودها في الدار ضروري... اسمعني جيداً، في مرحلة أولى، لا بدَّ لأمّك من أن تعود إلى غرفتها وفراشها عوض أن تبقى تتعذب في الصالون، لا لسبب إلاّ لأنّ كلثوم ورحيمو تفضّلانه لأنّ فيه جهاز التلفزيون... أنا أعرف أن حالتها لا تسعف على نقلها، لكنّ الاستعانة بممرّضين أعرفهما جيداً، وهما العيّاشي والعمراني، كفيلة بنقلها إلى غرفتها من غير أن تشعر بأي ألم، ولتذهب المسلسلات المصرية والمكسيكية إلى الجحيم... إنها أمك، ومن واجبك أن تتصرّف بما في صالح صحتها... فعلى رغم أنها لا تتكلم ولم تعد قادرة على التعبير عن أغراضها، فهي واعية كل الوعي بكل ما لا يسير سيره الطبيعي في الدار... تكلّم معها ولو كانت توحي بأنها لا تسمعك... إنها بالعكس تسمعك وتحب كل ما تقوله لها... فحاسة السمع لديها لا تزال حيّة... لا تثق بالمظاهر... ما عدا ذلك، أدعوك إلى أن ترافقني غداً إلى المقبرة... أنا أعرف العروسي، المسؤول عنها، فهو يحتفظ للأعيان والوجهاء ببقع

جميلة لقبور ذويهم. . . سأتكلم معه. . . فلا يليق بسيدة وجيهة مثل أمك أن تدفن في قارعة الطريق حتى ولو كان قبرها متاخماً لقبر زوجها. . . أما الكفن، فلا تشغل بالك به كما قلت لك قبل أيام. . . لا تنس أن نلتقي صباح الغد في المقبرة.

[35]

لم تنم أمي هذه الليلة. على سطح ذاكرتها تطفو ذكرى زيارة صديقي الزيلاشي ليلتقط لها بعض الصور. كان وجهها يملأ الفضاء بصفائه. ترى نفسها تعدّل وضعية جسدها وتسوّي وشاحها فوق رأسها وتحاول أن تبتسم وهي تركز نظرتها على عدسة الكاميرا. كانت آنذاك تناهز الخمسين سنة، أي حين بدأت تظهر أعراض المرض. كانت ترقبني وأنا واقف خلف صديقي الذي قال لي: أمي أصيبت أيضاً بالمرض نفسه، لكنها للأسف فارقت الدنيا وأنا في أمريكا أتابع دراستي. أخبرتها بذلك. فردّت عليه بهذين الدعائين: «أسأل اللّه أن يميتني وأبنائي أحياء»! «أسأله أن يحفظنا من الفراق»!

أعدتُ التفكير في صديقي رولان الذي يستغرب دائماً شدّة تعلّقي بأمّي. قال لي يوماً: إنّ أحسن العلاقات هي علاقات قطيعة وخصام. أما أنت، فتلتصق بأمك مثلما يتشبث شخص ضالّ بقداسة البابا! هذا صحيح. لكن، أي عيب في هذا؟ فأنا أحب أمي لأنها أولاً أمي، ولأنني ثانياً أعترف بفضلها عليّ، ولأن هذا الحب ثالثاً يكاد أن يكون دينيّاً. أقول دائماً في نفسي:

ماذا كنت سأكون بدون رضى والديّ وبركتهما؟ لكن، لا علاقة إطلاقاً للرضى والبركة بالدين! ومع ذلك، فهذا لا يتعارض مع ضرورة أن نحترم والدينا ونساعدهما ونحبهما. أنا لا يخجلني أن أدّعيَ لنفسي هذا الرضى وهذه البركة. إنهما في منزلة الوجد والهوى لدى المتصوفة. إنهما خيط رفيع من حرير يربط بين كائنين، حبّ بسيط وطبيعي وبدون مقابل.

ذات يوم صيفيّ بفاس، رأيتُ أباً يلعن أحد أبنائه ويسخط عليه. حجب عنه رضاه وسأل اللَّه أن يعذبه. فتجمّع الناس حول الابن العاقّ وانهالوا عليه ينذرونه:

ـ من يعصِ والديه تحقّ عليه الضلالة.

ـ من يسخط عليه والده تكن جهنّم مثوى له.

ـ كل أب يُضطرّ إلى هذا الحد من التصرف هو جدير بالرثاء والشفقة. أما الابن، فيستحق المقاطعة والاحتقار.

ـ سينساه اللَّه ويتخذه حطباً لجهنّم خالداً فيها.

كانت تعشق التملّي برؤية البحر واستنشاق رائحة الطحالب واستذكار الفترة التي كانت تسكن فيها بحيّ مارشان قبالة الخليج. لذلك، قبلتْ أن تذهب بضعة أيام عند ابنها. كانت بعدُ في أتمّ عافيتها. كان يحدث لها أن تخرج وتذهب عند حسن بائع الحلي أو عند الدريسية الخياطة. كان هذا قبل عشرين عاماً. ذات مرة، سافرتْ زوجة ابنها لزيارة والديها وتركتها وحدها في الدار. في نهاية ما بعد الظهر، رغبتْ كعادتها في شرب الشاي بالحليب. ولما أرادت تحضيره، وجدت كل شيء

موصداً بالمفاتيح، الدواليب والثلاجة والأدراج وحتى باب المطبخ. وحين عاد ابنها، وجدها في باب الدار مرتدية جلبابها وهي تنتحب: أرجعني حالاً إلى داري... هنا أشعر بأنني غير مرغوب فيّ... أغلقتْ كل شيء بالمفاتيح قبل أن تنصرف. لم يحدث أبداً أن عوملتُ بهذه الطريقة... هذا شيء مخجل! يدعوك ابنك إلى داره ثم ترفضك زوجته! ويلي ويلي على البهدلة التي أنا فيها! أين نحن؟ في أي زمن نحن؟ من نحن حتى نصل إلى هذا الحد من الدناءة؟ كل هذا لأنني أردتُ تحضير كأس شاي! يا سيدي يا ربّي... من أي شيء خافت هذه المرأة قليلة الأدب؟ خافت من أن أسرق متاعها؟ إنها قلّة الحياء يا ولدي! لكنه سلوك من لم يعش في الخير! هيّا، أرجعني إلى داري حالاً... أما الشاي، فلن أعود إلى شربه أبداً ما دمت حية، لأنني إذا شربته فسأتذكر أشياء لا تسرّ!

لحسن الحظ أنها نسيت الآن هذه القصة.

يجثم على الدار صمت فادح يصعب معه التنفس. السماء رمادية. كلثوم تغطّ في النوم. تفكّر في المستقبل. من يدري؟ فقد تتمسك بالبقاء في الدار بعد وفاة أمي. ألم تقل لي مؤخراً إنها لن تتخلّى عن فلس واحد من أجرتها وتعويضاتها؟ أما الخادمة الأخرى، فتحلم برجل وأسرة. كل شيء في الدار يبعث على الكآبة. الأواني معظمها تكسّر. فأينك يا زمان كانت فيه أمّي ترعى دارها كما لو كانت قصراً؟ اليوم أصبحت خربة!

يونيو 1956. طنجة مدينة دولية. مدينة تنهبها أوروبا. مدينة مشرعة على رياح العالم، جد منفتحة لدرجة أنها أصبحت وكراً

للجواسيس والقراصنة واللصوص، وملتقى لكل الصفقات المشبوهة، وخاصة مدينة خارج الزمن، تولي ظهرها للمغرب وتقاليده وعاداته. كانت أمي، وهي في هذه المدينة، تشعر بأنها في إجازة قصيرة سرعان ما ستنتهي لتعود إلى دارها بفاس. كان الإسبان أكثر عدداً ونشاطاً من باقي الأجانب. لم يكن الناس يعتبرونهم محتلّين لمدينتهم لفرط ما كانوا مثلهم فقراء. أما الفرنسيون والإنجليز، فكانوا أغنياء متعجرفين وأقوياء ومحتقرين، فلم يكونوا يحبّون الإسبان، معتبرين إيّاهم متخلفين كالمغاربة. لم يكن سهلاً أن يتعلّم أبناء المدينة في مؤسساتهم التعليمية. قبالة دار عمي، كانت توجد مدرسة ابتدائية فرنسية. مدرسة خاصّة بأبناء الأعيان! سألت عمي: ما معنى الأعيان؟ تَفَكَّرَ قليلاً وقال لي الأعيان ليسوا لا أنت ولا أبناء عمك، فنحن لسنا وجهاء ليحق لنا أن نتعلم في مدارسهم، لسنا أغنياء ولا محبّين للفرنسيّين. كان صالون الشاي «Porte» مقهى خاصّاً بالفرنسيين. وحدهنّ بعض السيدات الإنجليزيات العجائز كان يسمح لهنّ بارتياد المكان. الجالية الإنجليزية كانت لها مقبرة خاصّة بالكلاب، فكان هذا يسلّينا بقدر ما يجرح إحساسنا. أن يبلغ حبّ الكلاب هذا الحد شيء كان يتجاوز إدراكنا. والإيطاليون كان لهم قصر ومدرسة ومطعم اسمه «Casa Italia». أما الجالية الإسبانية، فكان لها مستشفى مفتوح لجميع الناس على اختلاف جنسياتهم وأحوالهم، تشتغل فيه راهبات طيبات كنّ يقمن باستقبال المرضى وذويهم. كما كانت لها مدرسة وجريدة اسمها España تدافع عن سياسة فرانكو. كانت

«البسيطا» و«الريال» الإسبانيان أكثر العملات الأجنبية تداولاً في طنجة. كانت أمي مثلي لا تحسن التعامل بالبسيطا، مفضلة الريال عليها، فتذهب إلى السوق وتشتري ما يكفي لتنظيم حفل استقبال كبير. كانت سعيدة في هذه المرحلة من تاريخ طنجة. حينما نجحنا، أخي وأنا، في امتحانات التخرج من المدرسة الابتدائية، قام والدي بتأطير شهادتينا وعلّقهما في الصالون، ثم باشر توجيه الدعوات. تطلَّب تحضير الحفلة يومين كاملين! فحضر أعمامي وأخوالي وأبناؤهم وبناتهم. كان ضمن المدعوّين أيضاً جارنا اليهودي، صديق والدي، الذي أهدى كلاًّ منّا، أخي وأنا، قلم حبر فاخراً موسوماً باسم «Parker». أذكر أننا معاً لم نحضر الحفلة، لأنني تبعتُ أخي إلى الشاطئ حيث كانت تنتظره فتاة إسبانية جميلة. فبكت أمي: سهرتُ وتعبتُ من أجل أن أفرح بولديّ، فإذا بهما يذهبان إلى شاطئ البحر! يا للخجل! ماذا سأقول لضيوفي؟ كيف أشرح لهم أنهما فضّلا أكل سندويتش بسمك التونة على أكل البسطيلة التي تفرّغتُ لتحضيرها طوال نهارين وليلتين؟ في نهاية العشية، حين عدنا من البحر، وجدنا أمنا تنتظرنا برفقة مَنْ بقي من المدعوّين. كنت أشكو في كتفيّ وظهري من آثار لفحات شمس قوية. أما أخي، فكانت على وجهه آثار لكمات وجّهها له ابن عمّ الحسناء الإسبانية. أما البقية، فلن أنساها أبداً. في الليل، ومن أجل مسامحتنا، أمرتنا أمي بغسل الأواني المتكدسة في المطبخ، ودخلت إلى غرفة نومها.

تنظر إلينا. نعرف أنها لا ترى أحداً منّا. عيناها هذا الصباح

كابيتان شاغرتان تتحركان بحثاً عن مرتكزٍ ما. تنظر إلينا في صمت مطبق. أختي تقول: لستُ محظوظة... الحظ لم يحالفني أبداً. سترحل أمي من غير أن تكلّمني... لماذا هذا الجفاء؟ فأنا ابنتها في كل الأحوال... نعم، أنا من دمها حتى ولو كانت جدتي هي التي ربّتني، لدرجة أنني، وأنا صغيرة، كنت أنادي أمي بأختي... أنا ابنتها البكر، أكبركم جميعاً... لكنها تفضّلكم عليّ، أنتم الأولاد... حظّي سيئ معها! لقد مات من كان يفهمني... أنا الآن وحيدة، أعيش وحدتي بمرارة... يا للعجب! انظروا إلى شفتيها تتحركان... إنها تريد أن تتكلّم، أن تتكلّم معي، لكنها لا تستطيع النطق... هل تفهمونها أنتم؟ الصهد شديد... جسدها ساخن... سأروّح عليها بالمروحة، كما كنّا نفعل في زمان فاس، حين كان الصيف يخنقنا... في ليلة عرسي، سقط المطر مدراراً... حاولوا إقناعي بأن ذلك فأل حسن... ستموت... هذا مؤكد... هذا مؤكد... هذا مكتوب... أعرف أن كل ما يقع مكتوب علينا، على رغم أنني يصعب عليّ أن أصدّق أنّ اللّه هو الذي اختطف مني زوجي... إنها بالأحرى شاحنة هوجاء نزعته منّي... أستغفرك يا ربي... يحدث لي أن أفقد عقلي فأقول أي شيء دون إرادتي... أنا لا أشعر بالراحة إلاّ حين أكون في مكة... فريضة الحجّ أدّيتها سبع مرّات، خمس منها مع المرحوم زوجي... ذلك المكان المقدس يجلب لي السكينة، يضبط نسبة السّكّر في دمي، يوقف آلام رأسي، يخفف على قلبي... ربما كان يجدر بنا أن نذهب بوالدتنا إلى مكة... لعل هذا كان

سيفرحها، سيسعدها، خاصة وأنها لم تفرح كثيراً في حياتها... لكنّ وقت ذلك فات الآن... ربما سيرحمها اللّه بالإقامة في الجنة... ما زلت أذكر أيّام كانت تبكي لأن زوجها كان يسيء معاملتها... لم يكن عنيفاً بقدر ما كان لسانه قارصاً... عجباً! ها هي تتحرك من جديد! لعلها عطشانة... لم تعد تقوى على الكلام... ترفض أن تأكل... إنها مثل طفلة رضيعة ترفض ثدي أمها... تنظر إلينا مستجدية أن نكفّ عن إرغامها على الأكل...

[36]

وجهها كالح. جسدها فاتر. يداها جامدتان. روّعتنا حالتها، فنظرت أختي إليّ، ونظرت كلثوم إلى أختي، وأنا أرقب تنفّسها.

السماء زرقاء، الجوّ بارد. عطّلت كلثوم صوت التلفزيون. على الشاشة تتوالى الصور. حسناء، ذات وجه مبالغ في تجميله، تقرأ نشرة للأخبار. دبّابات مسرعة تثير الغبار. مراهقون يرمون جنوداً بالأحجار.

أقول في نفسي: النهار أزرق. الفصل أزرق. الصمت أزرق. والموت الذي يحوم حول الدار أزرق. لعل اللون الأزرق ينذر باللون الرمادي، لون الشتاء المحزن.

أختي تنتحب في صمت. الدموع تنساب على خديها من غير أن تمسحها. نظرتها شاردة. هي الآن في مكان آخر، تفكّر في زوجها، في طيبته، في غيابه الذي لا تطيقه. كان نموذجيّاً في سماحته وأريحيته، يمكنك الاتّكال عليه في كل شيء. مات فوراً في حادثة سير. تندم أختي على كونها لم تكن معه في السيارة وقت الفاجعة. هوذا الحب وإلاّ فلا. . . أبداً لم تخرج

من فمها هذه الكلمة. كانا يتحابّان من غير أن يعرب أحدهما عن حبه للآخر. كان يحبها وكانت تحبّه وكفى.

لأخي قدرة فطرية على الحدّ من الخلافات! أتساءل دوماً كيف يستطيع ذلك. يعتقد بأن كل شيء في العالم قابل للتفاوض. أما أمي، فلم تكن تحب أن تبتَّ في أمور الحياة بحسم وجزم، تاركةً الزمن يتكفل بذلك. في حين كان أبي لا يحرجه أن يعرب عن رأيه في الآخرين بكل حرية وتلقائية. ففي رأيه أن الأشياء ينبغي تسميتها بأسمائها.

نحن الآن متحلقون حولها. الأفكار نفسها تخامرنا جميعاً. عيوننا نصف مغلقة وتنفّسنا عسير. روائح المطبخ تتناهى إلى الغرفة. يدس أخي شريطاً مسجّلاً في جهاز الراديو. مقرئ مصري يرتّل القرآن. تتعارض الآراء حول كيفية ترتيل القرآن. يظهر أن الطريقة المغربية أقلّ جودة من الطريقة المصرية. هذا النقاش يضايقني. أحد إخوتي يتنغّم بترداد ما يرتّله المقرئ المصري. أختي يسرّها هذا الجوّ لأنه يذكّرها بمكة. أمي مستغرقة في نوم عميق. كلثوم عابسة الوجه. فكأنّ وجودنا يضايقها. أحسّني غير ذي جدوى. أخي يقول لي إنه يحسّ الإحساس نفسه. إنه الشعور بالعجز عينه! إذا منعنا عنها الدواء، فسترحل ليلاً. أن ترحل! ألاّ تلتفت وراءها! أن تطير! أن تمنح يدها إلى ملاكها الحارس وتتركه يحلّق بها في السماوات برشاقة وخفة! أن تستعيد جمال ونعمة غابر الزمان، حين كان عمرها ست عشرة سنة وهي تتلهّى بلعبة «تيكتيكا» في الساحة الداخلية للدار الكبرى، وحين رآها والدها وبّخها على ما تفعله: لم

تعودي صبية، أنت الآن امرأة! فَتُزَايِدُ أمُّها: تقفزين على رِجل واحدة مثل طفلة صغيرة وأنتِ حبلى! سأخبر زوجك بهذا. . . سيغضب عليك. . . فتفكّ أمي ضفائر شعرها الطويل الأسود لتغطي بها وجهها خجلاً، وتكفّ عن القفز لتلتحق بأمها إلى المطبخ وهي تغني، ضاحكة ومتظاهرة بالرقص.

فَقَدَ وجهها تجاعيده ببطء وأصبحت بشرتها ملساء صفراء. الزمن تركته في مهبّ الزمان، وانصرم حاملاً معه آثاره، في بضعة أيام تخلصت من السنين التي كانت تجثم على صدرها. تخطو متوانيةً نحو حتفها منذ أعوام. تقول: الموت مصير حتميّ يتجاوزنا، يسكننا، يلازمنا منذ ولادتنا. . . الموت حق لا يمكن لأحد أن يفلت منه أو أن يغيّره. . . فما معنى أن أموت إذن؟ إنه يتحرّش بنا فنتقبّله بإذعان. لذا، تقبّلتْه هي بصمت وصفاء دونما حنق أو جدال. في كل حال، ما جدوى أن تجادل وتعترض وخاصة أن تريد أن تكون أقوى مما يتعذر ردعه أو تغييره؟

أصبح وجهها وجه فتاة وديعة هادئة أفاقت لتوّها من حلم، أو تعيش على أمل ما، أو تتلذّذ بنسمة عليلة في فصل ربيع. وجه يُرخي نفسه للموت في آخر انتفاضة لآخر حقيقة جوهرية. من يستطيع أن يكذب في لحظة رهيبة مثل هذه؟ أبداً لم تعرف في حياتها معنًى للكذب. والآن، وهي على وشك أن تفارق الدنيا، كانت أجمل من ذي قبل، لأن الكذب لم يكن أبداً ديدنها.

سكرة موتها كانت بطيئة هادئة. شرع جسدها يخور شيئاً فشيئاً. حين كانت بعدُ قادرة على الكلام، كانت تطلب أن يتم

تنظيفها مرتين في اليوم، حرصاً على بقائها متأنّقة متطرّفةً وديعة حتى النهاية. القلق أعفاها من عذاباته، فأصبحت راضية مطمئنّة لا شيء يشغل بالها. تعرف أننا حولها مجتمعون، ذاهلين مذعورين. نكلمها، فتتحرك شفتاها، لكن لا صوت يخرج من فمها.

رأسها الآن يشرف على أن يهب نفسه للأرض: هذه عبارة كانت تحب استعمالها، فتقول: إن من يعطي رأسه للأرض يصبح في غنى عن الرثاء. الذين يستحقّون الرثاء هم الباقون على قيد الحياة، الذين سيصعب عليهم العيش بدونه.

قالت لي مرّةً: هل تعرف... لقد ماتت ربيعة في أثناء نفاسها... تمّ ذلك كما ينقطع صوت فجأةً بسبب عامل خارجي ما... هكذا هو الموت: يحين بكيفية مفاجئة وغير متوقعة، تماماً كما تنقطع مكالمة تلفونية، فيظل المتكلم يردد ألو... ألو... ألو... من غير أن يستطيع أن يعرف أن لا أحد في الطرف الآخر للسلك سيردّ عليه!

لم يكن موتها يخيفها. ما كانت تخاف منه هو تلك الطّقوس التي ترافق موت الآخرين. طفوليّاً كان خوفها، كَأَنْ تصرخ في الليل مرتعبةً بسبب رؤيتها شَبَحَ مَيِّتٍ في كابوس، أو أن تشمّ روائح مستحضرات تغسيل وتكفين الأموات المنفّرة، أو أن تعجز عن مقاومة يَدِ مَيِّتٍ، باردة صلبة، تجرّها إلى هاوية سحيقة. فالموت عندها لا شيء، أما توابعه، فلا تطيقها.

بعد قليل سأصل إلى الدار، قادماً من باريس. سأسلك طريق عليّ باي التي لا تنفذ. سأدفع الرتاج ثم الباب. سأبحث

عن وجهها من بعيد ولن أراه. سأقصد غرفتها حيث جثمانها الآن مُسَجّى على ملاءة على الأرض، بانتظار صباح الغد. أسلمت روحها إذن في دارها، وليس في مستشفى، ولن يُودَعَ جسدها في معرض الجثث مجهولة الهوية. سأنحني عليها لأقبّل وجهها، تماماً كما فعلتُ قبل أن أسافر قبل أربعة أيام. . . سأبكي، ستذرف عيناي دموعاً غزيرة لن أستطيع حبسها. دموع الآخرين هي التي تثير دموعي كأنها مُعدية. لم يخجلني أبداً أن أبكي. سأبكي لأفرغ قلبي وذهني. لكن الدموع الحقيقية، الدموع التي أخشاها، هي تلك التي ستوقظني من نومي، شهوراً وسنواتٍ بعد يوم 4 فبراير 2002 هذا.

ستلاحقني أحلام عنيدة متسلطة قاسية. ستتراءى لي أمي يافعةً جميلة وهي حُبْلَى بي في صهد فاس الخانق. ستتراءى لي في حامة سيدي احرازم وأنا بعد رضيع متشبث بثديها. ستتراءى لي سعيدةً خفيفةً غير مبالية بالدنيا، ونحن في منتجع إفران ضيوفاً عند خالتي. هذه الأحلام أترقبها بلهفة، وحين أفيق، ينتابني حزن فادح، لأنّ صورة أمي تكون قد توارت عن عينيّ. سأكون الطفل الحزين الذي تصعب مواساته، والذي يسأم المدرسة مفضّلاً عليها حميمية النساء وحفلاتهنّ الخاصة بالمنازل بعد الظهر. سأهرع للاختباء في قبو الدار بين خوابي المؤونة السنوية، ثم أترصدها لأفزعها. سأخرج من مخبئي صائحاً فَرَحاً لأنني استطعت تخويفها. سألمحها وسط حشد الناس، لكنها لن تتعرّف عليّ. سأفيق مذعوراً وأنا أطلب النجدة. سأصعد إلى سطح دارنا الأولى في طنجة وسأرى البحر يحاذيها. سأكلّمها

من غير أن تسمعني. سأقول لها إنني أشتاق إليها كثيراً وستترك الريح تخبّل شعرها وتغطي عينيها. لن تحاول الاحتماء من الريح. ستلتفت إلى الوراء ثم ترحل جَذْلَى على بساط الريح.

لعل أمها وأباها وإخوتها وأزواجها سيستقبلونها هذا المساء في مكان ما وسيقولون لها: لكن... ماذا فعلتِ بتجاعيدك؟ أين اختفى شيب رأسك؟ تفدين علينا بكامل أسنانك وجمالك ولو أنك قصيرة القامة... لكثرة ما كنتِ تنادينا، ها نحن قد أبينا إلاّ أن نأتي جميعاً لاستقبالك. كنتِ لسنوات تلهجين بمناداة مولاي عليّ ويمَّا ولَلاّ وسيدي حسن، فها نحن إذن أمامك... لعل الرحلة لم تكن متعبة... الرحلة أو العبور... جئتِ في عزّ الشتاء... سننام أخيراً... سنغرق في سبات عميق إلى أبد الآبدين... تعاليْ، اقتربي، اجلسي، استريحي... سترين بنفسك أن الزمن هنا معطّل يدور على نفسه، فتصيبنا أحياناً دوخةٌ باهرة. أنتِ لا يعجبك هذا... حين كنتِ صغيرة، سقطتِ من فوق حصان خشبيّ رجراج في جنان السبيل، حديقة فاس العمومية، لأنك رأيت النجوم تتراقص بين عينيك، فبقيتِ ذاهلة لبضع دقائق... هنا لا يوجد حصان رجراج من خشب... لكن ستلاحظين أنك ستشعرين بالزمن من خلال لفحات الريح التي يثيرها عند مروره... نحن هنا لا نحترس لا من الزمن ولا من الريح... فلا شيء يمكن له أن يؤثر فينا... سنبقى موجودين ما دام يوجد من يتذكّرنا... الريح هي التي تخبرنا بمصير الأشياء التي تركناها خلفنا.

[37]

إنه الصيف في فاس، والشمس حامية. أمي تتلهّى بلعبة العروسة مع للاّ خديجة، ابنة خالتها وصديقتها. نصبتا على السطح خيمة من ملاءات لتكون دخشوشة تُؤويهما. أمي هي العروسة، تقف مستقيمة، عيناها مغمضتان لا مُطرقتان، وقد طلت خديها وشفتيها بالأحمر. وللاّ خديجة هي العريس، وقد رسمت على خدها الأيمن خالاً أسود وكذا لحيةً وشاربين بواسطة قطعة فحم. إنها الرجل الذي سيأتي لأخذ المرأة التي اختيرت له. تُمثّل بالإيماء حركات وصولها على متن حصان وهي تصدر أوامر بصوت مرتفع. أمي تسدل النقاب على وجهها. ترتبك. ترغب في الضحك خاصة لمّا رأت أن ابنة خالتها تمثل دورها بجدّ فيما الحصان ليس سوى قصبة. تعالي، اركبي ورائي على هذا الحصان... أنتِ زوجتي... أنتِ مِلكي... أرجو أن يكون أبواك قد أحسنا تربيتك... وإلاّ فسأربّيكِ على مزاجي! أمّي لا تجيب. تقول للاّ خديجة إن هذه علامة جيدة: عروسة تلزم الصمت... لؤلؤة طيّعة لا تحتجّ ولا تعترض... هي ذي عروسة أحلامي... مهذبة... منتمية إلى

أسرة ذات فضلٍ وجاهٍ. . . أمّي تطرق رأسها، ثم ترسل ضحكة متواصلة تُصَادِيهَا قَهْقَهَةُ لَلاّ خديجة، التي طوّحت في الهواء بخيمة الدخشوشة وهي تقول حبّذا لو نتزوج معاً في اليوم نفسه فيختار أبوانا لنا عريسين أخوين، رشيقين وجميلين. . . سنكون متفقتين على كل شيء. . . سنبقى دائماً صديقتين.

الجوّ يزداد حرارة. تملأ لَلاّ خديجة سطلاً بالماء وتفرغه على أمي التي تجري على السطح، وتأخذ أمي بدورها آنية تملأها بالماء وتفرغها على ابنة خالتها. تضحكان. تزلقان. تسقطان. تنهضان. تجريان لا تفكّران إلاّ في الزواج. كانتا سعيدتين وعمرهما لا يتعدى ثمانية أعوام.

الدار. الدار في نهاية الدرب الذي لا ينفذ. الدار القديمة بشجرتيها الهرمتين اليابستين وعشبها الوحشي الذي يواري بضع علبِ دواءٍ رمتها كلثوم أو رحيمو. هل كانتا تعتقدان أنهما تسكنان في مدينة صفيح أو في البادية؟ الدار المتلاشية بحيطانها السميكة المشقوقة ونوافذها المكسورة ورطوبتها الممزوجة بروائح المطبخ وزرابيها الرّثّة وثلاّجتيها، إحداهما معطّلة منذ عشرين عاماً، وبآلة طبخها الملطّخة بالمرق المحروق وزلّيج حمّامها المهشّم ومرحاضيها الْخَرِبَيْنِ وغبارها الكثيف المركوم خلف الصّوان ثم مرآتها العجيبة التي يُقال إنها صُنعت في مدينة البندقية والتي انفكّت تلقائيّاً من مكانها بالحائط في الليلة نفسها التي تسلّل فيها الموت إلى غرفة أمي، فسقطت من غير أن تتكسّر، وهو ما أوّله أخي بأنّه إشارة يبعثها القدر وصدفة غريبة لا تخلو من معنى، أما أختي المتطيّرة، فغطّتها بملاءة وهي تقول

إن الموت لا يحتمل حضور المرايا، لأن الموت لا يجب أن ينعكس على زجاج المرآة فيصبح مرئيّاً. أمّا أنا، فلقد رأيت الموت بأمّ عينيّ، رأيته بكيفية عرضية لاإرادية. رأيت أمّي كما كنت أتمنى دائماً ألاّ أراها أبداً، جسدها ملطّخ ببقايا غائطها، ممدّد فوق لوح خشبي، وخاصة فمها المنقعر مثل كوّة دائرية سوداء، كوّة تطلّ على ظلام دامس لا حدَّ له، وشعرها المطليّ بحنّاء سوداء. هوذا الموت. الموت هو هذه الهوّة السحيقة، هو هذا السّواد المكوّر في وجه بريء، هو هذا اللوح من خشب صقيل في غرفة كانت سابقاً غرفتي الخاصة قبل أكثر من عشرين عاماً. الموت هو هذه النفحة الحامزة الحامضة الحارقة التي تحتل القلب والرئتين، هو هذه الرائحة التي يختلط فيها فوحان البخور بنتانة الرطوبة، هو هذا الباب الذي سينسدّ على هذا الجسد الذي كفّ عن كونه أمّي، جسد دمّره الألم فزهقت روحه. لكن، أين هي أمي؟ هذه الكوّة السوداء ليست فم أمي! هذا الوجه المستدير الصغير ليس وجه أمّي! وهذا اللوح الخشبي ليس سرير نومها!

الغياب الأبدي! استولى الفقدان على الدار. الأشياء، كل الأشياء أصبحت عديمة الجدوى، بالية، خربة، بشعة. الأفرشة والمخدّات والطاولة العرجاء والصحون وكرسي البلاستيك والأريكة المتنقلة والعكّاز والملاعق والسكاكين والشوكات المقاومة للصدإ وكؤوس الشاي المذهبة الرديئة والتلفزة وهوائيته المتدلّية برخاوة وثُرَيّتَا الصالون المتلاشيتان ومناديل المائدة التي التي كانت رحيمو تستعملها في التنظيف.

كلثوم ورحيمو جمعتا حوائجهما. حقائب عديدة وأكياس ضخمة. أخذتا كل ما أمكن لهما الاستيلاء عليه. من غير استئذان وبدون حرج! لم أهتمّ بذلك. لكنني أكره الطمع والشره. رحيمو تبدو أكثر رقة ورحمة وأشدّ تأثراً بهذا الفقدان الفادح. كلثوم لا تقول شيئاً. تتنقل من غرفة إلى أخرى. تحاول أن تظهر بمظهر الحزن، لكن عينيها متيقّظتان بحثاً عن أشياء أخرى تستولي عليها. آه! التلفزة... لكنها ثقيلة، قديمة... سيأتي ولدي لأخذها... إلاّ إذا كان أحد أفراد العائلة يرغب في الاحتفاظ بها لنفسه... تنتظر، ترتب الغنيمة في الحقائب، تُخلي الغرف، تذرع الدار كأفعى مقطوعة الرأس، مستاءةً، قلقةً. هذا واضح في حركاتها. لعل الأمور لم تَسِرْ كما تصورتها أو خطّطت لها. حدثت أشياء لم تكن تتوقعها، مثل تلك الحقيبة المليئة بالقفاطين التي لم تلبسها أمي أبداً والتي اختفت من غير أن تعرف أين، ومثل طاقم «الطاووس» المتكوّن من صحون وأقداح مصنوعة من خزف الصين والذي توارى عن عينها فجأة، ونحن لا نقول شيئاً، مثلما لم نقل أي شيء من قبل، راغبين في وضع حدّ نهائيّ لهذا الفصل من حياتنا ولهذه المحنة. تتأهب كلثوم للانصراف. رحيمو تتلكّأ قليلاً، ثم تقترب منّا لتودّعنا. أعطيها ظرفاً يحتوي على قسيمة قابلة للمبادلة بتذكرة سفر إلى مكّة بالطائرة. لم تستطع إخفاء سعادتها، فأجهشت بكاءً. كلثوم تابعت المشهد ثم قالت بلهجة قاسية خشنة: هيّا، لننصرف الآن. ثم مدّت يدها لتتسلم ظرفاً خاصّاً بها، وسحبتها وهي تكرر بلهجة تهديد وقحة: ماذا ننتظر؟ لننصرف فوراً... بكت

أختي لأنها لم تعثر على فستان واحد من فساتين أمي. لقد دام النهب والنشل طوال أعوام وأمّي صامتة. كانت تقول لي: أغمض عيناً وأفتح أخرى... لكنني أفضّل ألاّ أتكلم مخافة أن تتخلّى عنّي، فهي قادرة على ذلك. إنها تستولي على كل ما تشاء بلا خجل ولا حرج.

كلثوم تريد أكثر من هدية وداع. لكن، ماذا تريد بالضبط؟ هل تريد الدار؟ نظراتها توحي بالغدر. لم تكن نظراتها أبداً مطَمئنة. هل هي حزينة؟ قال مجيب في الدار: نعم، حزينة، لأن مورد نهبها نضب! لا أجرؤ على التفكير في هذا. كلثوم متجهمة، تبدو كالمسعورة. ترمقنا بنظرات جافّة. حركاتها تشي بحنق مكتوم بسبب نهاية شيء ما. أغمض عينيّ وأشكرها على كل ما فعلته في السنوات الماضية. تقول لي إن اللَّه شاهد ومنصف. ناولتُها ظرفاً. بادرتْ إلى فتحه، ثم أولتني ظهرها لتحسب الأوراق المالية، وقالت لي: بهذا المال سأذهب أنا أيضاً إلى مكّة.

لست أدري هل هو الحزن أم هي الريح ما يثير نقع الذكريات ويغمسه في كأس المرارة. ثمة أخدود مؤلم ينحفر في القلب والذاكرة. الحِداد يُفسد نظام الأحجار التي جمعها الأطفال ويضعها حول القبر. صمتُ النظرات المتحجّرة يرمي الطين الرمادي على الطين الأسود الذي يُحركه معول حفّار القبر.

حين عدنا إلى الدار، واجهنا فراغ خانق. أغلقنا مصاريع النوافذ والأبواب كما لو كنّا مقبلين على سفر. الفقدان الفادح ختم الدار بالشمع الأحمر. ها قد أصبحت عدماً بين عشية

وضحاها. أبداً لن أعود إليها. كما لن أزور القبر أبداً. فليست أمي مَنْ وُورِيَ جسدها في الثرى. إن أمي هنا، أسمعها تضحك وتصلّي، أنصت إليها تلحّ على ضرورة العناية بترتيب مائدة الغداء وتُلحف كثيراً في حثّنا على أكل ما حضّرته من طعام، أراها واقفة تبتهج برؤيتنا متحلّقين حول أكلتنا المفضلة، منتظرة عبارة ثناء أو مجاملة. بسرور نلتهم الطعام عن آخره من غير أن نقول شيئاً، فتقول لنا حينئذ: الصحون فارغة، وهذا دليل على أنكم أحببتم ما طهوتُه لكم. فيرد عليها أخي الأكبر: اللّه يعطيكِ الصحة ويحفظكِ لنا بركةً إلى الأبد ويجعلكِ حاضرةً بيننا باستمرار وسعيدةً بحبّنا. فنقول جميعاً مبتسمين: آمين.

نبذة عن المترجم

- أستاذ التعليم العالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، المغرب. العنوان الإلكتروني:

E-mail: rachidbenhaddou@yahoo.fr

- ناقد ومترجم.
- إضافة إلى تأليف عدة دراسات نقدية عن الرواية المغربية والعربية والأدب المغاربي المكتوب بالفرنسية وأبحاث في علم الترجمة والمصطلحية النقدية ونظرية التلقي، صدرت له الكتب المترجمة الآتية (من الفرنسية إلى العربية):
  - **معركة البترول العربية**، محمد الحبابي.
  - **حرّودة**، الطاهر بنجلون.
  - **غزالة... وتنتهي العزلة**، الطاهر بنجلون.
  - **الرواية والواقع**، لوسيان چولدمان وناطالي صاغوط وألان روب - غرييي وجونفييف موييو.
  - **النص الروائي: مناهج وتقنيات**، بيرنار ڤاليط.
  - **جمالية التلقي**، هانس روبرت ياوس.
  - **من أجل تأويل جديد للنص الأدبي**، هانس روبرت ياوس.
  - **هلوسات على جدران العزلة**، الطاهر بنجلون.

الطاهر بنجلون

حين تترنّح ذاكرة أمي

تحوّلت أمي منذ مرضها إلى كائن نحيل صغير ذي ذاكرة مترنحة. تنادي أفراد عائلتها الذين ماتوا من زمن بعيد. تكلمهم. يدهشها أن والدتها لا تزورها، وتُثني على أخيها الصغير لأنه، كما تقول، يحمل إليها هدايا.

تنكفئ أمي إلى طفولتي. تتقهقر ذاكرتها. خارج الزمن تعيش منسحبةً من الواقع. تسألني كل ربع ساعة: "كم طفلاً عندي؟". وفي كل مرة أجيبها الجواب نفسه. هذا يغيظ خادمتها كلثوم التي تقول إنها لم تعد تطيق سماع السؤال نفسه والجواب نفسه.

أمي تخاف من كلثوم. امرأة تنّم عيناها عن نوايا خبيثة. هي تعرف أنني أرتاب من نظراتها. لذلك تنكّس رأسها حين تكلمني. تتذلّل لي حين تسلّم عليّ.

أتظاهر بعدم الانتباه إلى كيدها. أرى الخوف في عينيّ أمي. الخوف من أن تتخلّى كلثوم عنها حين يبقيان رأساً لرأس في المنزل. تقول لي أمي حين تكون في لحظة وعي: "أنا لست حمقاء. كلثوم تعتقد أنني فتاة صغيرة. توبخني. تهددني. لكنني أعرف أن مداومتي على الأدوية لها أثر يوهمني بأنها خبيثة. إنها بالعكس طيبة. كل ما في الأمر أن تفرّغها للعناية بي بدأ يزعجها ويتعبها. لذلك، لا حيلة لي سوى أن أغمض عيني عن كثير من ردود أفعالها..."

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com
ISBN 978-9953-68-390-5
9 789953 683904
لوحة الغلاف: أوغست مبك